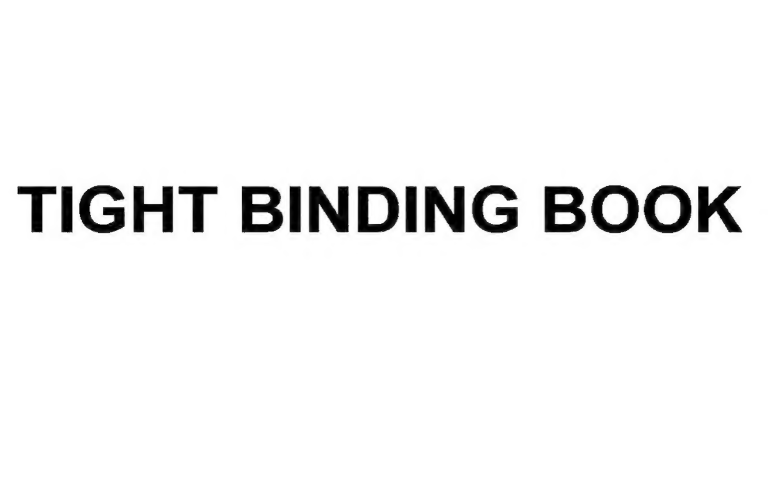

TIGHT BINDING BOOK

مختارات

جرجي زيدان

في

فلسفة الاجتماع والعمران

تحوي مباحث أخلاقية وحكمية

ونسائية وسياسية وادبية

الخ ... الخ ...

الجزء الثالث

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر

سنة ١٩٢١

القسم الرابع

مقالات عمرانية وتهذيبية

علموهم وكفى

ان كل الصيد في جوف الفرا [1]

في مصر اليوم ضوضاء صحافية ناشئة عن نهضة في النفوس غايتها رفع مصر الى مصاف الامم الدستورية والدول المستقلة . فبعضها تطلب جلاء الانكليز والبعض الآخر يطلب تشكيل مجلس نواب وآخرون يطلبون تقديم الوطنيين في المناصب الكبرى وبعضهم يطلب توسيع دائرة التعليم وجعل اللغة العربية قاعدة التدريس في المدارس المصرية . واختلفوا في الاستقلال وطرق طلبه بين أن يكون بالعنف أو بالحسنى عاجلاً أو آجلاً وقد كتبوا في كل من هذه المطالب مقالات ضافية وتباحثوا وتجادلوا وتخاصموا — ولو احسنوا لجمعوا كل قواهم في طلب واحد يغنيهم عن سائرها لانه أساسها كلها وبدونه لا يتيسر الوصول اليها نعني « التعليم »

فسواء اردنا تشكيل مجلس نواب مع بقاء الاحتلال أو بدونه أو أردنا التقدم في المناصب الكبرى وسواء طلبنا الاستقلال التام بالعنف أو التؤدة وسواء أردنا أن نفعل هذا أو ذاك بارادة المحتلين أو بغير ارادتهم لا يفيدنا التقدم في هذا السبيل خطوة واحدة الا بعد بث التعليم الكافي الذي يؤهل الامة لتولي أمثال هذه الشؤون

لا تكر رغبة المصريين في تعليم ابنائهم ولكننا نشكو من قلة المدارس الوافية بالغرض المقصود . ان الكتاتيب لا بأس بها وهي أساس التعليم ولكن الهمم انصرفت اليها دون سواها ونحن أحوج الى مدارس عالية تهذب النفوس وترقي العقول وتعلمنا ما لنا وما علينا مما الى مدارس تلقن الصرف والنحو والحساب والرسم . أليس من

---

(١) عن الهلال سنة ١٦ صحيفة ٣٤ (سنة ١٩٠٧)

العبث أن نطلب الحكم الدستوري أو ننادي بالاستقلال الاداري أو نلتمس النجاة من سيطرة الانكليز ونحن الى الان عالة على مدارس الحكومة ليس عندنا مدرسة كلية واحدة ؟ ألا يخجلنا أن نقدر ثروتنا باربعمائة مليون جنيه وأن يزيد احصاؤنا على اثني عشر مليون نفس وليس عندنا مدرسة كلية فلأنا الفضاء صياحاً وألفنا لها اللجان وحرضنا الاغنياء وافتتحنا الاكتتابات واستخدمنا في جمعها جماعة من خيرة فضلائنا ونخبة محبي الاصلاح بيننا ولكننا لم نخط بها حتى الان خطوة تستحق الذكر ولم يتجاوز ما جمع من المال بضعة وعشرين الف جنيه اشترك في دفعها بعض اغنياء القطر . ورأس مال هذه المدرسة لا يعجز عن تقديمه كله رجل واحد من الاغنياء اذا هزته الاريحية وأخذته الغيرة الوطنية كما يفعل اغنياء العالم المتمدن الذين نحداهم في طلب الدستور أو الاستقلال فيغنينا باريحيته عن جمع ذلك المال بالقرش والجنيه من تلامذة المدارس وصغار المستخدمين

أيليق بنا أن نطلب النيابة أو الاستقلال وهذه حالنا من الجهل ؟ لم نقرأ في التاريخ عن أمة نالت شيئاً من ذلك وهي في هذه الحالة سواء ارادت نيله بالسيف أو بالقلم فانها لا تجد سبيلا اليه . وهب أنها نالته وقبضت عليه بيدها فانها لا تحسن الاحتفاظ به ولا تلبث أن تضيعه وتكون حالها الثانية شراً من الاولى

كم من مرة حاول الهنود التملص من نير الانكليز وكم صاح خطباؤهم ونادت جرائدهم « الاستقلال الاستقلال » وكم استحثوا الامم واستنهضوا الهمم وكم ثارت شعوبهم فقاوموا الحكام وحاربوا الجنود فهل فازوا بما أملوا . كلا . ولماذا ؟ لان عامتهم لم يتعلموا وبعبارة أخرى لم ترتق عقولهم وتتهذب نفوسهم الى درجة يدركون بها معنى اجتماع الكلمة فان بالعلم ينفى التعصب وبالعلم تجتمع الكلمة وتتحد القلوب وبالعلم تدرك الامة غايتها القصوى . ولا يكفي تعليم الخاصة فان ذلك حاصل في اكثر الامم وانما الغرض تعليم العامة وتثقيفهم وتدريبهم لان جمهور الامة منهم . ولا تفلح أمة في مشروع وعامتها من الجهلاء

كم ألح العثمانيون وكم كتب كتابهم وخطب خطباؤهم يطلبون تأليف مجلس المبعوثان (البرلمان العثماني) تشبهاً بدول أوربا فلما تألف لم يعش الا قليلا . ما الذي اماته ؟ أماته الجهل لا نقول ذلك طعناً في معارف اعضائه معاذ الله فانهم خلاصة رجال المملكة العثمانية بلا خلاف ولكننا نقول ان البرلمان العثماني يحتاج الى أعضاء

أسمى عقولاً وأرقى آداباً واوثق اتحاداً من اعضاء البرلمان الفرنساوي أو الانكليزي لان في سبيله عقبات ليست في سبل أولئك — يكفيك من آفات المملكة العثمانية باختلاف عناصرها ولغاتها ومذاهبها وسيادة التعصب فيها والتعصب أبو الانشقاق والانشقاق ينبوع الخراب فاذا احتاج اعضاء البرلمان الفرنساوي في اجتماع كلمتهم الى جزء من العلم كان اعضاء البرلمان العثماني في حاجة الى عشرة اجزاء فكيف ونحن لم نبلغ مبلغ أولئك بعد

لما انحلّ مجلس المبعوثان قامت الامة العثمانية تلتمس اعادته وقد ألحت في طلبه بعنف وشدة وألّفت لذلك الجمعيات السرية وغيرها ولكنها تطلب عبثاً وترجو باطلا. وهب ان الدولة اعادت ذلك المجلس الآن فانه منحلّ غداً لان الامة لم تبلغ درجة من العلم تؤهلها لمثل هذا العمل العظيم ولن تبلغه الا بانتشار العلم بين افرادها على اختلاف طبقاتهم ولا نشترط عليهم نبذ التعصب فان العلم الصحيح يتكفل بذلك

ولا يغرنك نيل الفرس بعض هذه المطالب وهم لا يفضلوننا بالرقي الادبي ولا المادي فانهم نالوا الدستور بسعي جماعة من الخاصة لا بصوت الامة ولذلك يعسر عليهم الاحتفاظ به لانه جاءهم قبل اوانه فاذا تغيرت الاحوال أو تبدلت الاشخاص عادت الامور الى ما كانت عليه

فمن الحكمة وسداد الرأي ان نسير على مقتضى ناموس الاجتماع فنصرف همنا الى ترقية الامة وتهذيب نفوسها وتدريبها على الاعمال ونترك سائر المطالب لابنائنا او احفادنا اذ يكونون ارقى عقولاً وأوسع علماً من اهل هذا الجيل واقدر على فهم ما ينفعهم او يضرُّهم فينظرون في حالهم فاذا رأوا الاستقلال انفع لهم طلبوه أو رأوا الدستور ملائماً لأحوالهم التمسوهُ فيفعلون ذلك عن روية ونظر ويكون حكمهم اقرب الى الصواب

هذه أمة الاميركان خضعت لحكم الانكليز الى اواخر القرن الثامن عشر فصبرت حتى تعلم ابناؤها وتثقفوا ونظموا الحكومة والجيش ونشأ منهم العلماء ورجال السياسة والقواد وهم يحاسنون الانكليز ويستعطفونهم. فلما خاب نداؤهم ورأوا الاستقلال ضرورياً لبقائهم ووجدوا في أنفسهم الكفاءة لنيله قاموا قومة رجل واحد وظفروا بما ارادوا. وقد كان العلم اساس استعدادهم لانهم بعثوا ابناءهم لتلقيه اولاً في كليات اوربا ثم انشأوا كليات مثلها في بلادهم يخرج منها الشبان

وقد تعلموا الاعتماد على النفس وادركوا معنى الوطن ومعنى الحرية . ولما نهضوا للاستقلال كان عندهم ست مدارس كلية كبرى وعددهم يومئذٍ مليون نفس وبعض المليون فكيف نتشبه بهم ونحن نزيد على اثني عشر مليوناً أي نحو عشرة أضعافهم وليس عندنا مدرسة كلية واحدة .. ؟ ويظهر اننا مع ثروتنا وكثرتنا لا نستطيع القيام بكلية واحدة !

ناهيك بما أعدّه الاميركان لاستقلالهم من الثروة الصناعية بانشاء المعامل والمناجم فضلاً عن الثروة التجارية التي يحسدهم الانكليز عليها — كل ذلك من ثمار التعليم العالي والتربية الصحيحة على الحرية الشخصية والشجاعة الادبية وعلو الحكمة واجتماع الكلمة . فاين هذا كله منا وكيف ندركه بغير التعليم . فعلينا ان نطلب اولاً الاستقلال الادبي وبه نصل الى الاستقلال السياسي ونحن احوج الى ذلك الاستقلال منا الى هذا

اننا في حاجة الى التدرب على الاستقلال في الفكر والاستقلال في العمل حتى لا نبقى عالة على الحكومة لا نعلم اولادنا الا في مدارسها ولا نرشح شباننا الا لخدمتها فاذا أغلقت الحكومة أبواب تلك المدارس بات ابناؤها بلا تعليم واذا أوصدت أبواب الخدمة دونهم تعرقلت مساعيهم وباتوا يشكون الفاقة

على ان الاستقلال الحقيقي الاساسي هو استقلال الامة بمصالحها وطرق معائشها في التجارة والزراعة والصناعة فتجتمع الثروة في ايديها والثروة دم المجتمع الانساني لا تحيا الامة بدونه فبدلاً من ان تتعلق معائش الامة على اهواء الحكومة تصبح الحكومة في حاجة الى ثروة الامة او الى رأيها

فنستلفت انتباه ارباب الصحف الذين جعلوا اقلامهم وقفاً على طلب الاصلاح والمناداة بخدمة المصلحة العامة ان يتكاتفوا على التماس الاصلاح من ابوابه . فبدلا من ان يصرفوا ذكاءهم وينفقوا قواهم في كتابة ما يثير خواطر الامة على حكومتها او يأول الى سوء الظن بعشيرها ان يحرضوها على التعليم والتهذيب ويستدروا اموال الاغنياء لانشاء المدارس العالية والخروج من طبقة القاصرين الذين لا يزالون عالة على سواهم لا يؤذن لهم ان يتعاطوا شؤونهم بانفسهم . ويستنهضوا هممهم للسعي في تثقيف ابنائهم وتدريبهم على الاعمال المستقلة الآيلة الى الثروة الحقيقية فاذا فعلوا ذلك قاموا بما يطلب منهم وتركوا ما وراءه الى من يأتي بعدهم ولا يكلف الله نفساً الا وسعها

هذبوا ابناءكم وهم اطفال

علموهم الصدق والترتيب والمحافظة على الوقت

وبغضوا اليهم الكبرياء [١]

الناس من حيث تأثير التربية في الانسان فريقان فريق لا يرون للتربية فائدة على الاطلاق وعندهم ان الانسان انما يشبّ على ما فطر عليه ان خيراً وان شراً . فالصادق عندهم مفطور على الصدق منذ ولادته والكاذب مفطور على الكذب وكذلك الكريم والبخيل والمقدام والكسول وغيرهم . وحجتهم في ذلك ان عشرة اخوة قد يربون في بيت واحد وأحوال واحدة يربيهم أب واحد وأم واحدة ثم يتعلمون في مدرسة واحدة ومع ذلك فان كلا منهم يشب على خلق خاص به وقد يكون بينهم الصادق المبالغ في الصدق والكاذب المبالغ في الكذب أو الفاضل العفيف والسافل الدنيء — فاين ذهب تأثير التربية في هؤلاء . فعندهم ان التربية عبارة عن مصقلة تصقل بها المواهب كما يصقل النحاس والفضة والذهب والالماس وغيرها فانها تنظف الظواهر ولا تتطرق الى البواطن ولا يلبث كل من هذه المعادن أن يعود الى طبعه بعد قليل لان النحاس لا يزال نحاساً والذهب لا يزال ذهباً والفضة فضةً

وفريق يزعم ان الانسان صنيعة التربية يكون كما يشاء مربيه فيشب على ما يتعوده من خير او شر وقلما يكون للفطرة تأثير على أخلاقه وأطواره بل هو كالعجينة او الطينة مهما أرادت طبعه فيها انطبع واذا جفت ظل ذلك الطبع فيها . وحجتهم في ذلك أن الطفل يولد وهو لا يدري شيئاً ولا علم له بشيء فيكتسب العلم مما يقع عليه بصره أو يطرق سمعه من الحوادث الجارية حوله . فاذا كلموه بالعربية شب وهي لسانه او بالانكليزية فكذلك أو بكلتيهما فيشب وهو يتكلمهما . واذا ربوه على اعتبار الخير شرًّا أو الشر خيراً شبَّ على ذلك

والواقع ان التربية ليست من قبيل صقل النحاس أو الفضة أو الذهب أو غيرها من المعادن لان هذه اجسام جامدة والانسان حي نامٍ . ولا هي من قبيل العجين أو الطين فان هذين لا حياة فيها ولا مرونة تدفعها الى طريق يستدعيها النمو .

---

(١) عن الهلال سنة ١١ صحيفة ٤٨٥

والانسان فيه منذ طفولته قوة كامنة تدفعه الى النمو والتغير شأن الاجسام الحية

وانما الانسان من حيث التربية وسط بين ذينك القولين فهو كالشجرة تنمو مستقيمة او معوجة بحسب ما يطرأ عليها من المؤثرات . فلو القيت بعض بذور البرتقان في بستان ولم تتعهدها بالسقي او الاصلاح ولا تممدت أذيتها بوجه من الوجوه فانها تنمو وتصير اشجاراً وفيها المعتدل والمعوج والقصير والطويل والمثمر وغير المثمر وفيها ما لا يكاد ينبت حتى ييبس وفيها ما لا ينبت بالكلية . ولو تتبعنا أسباب ذلك لرأينا بعضه يرجع الى أصل تركيب البذور والبعض الآخر يتعلق بالظواهر الجوية والبعض الآخر بالحوادث الارضية ـ ذلك شأن الانسان اذا ترك للطبيعة ولم يعتن بتربيته . فقد يكون فيه أستعداد للاعمال العظمى وفطرة غريزية للاخلاق الحسنة او يكون مفطوراً على الرذائل والخمول فيشب بمقتضى ذلك مع ما قد يطرأ عليه في طفولته من الطوارىء الخارجية وهي مختلفة وتأثيرها على الناس مختلف

أما اذا غرست تلك البذور بيدك في امكنة ابعادها متناسبة ثم تعهدتها بالسقاية والاصلاح فاذا تبينت في بعضها ميلاً الى الاعوجاج تلافيته وأسندتها وقومتها وغصنها لا يزال لدناً ثم تعهدتها بالمقراض فقطعت ما ينبت فيها من الاغصان الفاسدة أو المعوجة ـ فاذا فعلت ذلك بعناية وتعقل لا تكاد ترى في بستانك شجرة عوجاء أو مشوهة . على انك لا تزال ترى بين تلك الاشجار تبايناً في الحجم والشكل وقوة النمو . واذا كان بين تلك البذور بذرة من برتقان بري لا تطمع في أن تجعلها حلوة من الغرس الاول ولو سقيتها مذوب السكر وبذلت كل جهدك في تحليتها

والانسان يولد وفيه غرائز فطرية تذهب به الى الخير أو الى الشر وفيه ايضاً قابلية للاكتساب فاذا عومل بالعناية اللازمة اكتسبت غرائزه شكلاً جديداً فاذا كان ميلها الى الخير زادتها تلك العناية رونقاً واذا كان ميلها الى الشر لطف شرها تلطيفاً حسناً . فاذا ولد احدهم وفيه ميل فطري الى الكذب مثلاً وعني مربوه منذ طفولته في تقبيح الكذب في عينيه ومراقبة ذلك فيه المراقبة الدقيقة وتتبع كل خطوة من خطواته فانه يتعود ان يخاف من الكذب . فاذا شبّ لا يبعد أن يعود اليه ولكنه يبقى بحكم العادة يخافه فيقل وقوعه فيه . وقس على ذلك سائر الرذائل

وقد يولد الطفل وفيه جراثيم بعض الفضائل فاذا أهملت التربية ماتت تلك الجراثيم كما يزداد البدن ضعفاً اذا لم يسع في تقوية أعضائه بالرياضة البدنية ونحوها .

ومن الامور المشهورة ان بعضهم قد اكتسب بدنه قوة عظيمة بمجرد الرياضة البدنية ولم يكن أحد يتوقع منه ذلك

على اننا اذا اعتبرنا التربية بالنظر الى الامة على وجه الاجمال رأينا تأثيرها أعظم كثيراً ويزداد ذلك التأثير بتوالي الاجيـال . كما تتحول الاشجار البرية الى أشجار بستانيـة بتوالي غرسها وتعهدها بالاصلاح والعناية ويظهر ذلك جلياً في تأثير الاديان بالامم . فترى لـكل امة آداباً وأخلاقاً عامة تختلف عن آداب وأخلاق الامم الاخرى قد اكتسبتها بتوالي الاجيال من تعاليم ذلك الدين . واذا انتقلت الامة من دين الى آخر لا تلبث ان تتغير آدابها واخلاقها حتى توافق تعاليم ذلك الدين ـ اعتبر ذلك في قبائل الجرمان كيف كانت أطوارهم وأخلاقهم قبل اعتناق الديانة المسيحيـة وكيف اصبحت بعدها . وفي قبائل العرب في الجاهلية وفي الاسلام وقس عليه . أما في الافراد فالتربية أقل تأثيراً وقلما يظهر أثرها الا اذا بوشرت في الصغر والعود رطب فانها تأتي بفوائد حسنة

ولا بد في تربية الاولاد من النظر في قواهم (غير البدنية) نظراً تشريحياً فهي تقسم بالاجمال الى قسمين القوى العاقلة والاخلاق (القوى الادبية) وقلما نجد علاقة متبادلة بينهما . اذ قد يكون المرء قويّ العقل فيحل المعضلات ويحرز علوم الاولين والآخرين ويذهب في الفلسفة مذاهب ساميـة ويرتكب مع ذلك أدنى الرذائل . فكم من عالم منـافق او بخيل أو فاسد الاداب وكم من ضعيف العقل صادق اللهجة حر الضمير كريم الخلق . لـكن بعض كبار العقول اذا كان فيهم ميل فطري الى شيء من الرذائل اصلحوه بقوة ارادتهم وصبرهم . على ان الغالب في أقوياء العقول ان يكونوا حسان الاخلاق

ويهمنا مما تقدم أن الطفل يخلق وفيه شيئان يجب الانتباه اليهما في تربيتـه وهما عقله وأخلاقه . فالعقل اذا قصر الولدان في تربيته فالمدرسة تعوضها عليه . أما الاخلاق فلا بد من مداركتها في الطفولة والا فان المدرسة قلما يكون لهـا تأثير في تربيتها . والاخلاق هي عماد الفضائل وعليها يتوقف مستقبل الانسان في هذه الحياة من خير أو شر ـ بالاخلاق يكون الانسان سعيداً أو تعيساً وبالاخلاق يكون نافعاً او ضارًّا . فلا يفرح الآباء اذا رأوا أبناءهم يسبقون أقرانهم في العلم والمعرفة وغيرها

من ثمار الذكاء لان ذلك لا يغنيهم شيئاً اذا لم يكونوا على خلق حسن . ماذا يفيد الرجل كثرة ما يحسنه من اللغات أو يفهمه من العلوم اذا كان كاذباً أو متكبراً أو ماذا يفيده علمه اذا ساء أدبه وتلطخت سيرته فانه ساقط لا محالة . فتهذيب الاخلاق أول ما يجب الاعتناء به وهو من واجبات الآباء والامهات . بل هو من واجبات الامهات على الاكثر لان الام تصاحب الطفل في ذلك السن أكثر مما يصاحبه أبوه . ولذلك قالوا ان التي تهز السرير بيمينها تهز الارض بيسارها . لانها اذا أحسنت تربية أخلاق ابنها جعلته سعيداً لنفسه ومفيداً لابناء نوعه

فالوالدون مطالبون بتربية أولادهم على حب الفضائل ونبذ الرذائل . ولكن هذا التعريف مبهمٌ لاتساع حدوده وكثرة ما يعدونه من صنوف الفضائل والرذائل. وفي اعتقادنا ان تربية الاخلاق المراد بها سعادة الانسان ومنفعة أبناء نوعه تحصر بهذه العبارة « علم ابنك الصدق والترتيب والمحافظة على الوقت وبغض اليه الكبرياء » لان الصدق أساس كل الفضائل . فالصادق لا يكون خائناً ولا مختلساً ولا سارقاً ولا زانياً ولا مزوراً ولا نماماً . فاذا عاملت صادقاً فانت في مأمن على مالك وعرضك وهو على يقين من رغبة الناس في معاملته

والترتيب اساس انتظام الاعمال فمن يتدرب من طفولته ان يضع كل شيء في مكانه يشبُّ مرتباً في اعماله في هذه الحياة . فمن تعلمه امه اذا خلع قميصه ان لا يلقيه على الارض كيفما أتفق بل يضعه في المكان المعدّ لتعليق الثياب او اذا عاد من المدرسة أن لا يضع كتبه في مكان لا يهتدي اليه في الصباح الا بعد البحث فانه يتعود الترتيب ويشب مرتباً في حساباته وتجارته ومعاملته فلا يضيع شيئاً من اوراقه او دفاتره ولا يخشى ضياع ثروته . ومن كان محافظاً على وقته لا تفوته فرصة لا يعمل بها عملاً فانه لا يخاف فقراً

وأما الكبرياء فهي عقبة من عقبات الرزق في سبيل هذه الحياة . فلو عرفت صانعاً مهما بلغ من مهارته في صناعته وكان مع ذلك متعجرفاً كبير الدعوى فانك تنفر منه وقد تعاف نفسك الانتفاع بصناعته فراراً من معاملته . واذا بحثت بحثاً تحليلياً في منزلة معارفك عند نفسك من حيث رغبتك في مجالستهم أو نفورك من قربهم لرأيت للكبرياء والتواضع دخلاً عظيماً في ذلك . لان المتكبر مكروهٌ حيثما كان والمتواضع مقبول في أي حال . وكبير الدعوى لا تجد من يحبه أو يصبر على عشرته او معاملته

لانه جاهلٌ ولو احرز علوم الارض وأحمق ولو احاط بفلسفة المتقدمين والمتأخرين ـ اذ لا يدل على مقدار جهل الانسان أكثر من جهله مقدار نفسه . ولو بحثت في ما يعبر عنه الناس بقولهم « فلان خفيف الروح » أو « فلان ثقيل الروح » لوجدت علة ذلك بالاكثر التواضع والكبرياء . فالمتكبر المدعي يستثقل الناس دمه وبعكس ذلك الوديع المتواضع فانه مقبول حيثما أقام وهو خفيف الروح أو الدم ـ ولا يخفى ما يترتب على ذلك من المنافع أو المضار في حياة الانسان

علموا أبناءكم الصدق بكل معانيه أي علموهم ان لا يقولوا غير ما يعتقدون واغرسوا فيهم حب الترتيب والمحافظة على الوقت أي ان لا يضيعوا وقتاً لا يعملون فيها عملاً وبغضوا اليهم الكبرياء فانها أشد ما يبغضهم الى الناس . فاذا فعلتم ذلك فقد قمتم باهم واجب عليكم في تربية ابنائكم ولله ما وراء ذلك

التعليم الالزامي

والتعليم المجاني [1]

١ – تمهيد

قد تقرر في الاذهان أن التعليم أساس كل ما يتطلبه المصريون من الرقي السياسي أو الاداري أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الزراعي أو الصناعي . وتناولت صحفنا هذا الرأي وخاضت فيه ونصرته وأيدته ودعت اليه وحثت عليه وأصبح القوم اذا ألفوا حزباً جعلوا من أهم مطالبه « التعليم » والحكومة نفسها اعترفت بصحة ذلك الرأي بما اتخذته من أسباب السعي في تسهيل التعليم أو توخته من ارسال الطلبة الى أوربا واحياء اللغة العربية في مدارسها. فاصبح قولنا « التعليم ضروري » أو « علموهم وكفى » أو حث الامة أو الحكومة على التعليم من قبيل التكرار البارد

على اننا لم نقتصر عن القول بتعميم التعليم وانه أساس كل تقدم ولكننا بيّنا الطريق المؤدي الى ذلك واستحثثنا رجال المال وأهل الغيرة على انشاء المدارس

(١) عن الهلال سنة ١٦ صحيفة ٢٠١

الكبرى من اموالهم وأتيناهم بالامثال استنهضنا بها هممهم فنشرنا أمثلة مما جاد به اغنياء الامم الاخرى في سبيل انشاء معاهد العلم والفضيلة من الاموال الطائلة وطلبنا اليهم الاقتداء بهم في انشاء مدرسة كلية مصرية تكون فاتحة انشاء مدارس أخرى . وبيّنا لهم أننا قد حان لنا أن نعوّل على أنفسنا في تعليم ابنائنا بالخروج من وصاية الحكومة والاستغناء عن اعانتها في نشر التعليم كما تفعل سائر الامم المتمدنة — ضممنا صوتنا في ذلك الى اصوات سائر ارباب الاقلام وقد نهضوا نهضة واحدة يستحثون ويستنهضون ويؤنبون ويسفون — وكانا كالكاتب على الماء لسرّ لم ندرك كنهه مع علمنا أن اغنياء المصريين أهل سخاء وأريحية يشهد بذلك ما رأيناه ونراه من سخائهم في مشروعات يتوقعون منها نفعاً زينه لهم الساعون فيها ببارضة الخطيب وبلاغة الكاتب . فذهب اكثر ما جمعوه ضياعاً وربما عاد بعضه بالضرر عليهم وعلى بلادهم . فلو أن الساعين في تلك المشروعات بما اوتوه من الذكاء والنشاط وقوة البرهان صرفوا تلك المساعي في استدرار الاموال الكافية وانشأوا بها المدارس بدل الاحزاب لبلغنا الغاية التي نطلبها على اهون سبيل . لان ما بذل من المال والسعي في تلك الشؤون قد يكفي لقلب الحكومة وتغيير وجه السياسة ولكن الامة المصرية غير مستعدة لمثل ذلك فذهب السعي هدراً — وكم من رجل عظم يضيع مواهبه ويجر الخيبة لنفسه والخراب لبلاده لاستخدام مواهبه في غير الجهة الملائمة للاحوال . وقد يكون مخلصاً في عمله يستخدم في خدمة وطنه وفيه ذكاء وهمة ولكنه يسيء استخدام تلك القوى فتعود بالفشل عليه وبالضرر على أمته ولو نظر في ما يستطاع اجراؤه وفيه نفع لأفاد واستفاد

وفي مصر الان جماعة من ارباب الاقلام وأصحاب الثروة والجاه قد ملكوا قيادالامة بما أوتوه من الذكاء والدهاء لا يستنفرون أغنياءها الى مشروع الا لبوهم على اختلاف في الاغراض بينهم . فألفوا الاحزاب والشركات وجمعوا اموالا تكفي وحدها لانشاء الكلية التي بحّ صوتنا في طلبها ولكنها ذهبت في سُبل اخرى . فلو صرفوا عنايتهم الى هذه الجهة واستخدموا قواهم ومواهبهم في هذا السبيل لما كلفونا مؤونة العود الى هذا الموضوع ولا يضرهم ذلك في ما يريدونه من الاغراض السياسية بل هو انفع لهم اذ تكون الامة بعد نشر العلم اكثر استعداداً لما يريدونه منها . ولكن يظهر اننا لم نزل في حاجة الى وصاية الحكومة لا غنى لنا عن ارشادها وتدريبها — بل

نحن في حاجة الى استبدادها كما يستبد الوالد في ولده رغبة في مصلحته . فحبذا الاستبداد في هذا الشأن وما في ذلك عار على الامة المصرية فانه الطريق الذي تمشت فيه سائر الامم المتمدنة نعني به « التعليم الالزامي »

٢ — التعليم الالزامي

ونعني بالتعليم الالزامي أن تجعل الحكومة تعليم الابناء فرضاً على آبائهم يُسألون عن التقصير فيه. وكما يطالَب الوالد بطبيعة الوجود بحفظ الولد وحياطته وتربية بدنه بالغذاء والكساء ريثما يشتد ساعده ويستقل بنفسه فهو ايضاً يطالَب بتربية عقله وتهذيب نفسه ليقوى على معاركة الحياة . ولكننا نرى الآباء غير عاملين بهذه القاعدة والحكومة انما أقيمت لحماية العاجز ونصرة الضعيف والاقتصاص للمظلوم من الظالم. فكما تطالب الوالد اذا قصر في تغذية ولده وكسائه وتحمله على القيام بهذا الواجب فهي مسئولة عن تقصيره في الواجب الآخر اذا رأته مقصراً به ولم تجبره عليه. ولذلك كان للحكومة أن تجبر الوالدين على تعليم اولادهم ولا سيما اذا كانوا لا يزالون في اوائل ادوار نهضتهم

كذلك فعلت الامم الراقية ولا يزال التعليم اجبارياً في الممالك المتمدنة حتى الآن فلماذا لا يكون كذلك بمصر بعد ان رأينا تقاعدنا عن انشاء المدارس من عند أنفسنا مع قلة المتعلمين بيننا ? فان الامم المتمدنة لم يكثر عدد القارئين فيها الا بالتعليم الاجباري . كان عدد الاميين في الشعب الانكليزي سنة ١٨٤٣ نحو ٣٢ في المئة من الرجال و٤٩ من النساء فاصبح (١٩٠٨) واحداً في المئة من الرجال واثنين من النساء . وعدد الاميين في الولايات المتحدة اكثر منه في غيرها نظراً لكثرة المهاجرين اليها واكثرهم لا يقرأون ومع ذلك فقد كان عدد الاميين فيها سنة ١٨٨٠ نحو ١٧ في المئة فاصبح عشرة في المئة فقط مع انها اكثر الامم انفاقاً في سبيل التعليم . وفي المانيا يختلف عدد الاميين باختلاف المقاطعات ولكنهم قليلين جداً ففي بعضها لا تجد في المقاطعة كلها صبياً أو شاباً أو شابة أو كهلاً أو شيخاً لا يعرف القراءة والكتابة واكثر الاميين في مقاطعة شرقي بروسيا وهم هناك واحد من سبعمئة وقس على ذلك سائر ممالك العالم المتمدن الكبرى والصغرى . ولا خلاف في أن زيادة عدد القارئين في الامة يدل على ارتقائها

أما مصر فيسوءنا أن الاميين فيها لا يزال عددهم أضعاف عدد القارئين وقد بلغ

عدد الذين يعرفون القراءة من سكان القطر المصري باحصاء سنة ١٨٩٠ أقل من ٦ في المئة من مجموع السكان وهب أنه بلغ ضعفيه الان وثلاثة أضعافه فهو قليل جداً بالنظر الى الامم المتمدنة . فهل نستطيع ادراك منزلة تلك الامم بغير التعليم الاجباري – ربما أدركناها بدونه ولكن بعد أجيال متوالية فنبقى في أخريات المتمدنين الى ما شاء الله

والتعليم اجباري الان في انكلترا وفرنسا والمانيا والنمسا والدانمارك وأسوج والبلجيك وهولندا واليونان وفي الولايات المتحدة والمكسيك والارجنتين وفنزويلا وسالفادور وسانتو دومنكو واورغواي وسائر جمهوريات أميركا الجنوبية وفي اليابان وغيرها حتى السرب والجبل الاسود ورومانيا وهو اسمي في تركيا لا ينقصه الا التنفيذ

فالدول المتمدنة تجبر شعوبها على تعليم ابنائهم وتعين المدة التي يجب ان يلازموا بها المدارس وهي تختلف في ذلك باختلاف الامم وأطولها في انكلترا . فان الاب فيها مكلف أن يدخل ابنهُ المدرسة من أوائل طفولته الى السنة السادسة عشرة من عمره . ومدة التدريس عند الفرنساويين سبع سنين أي من السنة السادسة من عمر الولد الى الثالثة عشرة وعند النمساويين من السادسة الى الرابعة عشرة وكذلك عند اليابانيين وقس عليها سائر الامم المرتقية . وقد سهلت حكوماتهم على الاهالي تعليم ابنائهم بجعل المدارس عامة في البلاد والقرى يزيد عددها بزيادة عدد السكان . ومن قوانين فرنسا من هذا القبيل ان كل قرية بلغ عدد سكانها خمسمئة نفس يجب أن يكون فيها مدرسة ابتدائية

فاذا كانت دول العالم كبراها وصغراها جعلت التعليم فيها اجبارياً والناس هناك ينشئون المدارس من عند انفسهم لان الايام علمتهم شدة افتقار الناشئة الى العلم فكيف ونحن كما تقدم ؟ فكما تراقب الحكومة الصحة العمومية وتجبر الوالدين على تلقيح أولادهم بلقاح الجدري تخفيفاً لويلات هذا الوباء عنهم وعن سائر أهل القطر فهي مطالبة باجبارهم على تعليم أبنائهم لتخفيف ويلات الجهل وهو أشد نكاية وأسوأ مصيراً من الاوبئة الجارفة

وهي تنشىء المحاكم والسجون وتقيم الارصاد على الافاقين وأهل البطالة وتنفق الاموال في حفظ الامن العام فاذا أجبرت الناس على تعليم ابنائهم خففت كثيراً من هذه المصائب عنها وعن الامة لان التعليم الصحيح يقلل أسباب الفساد وكما يذعن

الناس للحكومة بما تأمرهم به من وقاية أبدانهم وصيانة حقوقهم فهم يذعنون لها في تربية ابنائهم

٣ـ التعليم المجاني

ولكن اذا سنت الحكومة قانوناً يقضي بالتعليم الالزامي وأذعن الناس لاوامرها فهل يستطيع كل منهم الانفاق على تعليم اولاده ؟ كلا . لان معظم الشعب وهم الفلاحون لا يقدرون على نفقات التعليم فضلاً عن حاجتهم الى ابنائهم للاستعانة بهم في الفلاحة فان احدهم لا يصدق ان يبلغ ابنهُ السابعة او الثامنة من عمره حتى يستخدمه في بعض حاجيات بيته أو حقله . فاذا اضطر الى تعليمه في المدارس كانت خسارته مضاعفة ـ وهو اعتراض معقول ولكن دفعه ميسور بالقياس على سائر امم الارض وفي كل امة الصانع والمزارع والتاجر والغني والفقير

أما من حيث حاجة الوالد الى معونة ولده في قضاء حاجيات بيته او حقله فتضع الحكومة لمثل هؤلاء شروطاً لا يلحقهم معها ضر حتى يرى الفلاح مع الزمن ان استغناءه عن خدمة ابنه في طفولته يعوض عليه أضعافها اذا تعلم

أما نفقات التعليم فيرجع أمرها الى الحكومة وهي مطالبة بها للأسباب التي قدمناها . والحكومة التي تسن قانون التعليم الالزامي يجب عليها أن تنشيء المدارس المجانية فتنفق في التعليم كما تنفق في سائر الاسباب العائدة الى صيانة الوطن واعلاء شأنه كتجنيد الجند وانشاء المعاقل وحفظ حياة الافراد وحقوقهم بانشاء المجالس الصحية والقضائية والتنفيذية وهي تنفق في ذلك الاموال الطائلة . ونشر العلم يخفف عنها كثيراً من أعباء هذه المهام ـ هكذا فعلت الامم المتمدنة ولا سيما التي سنت قانون التعليم الالزامي . فان كلاً منها ينفق قدراً معيناً من أموالها على تعليم الفقراء ...

وأكثر هذه الاموال تنفق في التعليم الابتدائي لان المقصود بتعميم العلم أن يكون كل فرد من أفراد الامة يعرف القراءة والكتابة ومبادىء الحساب والجغرافية والتاريخ ليستنير عقله في أعماله وتسهل عليه المطالعة . وأما ما وراء ذلك فعلى اختيار الآباء حسب الاحوال . والدول تختلف انفاقاً على المعارف باختلاف درجات رقيها

على اننا اذا نظرنا في مصر نظراً تاريخياً من حيث التعليم الالزامي والمجاني رأيناها سائرة القهقرى فقد كانت المدارس في زمن محمد علي تشبه ان تكون اجبارية لانهُ كان يحمل الاهالي على تلقي العلوم العصرية جبراً . وكانت أيضاً مجانية

ولم يقتصر محمد علي على التعليم مجاناً بل كان يطعم التلامذة ويكسيهم ويقوم بسائر لوازم حياتهم . وقد بطل الاجبار في اواخر حكمه. واما المجانيـة فظلت متبعة على الكيفية التي ذكرناها الى اواخر ايام اسماعيل فكان الطلبة الفقراء يقيمون في المدرسة يتعلمون ويأكلون ويشربون وينامون ويكتسون على نفقة الحكومة . وفي سنة ١٨٧٤ ارادت الحكومة ان تجري على سنة سائر الامم فتفرض على التعليم جعلاً تأخذه من الاغنياء ولكنها تطرفت حتى منعت الفقراء من التعليم لأنها ابطلت المجانيـة . وبلغ عدد الدافعين من تلامذة مدارسها للعام الماضي ٩٢ في المئة وكانوا سنة ١٨٨١ اقل من ٣٠ في المئـة وكانت واردات المدارس الاميرية تلك السنة ٢٣٢٣ جنيهاً فاصبحت للسنة الماضية ١٠٧٠٠٠ جنيه

٤ — العظماء من اكواخ الفقراء

فالحكومة بابطال المجانيـة من مدارسها قد اساءت الى الامة لأنها حالت بين الفقراء وأسباب الارتقاء فمنعت عن الوطن جنداً من ارباب العقول ينبغ من اكواخ الفلاحين وفيه نشاط الخلاء وصحة الابدان لا يحول بينهم وبين العلم غير الفقر فاذا صار التعليم مجانياً ظهر جماعة من رجال العلم والعمل يخدمون الامة بعلمهم ونشاطهم . ولو تدبرت تاريخ هـذه النهضة لرأيت اكثر الذين ظهروا في اولها وايدوها بمؤلفاتهم أو ادارتهم أو حكمتهم انما نبغوا من ابناء الفقراء الذين علمتهم الحكومة على نفقتها . ولو لم يكن التعليم مجانياً لظلوا في زوايا النسيان — وكم في اهـل الغيط من صحيح الجسم والعقل يقضي نهاره عارياً يركض في اثر جاموسة يرعاها أو غنمة يحلبها فتذهب ايامه ضياعاً ولو تعلم لصار رجلاً عظيما . وكم من رجل عظيم نبغ بين الاكواخ والشواهد على ذلك كثيرة حتى بين اظهرنا في مصر والشام

فالحكومة مسئولة عن ضياع هـذه المنافع باقفال باب المجانية في مدارسها . ولا تنكر أنها شعرت بتلك التبعة وأعادت النظر فيها فاجازت المجانية في بعض الاحوال . غير ان ذلك لا يكفي فالامة تحتاج الى التحريض على التعليم ولا يكفيها المجانيـة وانما هي في حاجة الى التعليم الالزامي اقتـداء بسائر الدول المتمدنة على اختلاف طبقاتها ودرجات رقيها من سلطانة البحار التي لا تغيب الشمس عن املاكها الى الجبل الاسود الذي لا تزيد مساحته على ٣٦٣٠ ميلا مربعة وعدد سكانه اقل من ٢٤٠٠٠٠ نفس وميزانيته أقل من ١٢٥٠٠٠ جنيه وليس فيه من الاميين الا القليلون

فاذا كانت هذه الدولة وغيرها من الدول الصغرى كالسرب ورومانيا الى اصغر جمهوريات اميركا تجبر رعاياها على تعليم ابنائهم وتساعدهم على تعليم الفقراء منهم فضلا عما يبذله اغنياؤهم من المال في انشاء المدارس الاهلية أليس من العار علينا والامم تحسدنا على مياه النيل وتربة واديه وما يجري من سيول الثروة في خزائنه ونحن نقلد الامم الراقية بظواهر المدنية من الرياش والحدائق والقصور والثياب والحلي والمركبات البخارية والكهربائية وسائر اسباب البذخ ونطالب حكومتنا بما عند اولئك من الرقي السياسي ونلح عليها بطلب الاستقلال والدستور ونقلد الافرنج بانشاء الاحزاب والشركات — أن تكون هذه حالنا من الانحطاط العلمي . ما بالنا لا نقلدهم باسباب ذلك الرقي وهو نشر التعليم بين طبقات الامة بالقوة اذا كانت هي لا تقدم عليه من عند نفسها

جامعة ام كلية
والعلوم الادبية أم الطبيعية (١)

الهلال أول من نادى بحاجة مصر الى مدرسة كلية بمقالة ظهرت في الهلال التاسع من السنة الثامنة عنوانها « مدرسة كلية مصرية هي حاجتنا الكبرى » قلنا في جملتها :

« نحن في حاجة الى مدرسة كلية تعلم العلوم العالية يتولى أمرها رجال يتخذهم التلامذة قدوة في الاعتماد على النفس والاقدام وحرية الفكر والقول ومعرفة الحقوق والواجبات . فاذا خرج التلامذة منها انشأ بعضهم المدارس في البلدان والقرى يبثون تلك الروح في أبنائها ويبثها الاخرون في رفاقهم بالاسواق والجمعيات والدواوين وفي المجالس العمومية والخصوصية »

ذلك ما قلناه منذ تسع سنوات وكنا كلما سنحت فرصة نعيد الكرة وننبه الاذهان الى ضعف التعليم ونستنهض الهمم لانشاء المدارس حتى تفضل مصطفى بك كامل الغمراوي

(١) عن الهلال سنة ١٦ صحيفة ٥١٦

منذ عامين باخراج ذلك القول الى حيز العمل فاقترح على الامة المصرية انشاء مدرسة كبرى سماها « جامعة » وفي اعتقادنا أنه يعني « كلية » أي مدرسة تعلم العلوم العالية وتربي النفوس على استقلال الفكر والقول . فاستقبلت الامة اقتراحه بالترحاب والاستحسان وتألفت اللجنة لجمع الاكتتابات كما هو مشهور

ولكن يظهر أن اللجنة أخذت اقتراح الغمراوي بمؤداه الحرفي فجعلت الغرض انشاء جامعة على نمط جامعات أوربا . والجامعة عندهم مؤلفة من عدة كليات . فتربصنا حتى تنشر اللجنة النظام الذي تسير عليه في العلوم التي ستعلمها وفي كيفية التعليم . فلما صدر منشورها المختصر الذي نشرناه في الهلال الماضي ذيلناه بملاحظتين بدتا لنا من مطالعته : الاولى اننا لم نجد فيه ذكراً للغة العربية ورجونا أن تكون هي قاعدة التدريس . والثانية اننا اعترضنا على الطريقة التي تنوي الجامعة السير عليها في التعليم وهي الخطب في بعض المواضيع الاجتماعية

ثم جاءنا كتاب نظامها الكامل والبشرى بدخولها في رعاية الجناب العالي ورئاسة الشرف لسمو ولي العهد . فكان ذلك باعثاً على الثقة في نجاح هذا المشروع . وقد سرّنا ما قرأناه في نظامها عن اللغة العربية أنها ستكون قاعدة التدريس فيها . وأما التعليم فقد قالت أنه « سيكون مماثلا للحاصل في المدارس الجامعة باوربا مع مراعاة تطبيقه على احتياجات القطر المصري » وهو قول مبهم يحتاج الى ايضاح ولكن يظهر لنا من قرائن كثيرة أهمها ما أعلنت عزمها عليه من الشروع بالقاء الخطب أنها ستجعل التدريس خطباً في بعض العلوم على ما ذكرناه في الهلال الماضي أو محاضرات كما يفعلون في جامعات أوربا أي أن تعين أساتذة يلقي كل منهم خطاباً في الفن المختص به مرة أو مرتين في الاسبوع يحضره الطلبة فيلتقط كل منهم ما يعلق في ذهنه من ذلك الخطاب على قدر اجتهاده وذكائه لا يجبره احد على الحضور ولا يطالب ببيان ما تعلمه الا في الامتحانات العمومية . وقد قلنا في الهلال الماضي أن هذه الطريقة وان أفادت الافرنج في جامعاتهم فهي غير ما نحتاج اليه نحن لاختلاف احوالنا عن أحوالهم . هم يلقون الخطب في المواضيع الاجتماعية أو الاقتصادية أو الطبية أو القضائية أو غيرها من العلوم والفنون على شبان أتموا دروسهم العلمية ونالوا البكلوريا الحقيقية . وأما نحن فسنلقيها على حملة البكلوريا المصرية (أو بكلوريا

الخدمة الاميرية) وقد بينا الفرق بينهما في مقالة المدرسة الكلية المصرية في السنة الماضية ـ هذا هو المحور الذي عليه مدار الكلام

ان الخطب في المواضيع الاجتماعية أو الاقتصادية أو التاريخية جزيلة الفائدة ولكنها ميسورة لنا بغير المشقة التي يقاسيها اعضاء اللجنة والعناية التي يبذلونها في جمع الاموال ووضع النظامات . اذ يسهل القيام بالقاء هذه الخطب في الاندية العلمية والادبية التي نشأت بين أظهرنا في هذه الاثناء . على اننا نعد الخطب في هذه المواضيع كمالية بالنظر الينا ـ نحن في حاجة الى العلوم الاساسية التي يتلقاها حملة البكلوريا الحقيقية في العالم المتمدن والى التدريب على الدرس والبحث والتمحيص وترقية النفوس بالتربية المدرسية العالية . بل نحن في حاجة الى التربية اكثر مما الى العلم . وهذا لا يكون بالخطب والحضور الاختياري بل هو لا ينال الا بالزام التلميذ على تفهم الدرس واعادته على المعلم والمناقشة فيه حتى يرسخ في ذهنه . وبملازمة الطلبة المدرسة معظم ساعات النهار تحت مراقبة أساتذة عقلاء يرقون نفوسهم بارشادهم وقدوتهم وبما يشكلونه لهم من الجمعيات الادبية ويعودونهم اياه من الخطب والمباحثات والمنافسة في التأليف والجدال وغير ذلك على نحو ما هو جار في المدرسة الكلية السورية

لما جاء الاميركان لنشر العلم في سوريا قضوا اعواماً في تجربة الطرق الملائمة للشرقيين وان خالفت طرق الغربيين فوصلوا الى طريقة هي أفضل الطرق المؤدية الى هذا الغرض . فما بنا لا نستفيد من اختبارهم ـ ان انشاء هذه الجامعة خطوة مهمة في تاريخ هذه النهضة والآمال عالقة بها والابصار شاخصة اليها . فاذا لم نحسن وضعها على ما يلائم حاجاتنا ذهبنا بآمال المكتتبين وأضعنا اموالهم عبثاً وأسأنا الى أبنائنا وأحفادنا الذين نزعم أننا نهيء لهم سبيل الاستقلال بانشاء هذه المدرسة وأمثالها . فينبغي أن نضع الاساس على الصواب قبل ضياع الفرصة . ويجب على كل منا أن يقول رأيه لاننا شركاء في النتيجة فيجب أن نشترك في مقدماتها . وفي اعتقادنا أن الشبيبة المصرية تحتاج الى مدرسة تعليم وتربية يدخلها الطالب لدن العود لين العريكة فلا يزال يتلقى العلم ويتمرس باسباب الترقي حتى يخرج مهذباً مثقفاً قوي الارادة نشيطاً هماماً مستقل الفكر يحب وطنه ويتفانى في خدمته . وهذا لا يتأتى بالحضور الاختياري لسماع الخطب . لان معظم هذه المحامد ينال بالقدوة والمباحثة والمعاشرة

اناء الليل واطراف النهار . وبعبارة أخرى أننا في حاجة الى مدرسة يسبك فيها الطالب سبكا في قالب جديد يوافق مصلحة بلاده

العلوم الطبيعية أم الادبية

وكتب الينا غير واحد يسألوننا رأينا في العلوم التي يحسن بالجامعة تقديمها : العلوم الطبيعية كالطبيعيات والكيمياء والتاريخ الطبيعي والرياضيات والفلك وغيرها أم العلوم الادبية كالتاريخ والفلسفة والاقتصاد والشعر ونحوها من المباحث الاجتماعية والادبية ؟ والجواب على ذلك ان جميع هذه العلوم لازمة لتوسيع مدارك الشبان وترقية نفوسهم ولكن العلوم الطبيعية أولى بالتقديم لانها تنير الاذهان بالاطلاع على اسرار الكون ونواميسه وكلها حقائق ثابتة مترابطة تدرب العقل على النظر الصحيح والحكم الصواب . فيظهر له الكون كما هو ويدرك حقيقة الموجودات ويسهل عليه تعليل الحوادث . فلا تأخذه الاوهام والخرافات واذا قرأ التاريخ أو الادب أو نظر في نظام الاجتماع بعد ذلك كان نظره صادقاً وكان حكمه أقرب الى الصواب

فالطبيعيات تعلمنا مثلا نواميس السمع والبصر والانتقال والميكانيكيات والجاذبية والمغنطيسية والكهربائية وغيرها فلا نصدق ان زرقاء اليمامة رأت جيش العدو على مسافة ثلاثة ايام ولا نخاف الشفق اذا احمر ولا السماء اذا أرعدت ونهزأ بما يرد في احاديث القوم من أخبار العفاريت وغرائب الحوادث المخالفة لنواميس الطبيعة . والكيمياء تكشف لنا سر الظواهر التي نراها في التحليل والتركيب فلا نصدق أن الحجر يتحول الى طعام أو النحاس الى الذهب ونعلم أن المادة لا تتلاشى . والمطلع على مبادىء علم الفلك لا يخاف على القمر من الحوت أن يبتلعه ولا يزعج أهله وجيرانه بضرب النحاس

والتاريخ الطبيعي يعلمنا أن الانسان لا يعمر خمسمائة سنة أو الف سنة وأن الآدميين وسائر أصناف الحيوان قلما اختلف شكلها أو حجمها من أول عهد التاريخ الى الآن . ومبادىء الفسيولوجيا والتشريح تعلمنا كيف تتألف أجسام الناس وكيف يتحول الطعام الى غذاء ويتطهر في الدم الرئتين فلا نصدق أن الانسان يعيش أشهراً او أعواماً بلا طعام ولا أن مدة الحمل تتجاوز أشهرها المعدودة

والجيولوجيا تدلنا على عمر الارض وما في جوفها من الطبقات وتبين لنا أسباب الزلازل والبراكين وغيرها — وقس على ذلك سائر العلوم الطبيعية التي تعلم في

المدارس الكبرى باوربا . فطالب البكلوريا عندهم يتعلم الفلسفة الطبيعية والفسيولوجيا والكيمياء والحيوان والنبات والجيولوجيا والفلك والمنطق والفلسفة العقلية والادبية والجغرافية الطبيعية والظواهر الجوية والاقتصاد السياسي فضلا عن التاريخ والجغرافية واللغات وغيرها

وفي مدارسهم المعدات اللازمة لبسط هذه العلوم وايضاحها بالمشاهدة والتجربة كالمعارض التشريحية وفيها اجزاء الجسم وأعضاؤه باشكالها . والمعارض الجيولوجية وفيها أصناف المعادن والاحجار حسب طبقات الارض ومواقعها . والمعارض النباتية وفيها أصناف النبات على اختلاف الاقاليم والاصقاع ناهيك بالآلات الفلكية والمراصد لمشاهدة الاجرام ومراقبة حركاتها والمعامل الكيماوية لتحليل الموادوتركيبها ومسارح الحيوانات ومعارض عظامها وبقاياها على اختلاف الانواع والاجناس غير المعارض الطبيعية لتجربة الميكانيكيات والبصريات والسمعيات وغيرها

فالشاب الذي يدرس هذه العلوم على هذه الكيفية يخرج من المدرسة وقد استنار عقله واتسعت مداركه وعرف نواميس الطبيعة وتفاعل العناصر وطبائع الاجسام فيدرك عظمة الكون وحقيقة الانسان فلا يأخذه الغرور ولا تخدعه الاوهام . واذا سمع خطاباً في التاريخ أو الادب أو الفلسفة أو آداب اللغة فهم منه غير ما يفهمه حامل البكلوريا المصرية التي لم يتلقَّ صاحبها من هذه العلوم الا شذرات من الكيمياء والطبيعيات والرياضيات يتلقاها على عجل لقلة المعدات اللازمة لايضاحها وتفسيرها

فالناشئة المصرية تحتاج قبل كل شيء الى العلوم الطبيعية التي توسع المدارك وتعلم الانسان حقيقة هذا الوجود من حيث علاقة الارض بسائر الاجرام السيارات والثوابت وتكشف له عما يجري على سطح هذه الكرة من تفاعل القوى واسبابها ونتائجها وطبائع ما ينبت فيها من النبات او يسرح عليها من الحيوان وأسباب ما يغلي في باطنها من الحمم أو يتساقط عليها من المطر أو يهب فوقها من الرياح . وتدله على تركيب جسمه وأسباب نموه وطرق غذائه وتوالده ونواميس عقله وأخلاقه ـ يحتاج الشاب المصري الى هذا كله قبل الجنوح الى النظر في العلوم الاجتماعية او الفلسفية أو التاريخية او درس تمدن الامم أو آداب لغاتهم . ولا يتم ذلك الا بمدرسة كلية علمية تلقى فيها هذه العلوم كما تلقى في المدرسة الكلية الاميركانية

فنستلفت انتباه لجنة الجامعة الى هذه الملاحظات لانها صادرة عن قلب يحب مصر ويغار على مصلحتها . فاللجنة المشار اليها اذا ارادت ترقية الشعب المصري واعداده ليحكم نفسه فعليها ان تبدأ بانشاء مدرسة علمية كبرى على نحو ما قدمنا تقيم فيها اساتذة من اهل الفضل يفيدون التلامذة بقدوتهم كما يفيدونهم بعلومهم ويكون التعليم فيها بالحفظ والاسماع والمراجعة والمناقشة كما ذكرنا . واذا أرادت القاء الخطب في اثناء ذلك في العلوم الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها من الادبيات فانه يكون مفيداً

هذه كلمات نقولها في سبيل المصلحة العامة وقد نكون مخطئين في بعضها أو كلها وانما قلنا ما نظنه صواباً — والمباحثة تجلو الحقيقة . وقد همنا النظر في هذا الموضوع دون سائر المواضيع التي تتناقش فيها الصحف أو يتحدث بها الناس لاعتقادنا أنه أهمها كلها بالنظر الى مصلحة مصر لان ما يتطلبه أهلها من الاستقلال أو الدستور أو الحرية أو الثروة أو غيرها لا ينال بغير العلم . والعلم للعقول كالغذاء للابدان لا يصح تناوله الا في نسق وعلى مقدار بالتدريج الملائم للصحة والنمو . فكما اننا لا نطعم الطفل الرضيع اللحوم والتوابل باعتبار أنها تغذي البالغين وتقويهم لعلمنا أنها تلبك معد الاطفال وقد تقتلهم . فلا ينبغي أن نكلف حملة البكلوريا المصرية تلقي المسائل الفلسفية والاجتماعية العالية قبل تقوية عقولهم بالعلوم الطبيعية والرياضية ونحوها

ما هو الاستقلال الحقيقي [1]

في مصر اليوم فئة من ارباب الاقلام نسمع نداء بعضهم على المنابر ونقرأ اقوال البعض الاخر على صفحات الجرائد يدعون الناس الى الاستقلال ويستحثونهم على الاتحاد للمطالبة بحقوق هُضمت أو حرية سُلبت . وهم بعبارة أخرى يلتمسون التملص من قيود الاحتلال . وليس في الناس عاقل لا يحب الاستقلال ولا منصف يسوّغ اهتضام الحقوق . بل نحن نعتقد أن فئة كبيرة من رجال دولة الاحتلال يقولون مثل هذا القول في أعظم نوادي السياسة عندهم . وليس من شأن الهلال البحث في الاساس الذي بنيت عليه الشكوى . ولكننا رأينا أن نقول كلمة في هذا الموضوع من حيث علاقته بناموس العمران

---

(١) عن الهلال سنة ٨ صحيفة ٢٩٧

لا يعرف قدر الحرية غير العاقل الحكيم ولا يدرك السبيل اليها غير المتقد البصير واذا باتت حرية قوم في قبضة قوم أقوى منهم بطشاً وأمنع جنداً فمن الجهالة أن يلتمسوا استرجاعها بقوة السلاح الا اذا استنصروا قوماً آخرين . وهب أنهم افلحوا وكسروا تلك القيود فهل يضمنون أن لا يكون نصراؤهم الحديثون أشد وطأة عليهم من اعدائهم الاولين . على ان التاريخ والقرائن يدلاننا على خطر تلك الخطوة

ولا نطيل الكلام في هذا الموضوع والقارىء يعلم ما آلت اليه مصر في مثل هذه الشؤون من أقدم ازمنة التاريخ الى الان . يكفينا من ذلك ما تقلبت عليه منذ الفتح الاسلامي . فقد كانت قبيل الاسلام تحت سلطة الرومان فلم يرض أهلها بذلك الاحتلال فاستنصروا المسلمين ونصروهم على رجال حكومتهم فدخلت مصر في حوزتهم فانتقلت من دولة الى دولة وأهلها في كل حال محكومون . وقضت بعد ذلك اجيالا تحت سيطرة الخلفاء الراشدين فالامويين فالعباسيين حتى تولاها بنو الاخشيد في اوائل القرن الرابع للهجرة فملّ المصريون مما استحكم بين الاخشيدية من الخلاف فاستنجدوا الدولة الفاطمية في المغرب فجاء القائد جوهر مصر ففتحها وكان رجالها عوناً له في ذلك الفتح فاصبحت في سلطة الفاطميين في أواسط ذلك القرن . وما برحت في قبضتهم الى أواسط القرن السادس في خلافة العاضد بن يوسف فاختلف اثنان من رجال دولته على الوزارة فخرج المغلوب منهما الى الشام واستنجد نور الدين زنكي صاحب دمشق فانجده بجند تحت قيادة شيركويه عمّ يوسف صلاح الدين (السلطان صلاح الدين) وكان لا يزال غلاماً فآل ذلك الاستنجاد الى تداخل الاكراد في حكومة مصر ثم افضت الوزارة الى شيركويه ومنه الى صلاح الدين وأخيراً استخرج صلاح الدين الحكومة لنفسه فانتقلت مصر من الدولة الفاطمية الى الدولة الايوبية

ولو تتبعتَ تاريخ مصر في انتقالها من دولة الى اخرى لرأيت سبب ذلك الانتقال في الغالب استنجاد فئة من أهل البلاد أو رجال الحكومة دولةً أجنبية ولنا بالحوادث العرابية أقرب دليل

فاذا تبيَّن لك ذلك علمت ان الالتجاء الى دولة اجنبية التماساً للاستقلال ضرب من العبث . فاستنهاض الهمم واثارة العواطف في هذا السبيل لا يخلوان من العواقب الوخيمة بغير فائدة ترجى

بقي علينا البحث عن سبيل آخر الى الاستقلال . لان الاستقلال مستحب تهواه

النفس الابية وتستهلك في الحصول عليه

فنقول اننا اليوم في حاجة الى استقلال أدبي أكثر مما الى استقلال سياسي ومعنى ذلك اننا نحتاج الى التدرب على الاستقلال في الفكر والاستقلال في العمل لكيلا نكون عالة على الحكومة لا نعلّم اولادنا الا في مدارسها ولا نرشح شباننا الا لخدمتها فاذا اغلقت الحكومة أبواب تلك المدارس بات ابناؤنا بلا تعليم أو سدَّت أبواب الخدمة دونهم تعرقلت مساعيهم وباتوا يشكون الفاقة . وهي أحوال تكاد تكون خاصة بمصر أو هي على معظمها فيها

وسبب هذه الاحوال ان المغفور له محمد علي باشا لما تولى شؤون هذه الديار رأى الجهل مخيماً في ربوعها وهو حكيمٌ يعلم اننا في عصر النور ولا سبيل الى الاستنارة الا بالعلم فأنشأ المدارس وجعل صبغتها عربية ونشط كل عمل عربي وأحيا الجامعة العربية ثم أنشأ الدواوين والمصالح فاحتاج الى كتّاب وعمَّال فاتخذهم من تلامذة تلك المدارس وكثيراً ما كان يبعث البعثات العلمية الى اوربا على نفقة حكومته لتعليمهم . واقتدى به من خلفه من الولاة والخديويين . فاصبحت المدارس الاميرية مبعث العلم ومصالح الحكومة مصدر الرزق وشُغل المصريون عن زراعتهم وصناعتهم وتجارتهم فباتوا عالة على عاتق حكومتهم . حتى اذا كان الاحتلال الانكليزي واقتضى الاقتصاد الاداري الاستغناء عن بعض المستخدمين غصَّت الشوارع باهل البطالة . وبات أبناء البيوت العامرة يتضورون جوعاً لانهم أصبحوا بعد تعودهم خدمة الحكومة لا يستطيعون عملاً مستقلاً

والاستقلال الحقيقي انما هو استقلال الامة بمصالحها وطرق معائشها من التجارة أو الزراعة أو الصناعة فتجتمع الثروة في أيديها والثروة دماء المجتمع الانساني لا تحيا الامة بدونه

فبدلاً من أن تتعلق معائش الامة على اهواء الحكومة تصبح الحكومة في حاجة الى ثروة الامة او الى رأيها وأقل ما ينجم عن ذلك ان الحكومة اذا أرادت الاقتصاد لا يترتب على اقتصادها أقفال البيوت فينقم أصحابها عليها . ولو تدبرت أسباب نقمة أكثر الناقمين على الحكومة اليوم لرأيت حجتهم في ذلك انها تولي وظائفها أناساً دون آخرين . فما اغنانا عن هذا التحاسد

ومما نحتاج اليه من ضروب الاستقلال استقلال الفكر ومن ثماره الرأي العام

وذلك لايكون الابالتعليم والتثقيف وقد نبهنا الى ذلك فيمقالات سابقة واقترحنا انشاء مدرسة كلية مصرية على مثال المدارس الكبرى في اوربا فلا حاجة بنا الى التكرار

ولكننا نستلفت انتباه أرباب الاقلام الذين جعلوا أقلامهم وقفاً علىطلب الاصلاح أن يتكاتفوا على التماسه من ابوابه فبدلاً من ان يصرفوا ذكاءهم وينفقوا قواهم في كتابة المقالات الرنانة التي تثير عواطف الامة على حكومتها او مشيريها ان يحرضوهم على التعليم والتهذيب ويستدروا اموالهم لانشاء المدارس العالية ويستنهضوا هممهم للسعي في تثقيف ابنائهم وتدريبهم على الاعمال المستقلة الآيلة الى الثروة الحقيقية كما يفعل سواهم من المشارقة الذين شعروا بانحطاط الشرق فنهضوا لاحياء معالمه

ما برح أهل الهند يعترفون لنا بالسبق في ميدان العلم ويغبطوننا على ما نلناه من عوامل المدنية حتى رأيناهم قد سبقونا في هذه السنين الاخيرة الى السعي في نشر لواء العلم وتعميم التربية فالفوا الجمعيات لانشاء المدارس وشكلوا اللجان للبحث في ما تحتاج اليه بلادهم من ضروب التربية الصحيحة . فوقف خطباؤهم على المنابر وبذل اغنياؤهم الاموال في سبيل التعليم . ونحن اولى منهم في التماس ذلك وفينا بحول الله نخبة الادباء والفضلاء وبين ظهرانينا جماعة كبيرة من أهل اليسار لا يدخرون وسعاً في ما يأول الى ترقية شؤوننا . ولكن كتابنا (او بعضهم) شغلوا عن الجوهر بالعرض فبذلوا قواهم في ما لا طائل تحته من أثارة الضغائن وتهييج العواطف وهم يعلمون انهم اذا دعوا الناس الى قومة لا يلقون مجيباً واذا لقوا لا نخالهم يجهلون عاقبة ذلك فضلاً عن ضياع الوقت واضلال البسطاء فلا يزيدون الجهال الا جهالة

فاذا قالوا انهم انما يفعلون ذلك غيرة على الوطن وضناً باستقلاله قلنا لهم نعم الغاية ولكن بئس الواسطة . هذه بلاد الهند مرّ عليها أجيال في حال مثل حالنا بل هي أثقل وقراً وأصعب مراساً وقد حاول أهلها ما حاولناه مراراً فلم يروا نتيجة غير الفشل . فاجمع عقلاؤهم على التماس الاستقلال الحقيقي بالتربية والتعليم فحصروا عنايتهم في هذه الغاية فالفوا مؤتمراً سموه مؤتمر التربية أو هو مؤتمر الاصلاح الاجتماعي عقدت جلسته الثالثة عشرة في آخر دسمبر الماضي في لكناو فحضرها بضعة آلاف من وجهاء الهند ونخبة رجاله فتليت الخطب ودارت المباحثات في الوسائل اللازمة لترقية شؤون الامة الهندية فاجمع المؤتمر على ثلاث عشرة وسيلة . هذه خلاصتها :

(١) تعليم المرأة . فاجمعوا على ان ترقية الشؤون الاجتماعية لا تتأتى الا بتعليم المرأة وتهذيبها تهذيباً كافياً ووضعوا لذلك شروطاً منها (اولاً) انتخاب معلمات صحيحات المبدأ حسنات التربية من عائلات معروفة (ثانياً) تدريب اولئك المعلمات على طرق التعليم والتربية في مدارس خاصة بذلك (ثالثاً) اذا عجزت بعض البلاد عن انشاء المدارس الكبرى يكتفى فيها بمدارس بيتيـة صغيرة (رابعاً) ان يكون من أهم علوم تلك المدارس الدين والآداب والهيجين وصناعة اليد والتدبير المنزلي وتربية الاولاد

(٢) اصلاح عادات الزواج . بتخفيض نفقات الاعراس ومنع الزواج قبل سن ١٢ او ١٤ في البنات و ١٨ او ٢٠ في الفتيان

(٣) الاعتدال . ويريدون به الكف عن المسكرات فالفوا لجاناً في أشهر مدن الهند لمنع انتشار تلك الوسائل الجهنمية

(٤) نزع التعصب الديني وما ينشأ عنه من الخصام بين المسلمين والبراهمة

(٥) الترغيب في الاسفار . باقناع بعض طوائف الهند الذين يعدون الاغتراب حراماً بانه جائز ومفيد

(٦) انشاء جمعيات خيرية . تجنباً لطواف الشحاذين في الاسواق وفيهم جماعة لا يستحقون الاحسان

(٧) النظافة . بان يتعود الهنود على تنظيف منازلهم وحوانيتهم وشوارعهم ويبطلوا بعض العوائد الوثنية التي تخالف شروط النظافة

(٨) نزع التعصب وقبول المرتدين بلا تردد

(٩ و ١٠ و ١١ و ١٢) هي بنود تتعلق باصلاح بعض أحوال الزواج الخصوصية بتلك البلاد

(١٣) الرياضة البدنية للاولاد . بان تجعل المدارس جوائز خصوصية لمن يفوز على أقرانه في الالعاب الرياضية ترغيباً للاولاد في ممارستها

هذه خلاصة قرار تلك الجلسة . ويظهر منها جلياً أن اخواننا الهنود سبقونا في تنشيط وسائل التربية شوطاً بعيداً مع انهم يعترفون لنا بالسبق في أكثر شؤون المدنية

فحاجتنا الكبرى الآن الى الاصلاح الادبي قبل السياسي . وهو اصلاح الامة في شؤونها الادبية ومعاملاتها العمومية . ولا يتم ذلك الا باصلاح العائلات وهـذا لا يكون الا بالتعليم والتربية

والحثّ على التعليم والتربية اصبح موضوعاً مبتذلا لا يكاد يُغفل ذكره كاتب او خطيب ولذلك فان الحثّ عليه قلما يستلفت الانتباه . ولكننا بعد أن فصلنا عواقبه وأسبابه وذكرنا الامثلة بالدليل والقياس لم نعد نرضى بمجرد البحث النظري ولابد لنا من مباشرة العمل فنقترح انشاء جمعية أو لجنة أو مؤتمر على مثال المؤتمر الهندي الذي ذكرناه وهو يضمن لنا كل ما نتمناه من وسائل الاصلاح . وبدلاً من أن نعتب على نظارة المعارف لاغفالها علوماً نعتقد فائدتها في اصلاح شؤوننا نتركها وشأنها ونتولى اصلاح امورنا بانفسنا كما تفعل سائر الامم الحية فان السواد الاعظم منهنّ انما تعتمد على رجالها وأموالها بالسعي والانفاق . على أن الحكومة المصرية قد أدّت الواجب عليها ببذر أغراس العلم بيننا قرناً كاملاً فانتشلتنا من هوّة الجهل واهدتنا سبيل العلم فوجب علينا استثمار ذلك الغرس بايدينا . والاعتماد على النفس أصل كل محمدة

بنات الشوارع

الخطر على الشبيبة المصرية (١)

أتحسب اذا علمت ابنك في اكبر المدارس وثقفته في أرقى المعاهد وربيته أحسن تربية وغرست في قلبه حب الفضيلة والتمسك بالآداب السامية واتخذت كل وسيلة لوقايته من الامراض الوافدة كالتلقيح بمادة الجدري والحقن بمصل الكوليرا . وهب أنهم توفقوا الى وقاية الابدان من سائر تلك الامراض بالمصل أو غيره وانك لم تغادر وسيلة للوقاية الا اتخذتها من حقن أو تلقيح ـ أتحسب اذا فعلت ذلك كله وأنت مقيم في القاهرة أو الاسكندرية انك امنت على ابنك وفلذة كبدك من غوائل المرض أو فساد الآداب ؟ كلا . واذا توهمت ذلك فانك في غرور

لا خلاف في أن التعليم والتربية يرقيان النفس ويهذبان الاخلاق فيجتنب صاحبهما أسباب الاوبئة ويبتعد عن مفاسد الاخلاق فيهجر المقامر والحانات واماكن الفحشاء . وقد يبلغ من عفة نفسه أن ترتعد فرائصه عند ذكر تلك الاماكن الجهنمية . ولكنه

---

(١) عن الهلال سنة ١٦ صحيفة ٤٥٧

لا يزال مع ذلك عرضة لخطر هو أشد وطأة على الانسانية من سائر الاخطار لانه يتناول عذاب النفس والجسد . اذا أصاب شاباً ذهب بصحته وأفسد آدابه وجرّه الى بلايا الموت أخف منها وطأة وأسهل مراساً

اذا شب الفتى على كره الرذيلة كان في مأمن من غوائلها لبعده عن أسباب العدوى وقد يغريه عشراؤه على المنكر فيمسك نفسه ويعصاهم ولا ينفع عصيانه الا اذا كان شديداً فاذا سايرهم مرة ولو على سبيل التجربة واقترب من تلك الفخاخ اصبح الخطر أقرب اليه من حبل الوريد . لان الانسان مهما بلغ من تعقله مفطور على الضعف وخصوصاً بين يدي المرأة ولا سيما اذا كان شاباً. فكيف اذا كان الخطر يعترضه في الساحات العمومية وعلى قارعة الطريق ويظهر له باحب الاشكال الى قلبه. يظهر في ثوب المرأة التي جعل الله بينها وبين الرجل تجاذباً هو أساس العمران فاتخذته بعضهن ذريعة الى الدمار . نعني بنات الهوى اللواتي بلغ من تساهل حكومتنا واغضائها ان تترك لهن الحبل على الغارب . فلا تتوارى الشمس حتى ترى العشرات منهنّ يخطرن في اكبر شوارع القاهرة والاسكندرية وسائر المدن الكبرى يتحرشن بالمارة من أبناء السبيل يلتمسن صيداً ينلن به رزقاً. وقد لبسن وجوهاً نضب حياؤها فاعتضن عنه بالمساحيق والادهان وتدرعن بالخلاعة وقلة الادب حتى يعاف الابيُّ النظر اليهن من بعيد . لكنه اذا تكرر ذلك عليه ثانية وثالثة ورابعة أشرف على الخطر – الا الذين تعصمهم نفوسهم من قويي الارادة وأصحاب المبدأ القويم وهم قليلون. ناهيك بفتاة ربيت في الشوارع وتمرست باساليب الخداع أن تغوي فتى غض الشباب سريع التصديق على عينيه غشاوة وفي قلبه ميلٌ وضعته العناية لغرض مقدس ولكن أكثر الشبان لا يفهمون معناه

ولا تحسبن الخطر من ذلك السقوط يقتصر على خرق حرمة الآداب وتشويه وجه الفضيلة ولكنه يتناول الوقوع في داء هو أعضل الادواء وأشدها وطأة وافظعها مغبة يتوارثه الابناء عن الآباء . واخفّ عواقبه تشويه الخلقة وفساد الدم وتعريض الاعضاء الرئيسية للمرض . وقد يؤول الى قطع النسل – على أن قطعه اخف وقعاً على الانسانية من تسلسل الداءِ الوخيم في الابناء والاحفاد وبئس المصير

فلا يعجبك من بنات الشوارع بياض الوجوه وبريق العيون ونظافة اللباس واعتدال القوام فان وراء ذلك البياض جيفة قذرة وفي خلال ذلك الدسم سمٌّ قاتل .

وأكثرهن لم يصلن الى هذا القطر الا بعد ان نبذتهن بلادهن نبذ النواة ولو وجدن فيها مرتزقاً لم يتجشمن مشاق الغربة الى حيث يقضين الليالي غاديات رائحات يرمين الشباك ويتحملن أسباب الاهانة والصغار . فويل لمن تزل قدمه ويقع في تلك الهاوية

واذا كان هذا مبلغ الخطر على الشبان الذين تربوا على العفة والبعد عن الرذيلة فما قولك بالذين أخذوا بنقائص هذا التمدن وقلبوا فضائله الى رذائل فلم يتعلموا من الحرية الشخصية غير اطلاق العنان لشهواتهم ومجالسة بنات الهوى على قوارع الطرق او في المركبات والمتنزهات . فهؤلاء لا نرجو لهم صلاحاً من عند انفسهم ولا يجع فيهم نصح . وانما ينفع في تخفيف ذلك الويل استئصال السبب من جذره بابعاد تلك الاشراك عن الناس — وهل يستطيع ذلك غير الحكومة ؟ وهي ملح الارض على ما يقولون

واجبات الحكومة

ان حكومتنا تبذل الاموال الطائلة في وقاية رعاياها من أسباب الامراض فتجبر الاباء على تلقيح ابنائهم بلقاح الجدري وتشدد في اتخاذ الوسائل اللازمة لدفع الاوبئة الوافدة تحت طائلة القصاص . فاذا علمت بحادثة كوليرا أو طاعون في منزل أحاطت به الجند ومنعت الناس من دخوله وأحرقت كل متاعه ولا يدخله أهله الا بعد تطهيره على الطرق القانونية . واذا خالفها بعضهم عن جهل أو بخل شددت عليه النكير وانفذت ما تريده قهراً ولو احوجها ذلك الى شد الوثاق أو اطلاق الرصاص أو غير ذلك من وسائل العنف . ولا تثريب عليها لانها تفعل ذلك في سبيل المصلحة العامة . وقس عليه ما تتوخاه من العناية في تطهير أمتعة المسافرين وتضييق الحجر الصحي على الوافدين ولو كانوا اطفالاً أو شيوخاً ولو بعثها ذلك على تعذيبهم أو احراق ثيابهم وغايتها من ذلك حميدة أيضاً ناهيك بما تنفقه من الاموال في اصلاح الشوارع وحفر الترع واضاءة المدن وكنس الطرق ورشها — أرأيت اذا هي فعلت ذلك كله وكلفت الناس في سبيله ما يحتملون وما لا يحتملون رغبة في المصلحة العامة فانها اذا لم تتدارك الخطر الذي نحن في صدده كان عملها ناقصاً . لان تنظيف المجتمع المصري من تلك الادران السامة أولى من تنظيف الشوارع من الغبار . ووقاية الشبيبة المصرية من مهاوي الفساد وحماية أبدانهم من تلك الامراض القذرة أولى في اعتبارنا من تطهير منزل حدثت فيه اصابة بالتيفويد أو الدفتيريا لان عدوى هذه

الامراض وامثالها تنحصر في بعض الاقربين ولا تتعدى الجيل الواحد من الناس . وأما تلك فانها تنتقل في الاعقاب حتى تأول الى فناء الذرية

وقد يعترض على ذلك بان الحكومة تتلافى هذه الاخطار بمن اقامتهم لفحص المومسات . نعم . ولكنها لا تتمكن من ذلك لتساهل المنوط بهم تبليغ خبر أولئك العواهر فلا يفحص الاطباء منهن الا جزءا صغيراً . واللوم يرجع اكثره على البوليس لان رجاله المكلفين بذلك لا يفهمون معنى الفضيلة ولا يدركون التبعة التي تلحقهم بالاغضاء الذي قد يكسبهم درهماً أو يساعدهم على نظرة ولكنه يقتل المئات والالوف. فلو كان البوليس متعلماً مثقفاً لكانت المصيبة أخف من ذلك كثيراً – اقتبسنا هذه العادة الجهنمية من الافرنج واتقنا اقتباسها بحذافيرها ولكننا لم نحسن تدارك اضرارها كما يتداركها هم . فالبوليس مكلف بمنع بنات الهوى من الطواف على الشكل الذي نشكو منه ولكنه لا يفعل لاعذار لا طائل تحتها

هذه شكوانا على الخصوص من بنات الهوى اللواتي يتجولن في الشوارع الكبرى حول الازبكية بالقاهرة والمنشية بالاسكندرية . ولكننا نشكو شكوى عامة من اباحة الفحشاء والعبث باسباب العفاف – والعفاف سياج العمران

لا تفلح أمة انغمس ابناؤها في حمأة الفحشاء ولا سيما اذا تنبهت ونهضت تطلب استقلالا أو نيابة أو رقياً سياسياً أو ادارياً والانغماس في الفحشاء انما يقع في اواخر الدولة ويكون دليلاً على سقوطها . أما في اوائلها أو في اثناء نهوضها فلا بد من تنزهها عن تلك الدنايا لما يترتب على ذلك الانغماس من ضياع القوى العقلية والبدنية فيتولى صاحبه ضعف العزيمة والخمول فيذهب نشاطه وتسقط همته وتصغر نفسه – ومن كان عبداً لشهواته لا غرو اذا استعبده الآخرون . ولا يعترض بشيوع ذلك في اوربا فلنا عاداتنا وطبائعنا ولهم عاداتهم وطبائعهم وما يوافق قوماً قد لا يوافق آخرين

شهادة التاريخ

على اننا لا نعرف أحداً ينكر مضار الفحشاء وما تأول اليه من أحوال الضعف عقلا وبدناً . يدلك على ذلك اجماع الامم على تجنبها ولا سيما في أثناء تيقظها ونهوضها لاصلاح شؤونها . ولا خلاف في ان الامة الناهضة لا فائدة من مساعيها ان لم يكن العفاف نبراسها. اعتبر ذلك بما مر على الامم من أدوار التاريخ قديماً وحديثاً . فلا ترى دولة قامت وتأيدت الا كان العفاف سياجها مع اعتبار طبائعها وسائر أحوالها . وما

من دولة ذهبت الا كان الانغماس في المنكرات من أكبر أسباب ذهابها . انظر الى دولة الرومان التي امتد رواق سلطانها على الخافقين وحملت اليها الجزية من أربعة أقطار المسكونة فانها حالما فسدت آداب أهلها فسد نظامها ووهنت قواها وما لبثت ان سقطت وكان سقوطها عظيما . ولو تتبعت تواريخ الامم على اختلاف الزمان والمكان لرأيتها تتشابه من هذه الحيثية وكلها قد ذهبت فريسة التهتك والابتذال

ولكن ما لنا وللامم البعيدة . اليك دولة العرب التي قلَّ أن بلغت دولة مبلغها من العظمة والسطوة وهي انما بلغت ما بلغته من ذلك في صدر الاسلام على عهد الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين الذين اتخذوا العفاف نبراساً وعملوا بمقتضى الكتاب والسنة فاتسع ملكهم ودانت لهم الرقاب حتى اذا كانت أيام دولة بني العباس وقد بلغت شمسها الهاجرة في عهد الرشيد والمأمون مالوا الى البذخ وانقطعوا الى الشهوات . فاذا كانت ايام المعتصم ومن بعده تعاظم اقتناؤهم للجواري والمماليك واطلقوا لشهواتهم العنان فانغمسوا في الفساد واكثروا من التهتك والفحشاء فذلت نفوسهم وخارت قواهم وتغلب عليهم الاتراك والتتر والاكراد وغيرهم فدالت دولتهم واندك طود ملكهم واندثرت اعلام مجدهم ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين

على اننا لا نحتاج الى النظر بعيداً وشاهدنا قريب في دارنا هذه مصر السعيدة فقد جاءها المغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة المحمدية العلوية والمنكر ضارب اطنابه فيها بما احله الامراء المماليك من المحرمات وقد ضربت الذلة والمسكنة على المصريين حتى لم يكن يرجى لهم بعث من ذلك الموات وخصوصاً بعد الحملة الفرنساوية التي زادت الاباحة واطلقت سراح المومسات فعلم محمد علي باشا الداء وبادر الى الدواء فشدد النكير على كل منكر وعمل على قطع دابر المتهتكات نفياً وقتلا ويحكى انه علم بارتكاب بعض رجاله منكراً من هذا القبيل فامر به وبالمرأة فاغرقا في النيل معاً ولا ازيدك علما بعاقبة ذلك ولسان الحال شاهد عدل

وبالغ المغفور له سعيد باشا في اتباع العفاف حتى في الحلال لاعتقاده بما ينجم عن اطلاق هوى النفس من ضعف العزائم فقد ذكروا أنه لما سافر في أوائل سنة ١٢٧٩ هـ الى اوربا لمعالجة نفسه من داء السرطان كتب الى قائمقامه في مصر بطلب جميع الضباط المصريين من بلادهم واقامتهم في قصر النيل ومداومتهم على التدريس في القوانين العسكرية وهذا قوله « ان الضباط الوطنيين المترقين من تحت السلاح قد

اشتغلوا بملازمة نسائهم وتركوا دروسهم ولو تركناهم على هذا الحال الذي لا يعود عليهم الا بالوبال لفقدوا العافية والنظر وصاروا عبرة لمن يعتبر . وبما اننا نحن الذين ربيناهم ورقيناهم وأظهرناهم فلا يصح لنا تركهم في هذا الحال الذي ذكرناه فقد اقتضت ارادتنا جمعهم من بلادهم وعدم تمكينهم من نسائهم حتى ولا بالنظر اليهن بالعين والتشديد عليهم بمداومة التدريس ليلاً ونهاراً في قصر النيل »

وزد على ذلك ان الفحشاء منكر من المنكرات التي ينهى عنها الدين والشرع على اختلاف الاعصر فما من دين الا وهو ينهي عنها ويشدد العقاب على مرتكبها . والشرائع لم توضع عبثاً سواء كانت دينية او مدنية وهي مجمعة على اضرار هذا المنكر

على اننا اذا سلمنا مع القائلين باطلاق الحرية اقتداء بالدول المتمدنة وأن ذلك الشر ضروري لا مندوحة عنه بشرط أن تتولى الحكومة مراقبته وتعهد الموسات بالكشف الطبي منعاً لانتشار الامراض ايثاراً لاختيار اهون الشرين لانها في حال تخالف ما كان على عهد محمد علي وانها تعجز عن منع الفحشاء ـ اذا سلمنا معها بذلك فانها لا تنجو من غائلة اللوم على أمر هو عندنا من الاهمية بمكان عظيم وذلك أن اماكن الفحشاء هذه معظمها في اواسط المدينة وعلى الشوارع العمومية بحيث تكون اشراكها اكثر اصابة فضلاً عن الاضرار التي تلحق بالعائلات الساكنة في ذلك الجوار فالحكومة مطالبة شرعاً وعرفاً بدفع هذه المحظورات بتنقية المدينة من هذه الاوساخ وتطهيرها من هذه الارجاس واذا كانت لا تستطيع استئصال شأفة أولئك الابالسة فلا أقل من اخراجهن من قلب المدينة الى مكان بعيد في ضواحيها فلا يذهب اليهن الا المستهلك في سبيل شهواته وهذا حياته كماته وينجو كثير من الشبان الذين انما ينقادون الى تلك الاماكن انقياد الشاة الى الذبح اما بلفظة أو باشارة او على اثر كاس من الخمر او قدح من (البيرا) وهم ليسوا مفطورين على الرذائل ولكن وجود تلك الفخاخ في وسط المدينة وعلى قارعة الطريق هو الذي جرهم الى هذا المنكر لان اولئك الموسات يحرشن بهم بأساليب الخلاعة مما تشمئز منه النفوس ولا ينجو منهن الا الذي رسخت قدمه في المبادىء الصحيحة ولكن الضعفاء في الناس أكثر كثيراً من الاقوياء فلو كانت هذه الاماكن خارج المدينة لما وصل اليها الا المنغمس في شهواته ولا سبيل الى اصلاحه ولا فائدة من وعظه

من اللوم

فاللوم واقع معظمه على الحكومة وهي الوصية على الناس تراقب أعمالهم وتتولى هدايتهم ووقاية أبدانهم فعليها التبعة الاولى يشاركها فيها الآباء . ولا يخلو الشبان أنفسهم من هذه التبعة ولا سيما في هذا العصر عصر النور والعرفان وهم لا يجهلون عواقب هذه المنكرات

والانكى من كل ذلك ان مرتكبي هذه الدنايا أكثرهم من أهل اليسار وهم الذين يرجو الوطن منهم رفع مناره وتعزيز شأنه ـ نعم ان ذلك لما يزيد المصيبة كبراً. ومن البلية أن يكون المال وسيلة للخراب والناس انما يسعون فيه طلباً للعمار وهو بالحقيقة قوام العمران افيتخذه اولئك الاغرار وسيلة لهدم أركان الهيئة الاجتماعية وتدنيس الآداب العمومية . أليس من موجبات الاسف أن يكون بيننا شبان وهبهم الله جسماً صحيحاً وعقلاً صحيحاً وقد تعلموا وتهذبوا وتثقفوا فضلاً عن استعدادهم الطبيعي للعمل وقد وقف خلو جيوبهم عثرة في سبيل أعمالهم وربما قضوا السنين الطوال يحترقون ويتمرمرون لقصر ايديهم عن أعمال قد حال فقرهم دون مباشرتها ولو باشروها لجاءت بالنتائج العظيمة لوطنهم او لبني الانسان كافة . وأن يكون في الجانب الاخر شبان ولدوا في نعيم وعز وتربوا في بحبوحة السعادة والرفاه لا يعرفون للدينار قيمة الا بما يسهل لهم من طرق الفحشاء والعياذ بالله فينفقون الاموال الطائلة في سبيل امر ينكره الشرع والعرف وتنفر منه الآداب وتخافه الفضيلة ويرتجف لهوله العمران لانه هادم لأركانه مقوض لدعائمه كان الغنى وسيلة لارتكاب الدنايا فبئس الغنى ويا حبذا الفقر

آفات التمدن الحديث

في الهيأة الاجتماعية الشرقية[1]

مرَّ على الانسان من اول عهد التاريخ الى الآن ادوار كثيرة تمدن في كل دور منها تمدناً يختلف نوعاً ومقداراً باختلاف الاحوال والاماكن . وتقلب التمدن في

(١) عن الهلال سنة ١٠ صحيفة ١٠٩

عهد التاريخ بتقلب الدول والاجيال فنشأ التمدن المصري القديم والتمدن الاشوري فالفينيقي فاليوناني فالروماني فالتمدن العربي الى التمدن الافرنجي الاخير وهو التمدن الحديث . على ان اكثر ضروب التمدن مأخوذ بعضها عن بعض او قائم بعضها على انقاض بعض . والتمدن على اطلاقه حسن لانه دليل الارتقاء أو هو الغاية التي تسعى الامم اليها فاذا بلغتها بلغت ذروة مجدها

على اننا لو نظرنا في انواع التمدن على اختلاف العصور لما رأينا تمدناً خلا من آفات ما زالت تنخر في بدنه نخر السوس حتى أماتته وذهبت باهله الى مهاوي الانحطاط . فقد كان من آفات التمدن المصري القديم مثلاً استبداد الفراعنة والكهنة في الشعب واستعباده وتسخيره واستبقاؤه في ظلمات الجهل . فاقاموا الجمعيات السرية حاجزاً بينه وبين العلم فانحصرت المعرفة في فئة الكهنة دون سائر الناس فآل الجهل بهؤلاء الى الانغماس في عبادة الاحجار والانصاب والتعويل على الخرافات والاوهام وما عاقبة الجهل الا السقوط

ومن آفات التمدن العربي المغالاة في الترف والقصف والاستكثار من الجواري والمماليك . والعرب انما اقتنوا المماليك في بادىء الامر من الاسرى للتفاخر بابهة الملك والتمتع بلذة النصر . ولكنهم ما لبثوا ان عمدوا على اقتنائهم بالمال أو بالمهاداة . وما زالوا يبالغون في ذلك حتى كثر هؤلاء وتعلموا وتدربوا فمدوا أيديهم الى الحكومة وجعلوا يرتقون فيها رويداً رويداً حتى قبضوا على أزمة الاحكام فاندرست دولة العرب ونشأت دول الاكراد والشراكس والاتراك وغيرهم مما يطول شرحه ولا محل له هنا

ويقال مثل ذلك في سائر أصناف التمدن القديم فقد كان لكل منها آفة أو آفات ما زالت تنخر فيه حتى أماتته . ويزعم أصحاب التمدن الحديث انه افضل ضروب التمدن وأقربها الى البقاء لانه مؤسس على العلم والعدل والحرية . وهو قول معقول نرجو أن يكون صحيحاً ولكن لهذا التمدن اضراراً كثيرة لا يصح التجاوز عنها وقد انتبهت بعض الامم اليها فتلافت شرورها وتغافلت أمم اخرى عنها وما عاقبة تغافلها الا السقوط

وغرضنا في هذه المقالة البحث في ما جره هذا التمدن من الاضرار على الهيأة الاجتماعية الشرقية مما كانت غنية عنه في حالها الاولى . ولا نتعرض لما اكتسبه الشرق من فضل التمدن الحديث فانه مشهور لا يحتاج الى بيان . وذكر مساوىء

هذا التمدن لا يقلل قيمة ما اشتهر من محاسنه . ولكننا عمدنا الى ذكر المساوىء رغبة في تجنبها قبل استفحال أمرها وهي عديدة نذكرها بالتوالي — فمنها :

التهتك

طُبع الشرقي على الحياء والغيرة وجاءهُ الحجاب متماً لهما . فاصبح التحجب من الغرائز الشرقية الظاهرة ومهما قيل في الحجاب واضراره أو منافعه فانه بلا خلاف خير من التهتك الشائع في بعض المدن الكبرى

يبدأ تاريخ الشرق الحديث بظهور الاسلام والاسلام انما انتشر وتأيدت دولته في الصدر الاول بما اشتهر به الخلفاء الراشدون من العفاف والنزاهة عملاً بالكتاب والسنة فكان الناس في اثناء القرن الاول للهجرة لا شاغل لهم الا الجهاد والفتوح والتسابق الى الفضائل حتى رسخت قدم الاسلام وتوطدت دعائمه على عهد الدولة الاموية . ثم عمد الامويون في أواخر دولتهم الى البذخ والقصف وبالغ بعضهم بالتهتك فآل بهم ذلك الى السقوط . فانتقل الملك الى العباسيين فعملوا على نشر العلم والصناعة حتى بلغ التمدن في عهد الرشيد والمأمون أعلى ذرى المجد . فمالوا الى البذخ وعمدوا الى اقتناء المماليك والجواري — بدأ الخلفاء في ذلك واقتدى بهم الناس على اختلاف طبقاتهم عملاً بالقول المأثور « والناس على دين ملوكهم » — وتصدق هذه القاعدة على أهل كل تمدن غير التمدن الحديث في بلاد الشرق لاختلاف العناصر فيه واختلاط الاذواق والاخلاق مع تمتع الناس بالحرية الشخصية فلا يعمل العامل الا ما يتراءى له . وأما من قبل فقد كان الناس كما يكون خلفاؤهم او سلاطينهم ليس من حيث الاداب العمومية فقط بل في كل شيء حتى اللباس والطعام والصلاة وغير ذلك. فقد كان سليمان بن عبد الملك الخليفة الاموي (سنة ٩٦ — ٩٩ هـ) يحب الطعام اذا أتاه الطباخ بشواء فلا يصبر حتى يبرد فيأخذه بكمه وكان نهماً يأكل أكلاً كثيراً فكان الناس في زمن خلافته اذا تلاقوا سأل بعضهم بعضاً عما أكلوا البارحة وعما يأكلون اليوم. وكان عمر بن عبد العزيز الاموي (سنة ٩٩ — ١٠١ هـ) زاهداً صاحب عبادة وتلاوة قرآن فكان الناس اذا تلاقوا في ايامه سأل بعضهم بعضاً ما وردك الليلة وكم تحفظ من القرآن وكم تقوم من الشهر . وأدلة ذلك كثيرة في الاعصر الاولى للاسلام الى اوائل هذا القرن لما دخل التمدن بلادنا ونودي بالحرية الشخصية وأصبح الناس

أخلاطاً من امم شتى وألسنة تترى لا قاعدة لآدابهم ولا رادع لهم

واتفق ان التمدن جاء هذه البلاد وهي في مهاوي الانحطاط على اثر استبداد المماليك ومن جرى مجراهم . ولكنه لم يتناول في أول عهده الا التعليم والتربية مع المحافظة على الحشمة الشرقية . وأما التهتك وخرق الحجب فلم يظهر الا في اواخر القرن الماضي لما كثر تقليدنا للافرنج حتى في ما ينافي فطرتنا . وربما لا ينافي فطرتهم اذ ما يوافق طبع الغربي قد لايوافق طبع الشرقي . بدأنا بهذا التقليد في أول القرن الماضي على اثر دخول الفرنساويين مصر فكان في جملة ماخلفوه من عادات الافرنج اطلاق سراح المومسات مثل ما كان شأنهم في بلادهم . وخرج الفرنساويون وبقي ذلك الاثر حتى تولى المغفور له محمد علي باشا فشدد النكير على أماكن الفحشاء وعمل على قطع دابر المتهتكات نفياً وقتلاً . ويحكى انه علم مرة بارتكاب بعض رجاله منكراً من هذا القبيل فامر به وبالمرأة فأغرقا في النيل معاً

وكان المغفور له سعيد باشا من أكثر الولاة سعياً في صيانة الآداب العمومية . ولم يطلق سراح أهل الخلاعة الا على عهد الخديوي اسماعيل لكثرة من قدم مصر من جالية الافرنج على اختلاف مقاصدهم وأغراضهم . وظهرت على أثر ذلك بيوت الخلاعة وانتشرت وسائل التهتك . وما زالت على ذلك الى الان والحكومة ساكتة عنها كأنها ترى الاصلاح والمدنية يفتقران الى مثل تلك البيوت — بل هي تمهد السبيل لها بما أوقفته من الاطباء لفحص المومسات فحصاً طبياً في أوقات معينة وأماكن معلومة — وهي انما فعلت ذلك اقتداء بدول الافرنج . ولعل عذرها أنها اختارت أهون الشرين فلما لم تر سبيلاً الى منع الفجور خافت تفشي الامراض الخبيثة فعينت الاطباء دفعاً لتلك الغائلة

فالحكومة لا تلام في عجزها عن قطع دابر المومسات اليوم وهي اذا أرادت ذلك فالامتيازات الاجنبية تقف في سبيلها في جملة العثرات . ولكنها تستطيع أمراً لا عذر لها في التغاضي عنه وهو اخراج تلك الاماكن النجسة من اواسط المدينة وابعادها عن الشوارع العمومية فيقل خطرها ولا يصل اليها الا المستهلك في سبيل شهواته وينجو جماعة كبيرة من الشبان الذين انما ينقادون الى تلك الاماكن بضعف ارادتهم فيساقون كما تساق الشاة الى الذبح بلفظة أو اشارة على اثر كأس من الخمر أو قدح من البيرا مع سهولة الوصول الى « نوافذ جهنم » لقربها من الحانات والقهوات

ولو اقتصرت تلك الالات الجهنمية على التربص في منازلهن ونصب الشباك على النوافذ والابواب لهان البلاء . ولكنهن يخرجن للصيد في الطرق وحول الحدائق يشرن بالحواجب والعيون والانامل . وقد يفعلن ذلك على مشهد من رجال الشرطة لا يبالين ولا يبالون كأنهن يدعين الناس الى فضيلة او يساومنهم على تجارة

نعم اننا في عصر الحرية وكل مسؤول عن نفسه ولكن المحافظة على الآداب العمومية من قبيل المحافظة على الامن العام اذ لا تنقضي ليلة لا نسمع في غدها خبر خصام أو نزاع ووقوع قتيل أو جريح في أماكن الفحشاء أو ما يجاورها . وقلما تتبعنا السبب الا رأيناه يتصل بما قدمناه من اطلاق السبيل الى هذا الحد

وليس من الانصاف أن نلوم الحكومة ولا نلوم الشبان واكثرهم من أهل البيوت المعروفة وفيهم جماعة من تلامذة المدارس . ومن العار على من تعلم الفضائل واستنار بنور العلم أن يطرح آدابه وصحته في تلك المصارف النجسة

الانتحار

الحاد والمزمن [1]

الانتحار او قتل النفس قديم بقدم الانسان لانه من نتائج الضعف البشري والانسان ضعيف من فطرته . وأقدم ما ذكروه من حوادث الانتحار مقتل شمشون في اوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد ومقتل شاول في أواسط القرن الحادي عشر على ما جاء في التوراة

وأما حوادث الانتحار في التاريخ القديم فعديدة من أفظعها ان فرقة من الجند الروماني على عهد تركوين الاول انتحرت كلها سنة ٦٠٦ ق م تخلصاً من عار توهموا انه لحقهم باوامر صدرت لهم ان يحتفروا أسراباً للاقذار العامة . وهناك حوادث اخرى انتحر فيها الملوك والقواد والفلاسفة وغيرهم

ومع ذلك فالشرائع اليونانية والرومانية كانت تعدُّ الانتحار من افظع الجرائم

(١) عن الهلال سنة ١١ صحفة ٣٣٦

وكانت تحرق اليد التي تعمد ذلك دون سائر البدن ـ فضلا عن غضب الكنيسة على المنتحر لاي سبب كان . وكانت تحلل الاستيلاء على ماله وعقاره . ثم تعدلت تلك القوانين وتخففت فاكتفوا بصلبه على متصلب الطرق عبرة للناس . ثم تعدلت مرة أخرى سنة ١٨٨٢ ولكن المنتحر لا يزال الى الآن يدفن ولا يصلون على جثته

وللعلماء بحث طويل في الانتحار وأسبابه وعلاقته بالفصول والاعمار والمهن والبقاع والاجناس وغير ذلك . وقد وضعوا الاحصاآت المختلفة عن حوادث الانتحار في ممالك أوربا باعتبار الازمان

ويظهر من مقابلة هذه الاحصاءات ان الانتحار في ارلندا أقل مما في سائر ممالك اوربا . وفي سكسونيا اكثر مما فيها كلها . ويظهر بالاجمال أن سكان جزائر بريطانيا العظمى وايطاليا أقل تعرضاً للانتحار من سواهم

وقد بذل العلماء قصارى جهدهم في ارجاع هذه الفروق الى أسباب متصلة بالشعوب أو بالاقاليم أو بالازدحام أو بأحوال أخرى ولكنهم لم ينتهوا الى نتيجة قطعية . وبحث آخرون في علاقة ذلك بالجنس بين الذكور والاناث وبالسن بين الشباب والكهولة وبالمهن ودرجة التهذيب . فاتضح من هذه الجهة أن الانتحار اكثر في المتعلمين مما في سواهم ولذلك رأيناه يتزايد بتوالي الاعوام

أما بالنظر الى الجنس فقد اتضح أن الانتحار في الاناث لا يقل عن ١٥ ولا يزيد على ٣٠ في المئة من معدل وفيات الانتحار في أي بلد كان وما بقي فهو من الذكور . ومع ذلك فانه يختلف باختلاف الامم فهو على معظمه تقريباً عند الانكليز فقد كان معدل وفيات الانتحار في نسائهم الى سنة ١٨٧٦ نحو ٢٦ في المئة من مجموع المنتحرين ثم أخذ في التناقص . وكذلك الحال في فرنسا . وأما في روسيا وسائر المقاطعات الجرمانية فمعدل الانتحار في النساء عشرون في المئة من مجمل الحوادث

أما السن فتأثيرها في الانتحار اقرب الى القياس والضبط ويؤخذ من الاحصاآت التي وضعوها في هذا الموضوع أن للسن تأثيراً في حوادث الانتحار يكاد يكون واحداً في كل الممالك مع اعتبار ما يشاركه من العوامل الاخرى التي تختلف باختلاف الاقاليم والامزجة ويظهر من هذه الاحصاءات أيضاً ان حوادث الانتحار آخذة في الازدياد كل سنة عما قبلها

وقد ثبت أن وطأة الانتحار تتزايد بسرعة من سن العاشرة الى الخامسة والخمسين وتبقى على وتيرة واحدة تقريباً عشر سنين ثم تتناقص بغتة . ومما يستحق الذكر ان نسبة الانتحار في الاناث الى الاعمار تختلف عما في الذكور

وللمهن تأثير على حوادث الانتحار ولكن تحقيق تلك النسبة صعب . على ان الدكتور اوكل قد بذل العناية في استخراج ذلك في المدة من سنة ١٨٧٣ – ١٨٨٣ في انكلترا وويلس فجمع تسعة آلاف حادثة انتحار لاناس اصحاب مهن معروفة فوجد اكثر المهن تعرضاً للانتحار الجندية وحوادث الانتحار فيها تزيد على سائر الحوادث زيادة فاحشة – ولعل السبب في ذلك اقتدار اصحابها على الانتحار في أي وقت كان لوجود الاسلحة معهم دائماً . ثم يأتي بعد الجند أصحاب النزل والحانات ممن يدمنون المسكرات . ثم رجال الطب والصيدلة والعطارة لسهولة توصلهم الى العقاقير السامة ومعرفتهم أنسبها للقتل بلا ألم ولاحظ الدكتور أوكل أيضاً ان أصحاب المهن البدنية على الاجمال أقل تعرضاً للانتحار من أصحاب المهن العقلية . وبالجملة ان الانتحار في المتعلمين اكثر مما في أهل الجهالة – نقول ذلك مع الاسف الشديد

وللفصول تأثير شديد في الانتحار فقد تحققوا بالاحصاء والمراقبة انه اكثر حدوثاً في مايو ويونيو مما في سائر الاشهر . ويكاد ذلك يكون عاماً في كل الممالك الا في بافاريا وسكسونيا فان معظمه يقع في يوليو . ويظهر تأثير الفصول في الانتحار في الاناث اكثر مما في الذكور وخصوصاً في ايطاليا ويعلل ذلك بعضهم بان الاناث يفضلن الانتحار غرقاً وهذا ميسور لهن في الصيف اكثر مما في الشتاء

وطرق الانتحار تختلف أيضاً باختلاف البلاد فالانكليز يفضل رجالهم الانتحار شنقاً ونساؤهم غرقاً . والايطاليان اكثر ما يكون انتحارهم باطلاق الرصاص والنساء بالغرق والبروسيان اكثر من نصف حوادث الانتحار عندهم بالشنق رجالا ونساء. وهناك طرق اخرى لا نخوض فيها لضيق المقام

قلنا – ولم يتأت لاحد ان يضع احصاء لحوادث الانتحار في بلادنا ولكن بالقياس على البلاد الاخرى يجب أن يكون ذلك المنكر قد تكاثر فيها من اواسط القرن الماضي ثم تزايد زيادة فاحشة في أواخر ذلك القرن . وسيتزايد في اوائل هذا القرن بناء على ما تقدم من علاقة تلك الجريمة بانتشار العلم وتزايدها بتزايد انتشاره للاسباب

التي قدمناها . ولان التعليم وسائر وسائل الحضارة تضعف القوى البدنية وتزيد حساسة القوى العصبية فتتعاظم الانفعالات النفسية حتى تسدل على العقل حجاباً كثيفاً فيعمل صاحبه ما لا يعمل الا المجانين ـ والانتحار ضرب من ضروب الجنون وخصوصاً ارتكابه للاسباب التافهة التي قد لا تخرج عن اعتبارات وهمية لا حقيقة لها في الواقع . فالمنتحر اذا كان مصاباً بداء عضال لا يرجو منه شفاء مطلقاً وهو يقاسي منه آلاماً مبرحة قد لا يلام اذا احب التخلص من هذه الحياة وعجل اجله اياماً او اشهراً وان كان ذلك مما لا يجيزه الشرع ولا الدين

ولكن أكثر الذين عرفناهم من المنتحرين شبان في مقتبل العمر صحاح الابدان والعقول يرجون مستقبلا مجيداً وقد حامت الآمال حولهم . فلا نعلل انتحارهم بغير الجنون الموقت ـ والا فيستحيل على عاقلٍ أن يقدم على ارتكاب جريمة القتل من نفسه وهو اذا أراد احدٌ مسه بجارحة أعظم أمره وطالبه بعمله اما انتقاماً واما تقاضياً فكيف يقدم هو على قتل نفسه وفيه عقلٌ ؟

على ان المنتحر لا يمد تلك اليد الاثيمة لهدم ذلك البناء المقدس الا وهو مقتنع بما يسوغ له ذلك وربما عدَّ عمله هذا فضيلة . على انه لو ابقى على نفسه وكاشف احداً بعزمه او تربص ربما يعود الى رشده لرجع عن جنونه

واكثر ما نسمع به من حوادث الانتحار سببه الفقر او اليأس من النجاح او الفشل في بعض الاعمال او الخيبة في بعض الامال . فالذي ينتحر فراراً من الفقر انما هو جبان أدى به اعتقاده العجز عن الارتزاق الى التخلص من الحياة بفعل منكر يفتقر الى اقدام أعظم كثيراً مما قد يحتاج اليه الارتزاق . فلو ان بدلاً من اقدامه على قتل نفسه نشط للسعي في أسباب الرزق بالاسفار أو الاخطار لكفى نفسه مؤونة هذا الذنب واختبر الحياة من وجه آخر ـ ولكننا لا نعد الانتحار اقداماً وانما هو جنون ناتج عن ضعف الارادة وانحطاط القوى الادبية

أما الذي ينتحر لفشل في أمل فما أضيق مطامعه وما أقصر آماله ـ وما عليه اذا خابت آماله في جهة الا أن يحولها الى جهة أخرى ويعد خيبته درساً استفاده في حياته الدنيا فلا يعود الى تعليق الآمال وحصرها في جهة واحدة او في شخص واحد اعتباراً بقول الشاعر :

لستَ الملوم أنا الملوم لانني ... أنزلت آمالي بغير الخالق

لا نستثني من ذلك ما يحدث من هذا القبيل في حوادث العشق ونحوه لان الحب مهما يكن من سلطانه على القلوب فالعقل لا يزال يرقب سيله من قمة البدن فيستشرف حركات القلب ويهزأ بها ويعد اكثرها جنوناً - فلا يعدم الانسان بالعقل نذيراً في ساعة اليأس وما عليه الا ان يجيب انذاره بالتربص برهة وربما يثوب الى رشده . والغالب في المتربص أن ينجو من الموت ويضحك مما مرَّ في ذهنه من هذا الشأن

ومن الاسباب المهيئة للانتحار بين شباننا مطالعة أقاصيص الانتحار في الروايات الغرامية المنقولة الى لساننا وفيها من ينتحر او يتسرع في الانتحار لاسباب طفيفة وهمية ومؤلف الرواية يحسن ذلك العمل ويعدُّهُ من الفضائل . فاذا كان القارىء ضعيف الحكم انقاد بما تؤثرهُ عليه تلك الكتابة الى استحسان الانتحار والتشبه به عند الحاجة - فالانتحار فظيعة من الفظائع البشرية المحرمة شرعاً وادباً ولا يقدم عليها الا من مسهُ الخبل او غلب عليه الجبن والضعف

(الانتحار المزمن) على اننا نرانا بالغنا في اعظام عمل المنتحرين « الانتحار الحاد » - ونريد به قتل النفس الذي يرتكبه المرء عن حدة او غضب او يأس فيلتمس الموت العاجل - وفاتنا النظر في « الانتحار المزمن » وهو قتل النفس على مهل ومرتكبوه يزيدون على اضعاف اولئك - ان بين ظهرانينا مئات والوفاً يقتلون انفسهم بعادات تمتلك فيهم فتنخر عظامهم وتذيب اكبادهم وتقرح امعاءهم وتشوش أعمال ادمغتهم فتفسد آدابهم وتهدم منازلهم وتسقط بهم الى حضيض الذل والضعف - ولو أردنا تعداد الرذائل التي يعد مرتكبها منتحراً اضاق بنا المقام فنشير الى بعضها ونبدأ برأسها وهو المسكر « رأس المعاصي » - ألا تعدون السكير منتحراً وهو انما يستدني أجله بما يتعاطاه من تلك « الارواح الشريرة » فضلاً عما يأتيه من الاضرار في اثناء ذلك الانتحار « المستطيل » من القدوة السيئة وما قد يورث اولاده من العلل البدنية والعقلية كما فصلنا ذلك غير مرة

ومن ضروب الانتحار المزمن « الفحشاء » وفي الاشارة اليها ما يغنينا عن تدنيس القلم في تفصيل اضرارها

ومن قبيل الانتحار المزمن أيضاً « المقامرة » فان الاسترسال فيها يضعف البدن ويورث العلل ويفسد الاخلاق وكثيراً ما كانت المقامرة علة للانتحار

وقل نحو ذلك في سائر الرذائل على اختلاف ضروبها . فانها مجلبة للاسقام والعلل وتنتهي بالموت . ومن يعمل الفكرة في ماجريات الطبيعة يرى من النواميس الادبية الثابتة ان الذين يحيدون عن طريق الفضيلة يعرضون انفسهم للهلاك وينتحرون « انتحاراً مزمناً » وشواهد الحال اكبر دليل

المسكر والهيأة الاجتماعية (١)

لم تر المدنية سوساً انخر في جسمها من المسكر . وقد يعترض ان الفحشاء والمقامرة اكثر ضرراً واسوأ مصيراً . لكنك اذا نظرت الى العاقبة وفكرت في الاسباب والمسببات رأيت المسكر اكثرها ضرراً لانه كثيراً ما يكون الباعث على سائر المنكرات لان الانسان يعمل في سكره ما لا يجرأ عليه في صحوه ولذلك قالوا « السكر رأس المعاصي » وهي حكمة مبنية على الاختبار وقد يتبادر الى الاذهان اننا نريد بالسكيرين الذين يترنحون ويعربدون ويخلطون في اقوالهم أو يفقدون رشدهم أو يتقيأون ما في أحشائهم . نعم اننا نريد هؤلاء ولكننا نريد أيضاً طائفة من الادباء وأهل الوجاهة أدمنوا على المسكر بالاقتداء أو الاستطراق وهم لا يحسبون أنفسهم في عداد السكيرين لانهم لا يعربدون ولا يترنحون ولا يفقدون رشدهم بل قد يكونون في حال سكرهم أوعى منهم في حال الصحو . ولكنهم مع ذلك مولعون بالشرب مدمنون عليه فاذا مالت الشمس انقبضت نفوسهم واظلمت قلوبهم ولا يزالون في تلك الظلمة الى أن تشرق شمس الحميا في الكاس ثم تدب في عروقهم دبيب الافعى ولكنها تطربهم وتفرج همومهم فيعاقرونها ساعات متوالية وهي تزيد وجوههم اشراقاً وقلوبهم انبساطاً وربما دام سرورهم الى آخر الليل . وقد يثابرون على هذه الحال اياماً أو أشهراً أو اعواماً وهم لا يرون ما يكدرهم ولا ما يدعو الى العدول عن معاقرتها . وقد ترى جماعة منهم يزدادون سمناً وصحة (بحسب الظاهر) فلا غرو اذا أعدها بعضهم علاجاً شافياً لكل الامراض فاذا أصابته الحمى عمد الى البيرة واذا خاف الوباء الوافد تدرع بالكنياك أو الويسكي

(١) عن الهلال سنة ١٧ صحيفة ٢٣٦

وهناك فئة ثالثة من مدمني الخمر يشربونها لتنبيه شهوة الطعام أو للمساعدة على الهضم أو نحو ذلك من الفوائد الصحية (على زعمهم) . فهم لا يتناولونها الا قبل الاكل أو على المائدة ويفاخرون بتناولها ويصفونها لاصدقائهم واخصائهم دواء شافياً . ولكنهم مع ذلك قد أدمنوا عليها حتى أصبحوا لا يستطيعون طعاماً ولا يهنأ لهم زاد الا اذا حملوا فراشه كأساً أو كؤوساً من العرقي أو الكنياك أو البيرة

وهناك طائفة أخرى من مدمني المسكر يريدون به ازالة الهموم أو استجلاب المسرات وهم السواد الاعظم من المدمنين واكثرهم من اواسط الناس واكابرهم وفيهم جماعة كبيرة من أهل الوجاهة بيننا . منهم من يشرب في منزله ومنهم من يشرب في الحانات وأماكن اللهو وهم يفعلون ذلك ولا يعدون أنفسهم من المدمنين لانهم لا يسكرون ولا يعربدون . ولكن ضرر السكر لا يفوتهم واذا فاتهم ضرره الاجتماعي أو الادبي فلا يفوتهم ضرره الصحي . ان بضعة أقداح من الخمر متى صارت عادة تطلبها النفس ولا ترتاح الا بها يغلب أن تطلب الزيادة منها . نعرف غير واحد من خيرة الادباء ومتخرجي المدارس العالية سيقوا الى هوة السكر حتى أدمنوه وهم لا يشعرون وكانوا في بادىء أمرهم ينتقدون كل شارب ثم أجازوا لانفسهم قدحاً قبل الطعام على اعتقاد أنه لا يضر وهم في اثناء ذلك يهزأون بالمدمنين ويؤنبونهم ويستخفون احلامهم ويعجبون لتعلقهم بالشرب وكيف أنهم لا يستطيعون ابطاله ثم ما لبثوا أن تدرجوا هم حتى صاروا من المدمنين . وسواء زاد مقدار ما يشربونه أم ظل قليلا ان الضرر واقع على الصحة لا محالة لان كبد مدمني المسكرات تختلف عن كبد سواهم وشرايينهم تختلف عن شرايينهم ومعدهم تختلف عن معدهم كما فصلنا ذلك وصورناه في السنة الثامنة من الهلال

ويقال بالاجمال ان القوة الحيوية في مدمني الخمر أضعف منها في سواهم ولا يظهر ضعفهم من هذا القبيل الا اذا طرأ عليهم مرض يشفى منه غير المدمن باسبوع فلا يشفى منه المدمن باسابيع . واذا كانت العلة شديدة تقضي على حياة السكير فلو لم يكن سكيراً لشفي منها . وشواهد ذلك كثيرة يعرفها الاطباء . فقد رأيناهم مراراً بجانب فراش العليل اذا سئلوا عن حاله وهل على حياته خطر أجابوا « لو لم يكن مدمناً المسكر لكان الشفاء مرجحاً أما وهو من المدمنين فالامل في الحياة ضعيف » — ولا يتنبه مدمن الخمر الى هذا الضعف وهو في حال الصحة لانه يرى جسمه يزداد سمناً

ووجهه اشراقاً ولو تفحص أحشاءه لرأى كبده تضمر وشرايينه تتصلب وأمعاءه تضعف فتداهمه الشيخوخة قبل زمن الكهولة ناهيك بما يظهر من دلائل الضعف في عقله أو خلقه أو آدابه . لان المسكر لا يقتصر ضرره على الابدان فقط ولكنه يتطرق الى العقول والاخلاق والآداب ولا يثبت ذلك صريحاً الا الاحصاءات الطبية والاجتماعية وهي شهادة الارقام لا سبيل الى دفعها . فنقتصر على احصاء اضرارها في العقول والآداب وقد تقدمت الاشارة الى اضرارها البدنية

ويؤخذ من الاحصاءات الاخيرة عن حوادث الجنون في العالم المتمدن نقلاً عن كشوف المستشفيات المبينة فيها الاسباب ان الحوادث الناتجة عن ادمان المسكرات تتراوح بين ربع عدد المصابين ونصفهم باختلاف الممالك والاقاليم أقلها في ذلك انكلترا وويلس واكثرها باريس على هذه الصورة نقلاً عن تقارير المستشفيات في البلاد المذكورة

اسم الاقليم	حوادث الجنون الناتجة عن المسكر
الولايات المتحدة	من ٢٥ ـ ٣٠ في المئة
انكلترا وويلس	١٤،٦ « «
اسكوتلاندا	٦٢ « «
باريس	٥١ « «
فينا	٤٠ « «
روسيا	٤٥ « «

وأما تأثير المسكر على الاخلاق والاداب فيستدل عليه من احصاء الجرائم التي يسببها السكر وهذا جدول الجرائم الناتجة عن المسكر بالنظر الى مجموعها باختلاف البلاد الاتية

اسم البلد	الجرائم الناتجة عن المسكر
انكلترا وويلس	٩٠ في المئة
ماساشوستس باميركا	٥١ « «
اوبورن	٤٦ « «
اسكوتلاندا	٩٠ « «

اسم البلد	الجرائم الناتجة عن المسكر
ايرلندا	٨٠ في المئة
المانيا	٤٣ » »
فينا	٥٨ » »
باريس	٨٣ » »

وهناك ضرر عظيم الاهمية يرجع سببه الى المسكر ايضاً نعني الفقر . ويؤخذ من احصاء الفقراء في ماساشوستس ان ٣٩ في المئة من الفقراء سبب فقرهم المسكر وفي سائر الولايات المتحدة نسبتهم ٣٣ في المئة وفي انكلترا بين ٣٣ و ٥٠ وفي المانيا ٧٧ وفي جنيف ٩٠ في المئة

والخلاصة ان نحو ثلث الفقراء المنتشرين في انحاء العالم المتمدن سبب فقرهم ادمانهم على المسكر هم أو آباؤهم فولدوا ضعاف البنية لا يقوون على العمل . وأن نحو ربع المصابين بالخبل أو الجنون سبب جنونهم الادمان على المسكر وقل نحو ذلك في اصحاب الجرائم

ومما ينبغي الالتفات اليه من عواقب المسكر الضرر في النسل . ومن المقرر المشهور ان ابناء السكيرين أهل عاهات ويغلب فيهم البله والجنون والكساح والصرع ويكثر فيهم سوء الخلق والميل الى المنكرات كالسرقة والفسق ويتسلسل ذلك في أعقابهم حتى ينقرض نسلهم

الجامعة او العصبية [1]

والجامعة الاسلامية

تحدث الناس طويلاً وتناقلت الصحف فصولاً في معنى الجامعة الاسلامية او التعصب الاسلامي وتناقشوا في المراد من ذلك فرأينا ان نقول كلمة في هذا الباب من الوجهة التاريخية الاجتماعية بالنظر الى العالم على الاجمال والى الاسلام على الخصوص من عصبية العرب في الجاهلية حتى الآن

(١) عن الهلال سنة ١٥ صحيفة ١٢

١ — العصبية على العموم

العصبية نسبة الى العصَبة وهي « قوم الرجل الذين يتعصبون له وبنوه وقرابته لابيه » ويريدون بها اجتماع القوم للدفاع عن مصالحهم المشتركة . والاصل فيها اجتماع الاقرباء من أهل الرجل لابيه ثم اطلقوها على سائر الاهل والاقارب من القبيلة الواحدة او القبائل المتقاربة . ولما صارت العرب امماً وطوائف توسع المولدون في اطلاقها على الامة ثم ابدلوها بلفظ « الجامعة » يريدون بها مصلحة عامة أو خصائص مشتركة يجتمع تحتها طائفة من الناس كالدين او الوطن أو النسب

والانسان اجتماعيّ من فطرته أي انه ميال الى تبادل المنفعة بالاعانة والاستعانة . ولعل السبب في ذلك كثرة حاجاته وعجزه عن الاستقلال في قضائها فجره ذلك الى انتحال أسباب الاجتماع وهي كثيرة مثل أسباب ضعفه . واقدم وسائل الاجتماع القرابة وهي عصبية النسب ثم الوطن والدين واللغة ثم العادات والاخلاق والمهن والحرف حتى الجنس واللون والزواج والعزوبة والشباب والكهولة والطول والقصر مما لا يمكن حصره . وقد يشترك الرجل بجامعة النسب مع واحد وبجامعة الدين مع آخر وبجامعة الوطن مع آخر . وهكذا من حيث المهنة والعادة واللون والسن والطول والزواج وغيرها . كأن يكون طبيباً فيجتمع مع الاطباء بجامعة المهنة او محام فمع المحامين او تاجر فمع التجار . وان كان متزوجاً فهو من جماعة المتزوجين أو شاباً فمن الشبان او شيخاً فمن الشيوخ . ويجتمع بجامعة الرجولة مع الرجال وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى

ولا ينتبه أحدنا لهذه الجامعة او تلك الا عند الاضطرار الى الاجتماع لدفاع أو هجوم او الاشتراك في مصلحة عامة . فاذا رأت النساء ظلماً من الرجال مثلا اجتمعن عليهم واتحدن بجامعة الانثوية كما يفعلن في العالم المتمدن اليوم . ويجتمع اليوم الرجال من الجهة الاخرى بجامعة الرجولة للدفاع . وفي حال آخر يجتمع بعض نساء هذه الطوائف وبعض رجالها معاً بجامعة العصبية للدفاع عن الاهل او بجامعة الوطن للدفاع عن البلد او بجامعة الدين للذب عن حوضه . وفي كل حال لا يكون للجامعة معنى ولا هي تبدو للوجود ان لم يكن ثمت ما يبعث عليها من التماس التعاون على مصلحة مشتركة

وتتفرع الجامعة الواحدة الى فروع يشترك آحادكل فرع منها على آحاد الفرع

الآخر وأكثر ما يقع ذلك في الدين والوطن . فأهل القاهرة مثلاً تجمعهم مدينة القاهرة ولكن ابن هذه المدينة يجتمع مع ابن الاسكندرية على غير المصري ويجتمع مع أهل الشرق على أهل الغرب . والمصري المسلم يجتمع مع المصري غير المسلم بجامعة الوطن ومع السوري والعراقي بجامعة اللغة ومع الفارسي والهندي بجامعة الدين. واعتبر هذا التفرع في كل بلد ودين ولغة فترى الجامعات عديدة يشترك بها الناس بعضهم على بعض او مع بعض على التقاطع والتضارب . ولو رسمنا تلك العلائق خطوطاً بين الانسان ومن يشترك معهم بجامعة او غير جامعة لرأينا كلاً منا عبارة عن مركز تنبعث منه الخطوط انبعاث الاشعة من جسم منير حتى تتقاطع وتشتبك بالخطوط المنبعثة من جسم آخر على شكل مرتبك متقاطع

فاسباب الاجتماع عديدة ميسورة لكل انسان ولكنه انما يجنح الى احدها اذا مسته الحاجة تبعاً لما يتوسمه من مصلحته بالاجتماع . فاذا خاف أهل عصبية او قبيل من عدو يسطو عليهم اجتمعوا عليه بجامعة النسب وهم الاهل والاقرباء فاذا لم ينفعهم ذلك استعانوا بجامعة الوطن فاذا انجزم التغلب بها توسعوا بجامعة الدين او اللغة ويختلف ذلك باختلاف العصور وتباين الاحوال

واذا نظرنا الى الجامعة نظراً عاماً رأينا اوسعها واشملها اربع جامعات وهي : جامعة النسب وجامعة الوطن وجامعة اللغة وجامعة الدين .واذا راجعت التاريخ القديم رأيت الناس يختلفون من حيث اعتمادهم على احدها باختلاف حاجتهم اليها ويختلف ذلك في الامة الواحدة باختلاف ادوار تمدنهم

٢ — الجامعة عند الامم الاوربية

من اظهر اسباب الاجتماع عند الامم القديمة الوطن او اللغة فقد كان اليونان يجتمعون على الفرس والفرس على المصريين وكانت كل امة من هؤلاء تنقسم فيما بينها باعتبار البلاد فاهل اثينا يحاربون أهل سبارطة وهؤلاء يحاربون أهل طيبة وكل منهم يحارب رومية ولما اتسع نطاق مملكة رومية أصبحت اللغة أو الجنس أو الدولة جامعتهم . ولما اعتنقوا النصرانية وصارت ديانة القياصرة غلبت عليهم جامعة الدين واللغة معاً وتفوّت جامعة الدين على الخصوص لما ظهر الاسلام وفتح المسلمون بلادهم . حتى اذا ضعفت الدولة الرومانية في اوربا وتشعبت مملكتها الى فروع اخذ كل فرع بالاستقلال والنمو على حدة وجعلوا جامعتهم التي يجتمعون بها ويدافعون عنها

اللغة فتكونت دول فرنسا واسبانيا وايطاليا وغيرها ـ فاعتبر كيف استعانوا على الاستقلال بجامعة الوطن وأغضوا عن الدين . فلما نهضوا لمحاربة المسلمين واسترجاع بيت المقدس عادوا الى تلك الجامعة لانها تشملهم جميعاً تحت راية واحدة وحملوا على الشرق الحملات الصليبية المشهورة . فلما دحروا وعادوا الى بلادهم وتنبهت فيهم روح الارتقاء وطلبوا العلم مكنوا استقلالهم باغفال اللغة اللاتينية وهي بقية الجامعة الرومانية. فبعد ان كانت لغة العلم والسياسة عند الامم التي تخلفت عن دولة رومية نبذوها واتخذت كل امة لغتها بدلاً منها . فزادت العصبية الوطنية رسوخاً في تلك الممالك ولا تزال هي جامعتهم الكبرى

ومع ذلك فللجامعات الاخر آثار تظهر عند الاقتضاء لان الكاثوليك اذا رأوا من الانجيليين حركة يخافون ضرّها تضافرت الدول الكاثوليكية بجامعة الكثلكة على دفعها واذا رأى أهل اوربا حركة اسلامية في الشرق تباحثوا في الجامعة النصرانية . وكثيراً ما تباحثت الامم التي اصلها لاتيني كالايطاليان والاسبان ان يحيوا جامعة اللغة المشتركة باسم الشعوب اللاتينية وهكذا فعلت الشعوب التي تشترك باصل جرماني فانها أحيت بينها جامعة الشعوب الجرمانية . وهم في كل حال لا يلتمسون هذه الجامعة او تلك الا عند الحاجة الى احداها

٣ ـ الجامعة الاسلامية

واعتبر ذلك في الشعوب الشرقية واقربهم عهداً منا العرب فقدكانوا قبل الاسلام أهل جاهلية ورحلة لا دين لهم ولا وطن فلم يروا بداً من اجتماعهم تحت راية النسب او اللغة وهما متلازمتان فعنوا بحفظ انسابهم وتفاخروا بها وبالغوا في استقصائها على ما بيناه في الجزء الرابع من تاريخ التمدن الاسلامي . فكانت عصبية النسب جامعتهم الكبرى يجتمعون اليها ويختصمون بها فيتحد القحطانيون على العدنانيين واليمنية على المضرية وقيس على كلب ونحو ذلك

وما زالت قبائلهم تتفاخر بالانساب وتتألب بالعصبية حتى جاء الاسلام واحتاجوا الى جامعة يحاربون بها الامم الاخرى فاجتمعوا باسم الدين واغفلوا عصبية النسب لانها كانت سبباً في اختلافهم وانقسام قواهم . وأصبح المسلمون اخوة عربهم وعجمهم قحطانيهم وعدنانيهم فظلوا كذلك ايام الراشدين . حتى اذا تسلط بنو أمية واحتاجوا الى مناواة بني هاشم ومن والاهم من المسلمين العرب وغير العرب لجأوا الى عصبية

النسب واعادوا ما كان قد تنوسي منها واصبح المسلمون مع اجتماعهم بالاسلام حزبين يجمع احدهما النسب العربي ويعرف الآخر بحزب غير العرب وهم الموالي او الشعوبية . والعرب انقسموا الى نحو ما كانوا عليه قبل الاسلام من اليمنية والمضرية وما يتشعب منهما . وكانوا انما يلجأون الى هذه الجامعات لغرض سياسي على ما قدمناه عن امم النصرانية في اوربا

وكان العرب الى اوائل دولة الامويين لا يبالون بالوطن ولا يعرفون الجامعة الوطنية لانهم كانوا في صدر الاسلام لا يزالون على بداوتهم اذا ساروا للفتح ساقوا معهم اولادهم ونساءهم وابلهم وسائمتهم كما كانوا يتغازون في ايام جاهليتهم واذا فتحوا بلداً نصبوا خيامهم في ضواحيه مما يلي المدينة (مركز الخلافة) وقد نهاهم عمر عن الزرع فكأنهُ نهاهم عن التحضر رغبة منه في استبقائهم جنداً محارباً لا يمنعهم عن الجهاد عقار ولا بناء ولا يقعدهم عن القتال ترف ولا قصف . فكانوا يقيمون في معسكراتهم بضواحي المدن كما يقيم جيوش الاحتلال في هذه الايام وكانوا يعبرون عن ذلك بالحامية او الرابطة . فكان المسلمون في عصر الراشدين فرقاً تقيم كل فرقة في ضاحية مدينة من المدن الكبرى وتسمى جنداً وكانت عساكر الشام اربعة اجناد تقيم في ضواحي دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد. وعساكر العراق كانت تقيم على ضفاف الفرات مما يلي جزيرة العرب في معسكرين صارا بعدئذٍ مدينتين هما البصرة والكوفة . وكانت جنود مصر تقيم في معسكر على ضفاف النيل في سفح المقطم مما يلي بلاد العرب حيث بنيت الفسطاط بعد ذلك

فلما طال مقامهم في تلك المعسكرات وافضت الخلافة الى بني امية ورغبوا في الشام عن الحجاز هان على المسلمين اغفال امر المدينة وسائر الحجاز وطاب لهم المقام في الشام وسائر الامصار واغفلوا وصية عمر فاقتنوا الارضين والضياع وغرسوا المغارس فتحولت تلك المعسكرات بتوالي الاجيال الى مدن عامرة اشهرها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان مما بناهُ المسلمون غير المدن القديمة التي استوطنوها في الشام ومصر والعراق وفارس وغيرها . وما زالوا حتى اقتنوا المغارس والضياع وابتنوا المنازل والقصور واشتغلوا بالزرع وتعلموا أشغال اهل المدن من تجارة وصناعة ونشأت فيهم الجامعة الوطنية في اهل كل بلد الى بلدهم

ومما حمل المسلمين على اتخاذ الجامعة الوطنية انقسام الاحزاب السياسية يومئذ باعتبار المدن . واول خلاف وقع بين بلدين اسلاميين الخلاف الذي وقع بين الشام والكوفة في ايام عثمان بن عفان ثم حدث الانقسام الوطني السياسي بعد مقتله وكان أساسه الميل الى أحد طلاب الخلافة يومئذ وهم علي ومعاوية وطلحة والزبير فكان اهل الشام مع معاوية لانهُ اميرهم ومعظمهم من قريش وكان أهل المدينة مع علي وهم الانصار وتبعهم مصر وكان أهل الكوفة مع الزبير وأهل البصرة مع طلحة . فلما كانت واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ وقتل طلحة والزبير انحاز أهل العراق الى علي فضلاً عن أهل المدينة ومصر وظل أهل الشام مع معاوية . ولما كانت واقعة صفين ومسألة التحكيم سنة ٣٧ هـ وغلب عمرو بن العاص بمكره فبويع معاوية وتركت مصر لعمرو ابن العاص صارت مصر في حوزة معاوية . ولما قتل علي سنة ٤٠ هـ ومات الحسن ثم قام الحسين يطالب بالخلافة بعد موت معاوية وخلافة يزيد استعان الحسين باهل العراق وسافر اليهم فبايع اهل الحجاز لابن الزبير . فاصبح الحجاز مع ابن الزبير والعراق مع الحسين والشام ومصر مع معاوية — وهؤلاء انما لجأوا الى الجامعة الوطنية لانها توافق ما في نفوسهم من طلب التغلب

وكان لاهل كل بلد غرض خاص في السياسة عبرنا عنه بالعصبية الوطنية وهي غير عصبية النسب اذ قد يجتمع أهل البلد الواحد على غرض واحد ويعرفون بجامعة واحدة كاهل البصرة والكوفة والشام والفسطاط وهم اخلاط من قبائل شتى . فكان لكل بلد في عصر بني أمية جامعة خاصة يجتمع بها ويحارب باسمها . وهو مؤلف من قبائل تختلف نسباً وعصبية وفيهم قبائل اليمن ومضر وربيعة وغيرها يقيم كل منها في حي خاص بها يعرف باسمها فكانت البصرة مثلاً مؤلفة من خمسة اقسام تعرف بالاخماس كل خمس لقبيلة وقس على ذلك سائر البلاد

ولما طمع بنو العباس في الخلافة واستعانوا على نيلها بالفرس اشتغل المسلمون عن اللغة او الجنس وافترقوا الى حزبين كبيرين فاصبح الفرس في جانب والعرب في جانب وطال اختصامهما حتى غلب العنصر الفارسي على الخصوص بعد مقتل الامين وانتصار المأمون باخواله الفرس وضعف العنصر العربي . ولما تولى المعتصم واستكثر من الاجناد الاتراك ظهرت العصبية التركية وأخذت تتقوى بتوالي الاجيال حتى انشأوا الدول الكبرى . ثم ظهر المغول والشركس والاكراد وغيرهم . ولم ينقض القرن

السابع للهجرة حتى اصبح المسلمون أحزاباً تحارب بعضها بعضاً من بادية تركستان في الشرق الى شواطيء افريقيا الغربية في الغرب غير انقسام العرب بعضهم على بعض وناهيك بالاحزاب المذهبية الدينية . وكل طائفة انما اتخذت الجامعة التي تتوقع التغلب بها . واغضوا عن الجامعة الاسلامية لذهاب الحاجة اليها بضعف الدول غير الاسلامية عن مناوأتهم او لاشتغالهم بالاختصام فيما بينهم عن محاربة اعدائهم

حتى اذا نهض الافرنج تحت راية الصليب وتألبوا لاكتساح الشرق وفتح بيت المقدس شعر المسلمون بافتقارهم الى جامعة الدين فاغضوا عن كل جامعة غيرها وتكاتفوا لرد هجمات الصليبيين تحت راية الاسلام . ولم يحسن الصليبيون الاجتماع كما أحسنه المسلمون فغلبوا على ما في ايديهم من بلاد الشام وعادوا الى بلادهم

ولما فرغ المسلمون من تلك الحرب الدينية رجعوا الى ما كانوا فيه من الاختصام من قبل . وا كثر اختصامهم بين السنة والشيعة او الترك والفرس لاشتغال أهل اوربا عنهم بانشاء دولهم الحديثة . حتى اذا شعر المسلمون بضعفهم في العصر الاخير ورأوا مطامع تلك الدول في بلادهم عادوا بطبيعة العمران الى البحث عن جامعة تلم شعثهم فلم يروا خيراً من جامعة الدين فلجأوا اليها وقاموا ينادون بها — وهو أمر طبيعي لا غرابة فيه ولا هم يلامون عليه

أما ما يترتب على المناداة بتلك الجامعة فليس من شأن الهلال البحث فيه لكننا بالنظر الى ما نعلمه من قواعد الاجتماع ونواميس العمران وما نعهده من أحوال المسلمين في الاقطار المختلفة الآن لا نتوقع من وراء هذه الجامعة خطراً سياسياً . على اننا نرجو للمسلمين منها نفعاً ادبياً أو مالياً بما ينجم عن الاتحاد من تبادل المنافع التجارية أو العلمية والتعاون على الاعمال الخيرية بين مسلمي الشرق من اقصائه الى اقصائه ولا نظنه يتعدى ذلك — الا اذا تهور المتطرفون في تغرير العامة واثارة خواطرهم حتى يبدو منهم ما يسميه المتمدنون تعصباً دينياً فينقلب ما رجوناه من النفع لهم ضرراً عليهم والله اعلم

---

*

نظام الاجتماع في فرنسا [1]

نظام الاجتماع من حيث أساسه واحدٌ في كل بلد وانما يختلف في تفاصيله باختلاف الاعصر والاقاليم . فالهيئة الاجتماعية في ابسط أحوالها مؤلفة من العائلة والحكومة والكنيسة . فاذا ارتقت نشأت فيها المدارس والجميات الادبية والشركات الاقتصادية . وتختلف هذه الجماعات في كل بلد باختلاف طبائع اهله ونوع مدنيتهم وسائر احوالهم . فنظام الحكومة يختلف بين الاستبدادي والدستوري والجمهوري . ونظام العائلة في الشرق غير ما هو في الغرب وفي هذا العصر غير ما كان عليه قبله . كانت العائلة عندنا الى اوائل القرن الماضي على شكل الحكم الملكي المطلق – الاب رئيس العائلة يستبد في اهله استبداد السلطان المطلق في رعيته يزوج من شاء عن شاء ويعهد الى من يريد بما يريد من عمل أو سفر أو اقامة – لا يرون في ذلك غرابة . ثم تعدل هذا النظام بعد دخولنا في المدنية الحديثة فاخذت العائلة تقترب من النظام الدستوري لكنها ما زالت أقرب الى الحكم المطلق ويختلف ذلك باختلاف الامم والاديان

وبناء على ما للاقاليم او البيئة من التأثير في ابدان الناس وعقولهم وطبائعهم فاختلاف الاقاليم اوجب اختلاف الامم في كل ذلك فلننظر في طبائع الامة الفرنساوية على الاجمال

طبائع الفرنساويين

الفرنساوي عامل نشيط يدأب على العمل بحماسة وهمة . ولا سيما أهل الزراعة منهم فانهم اقوياء الابدان يعملون في حقولهم بنشاط . ولا تجد في فرنسا بقعة تقبل الزراعة غير مزروعة . وكذلك العمال والصناع وسائر طبقات الناس فانهم نشيطون في ذهابهم وايابهم وفي كلامهم واشغالهم وفي أسفارهم – فان احدهم ينزل من القطار ويحمل حقيبته (الشنطة) بيده فاذا كان منزله قريباً سار الى بيته ماشياً لا يرون في ذلك بأساً . على انهم اذا طلبوا غلاماً أو رجلاً يحمل لهم الحقيبة في أثناء الطريق لا يجدون . وهي صفة يشترك فيها أهل اوربا كافة . ويتأثر بها الشرقي حالما يطأ تلك القارة . وتقوم في نفسه رغبة في الهمة والنشاط فاذا رجع الى بلده عاد الى طبعه . الا اذا توطن اوربا

(١) عن الهلال سنة ٢١ صحيفة ٨٩

طويلاً — ومرجع ذلك الى طبيعة الاقليم . والفرنساوي ذكي الفؤاد سريع الخاطر حاضر الذهن فصيح خفيف الروح فيه ميل الى الفنون الجميلة وذوق في الصناعة

الجمال

وللفرنساويين ذوق في الجمال لا تضارعهم فيه امة . يظهر ذلك خصوصاً في الباريسيين فانهم قدوة الامم في الازياء على اختلاف أشكالها . ولهم ذوق في توليد الجمال مما لا جمال فيه من نفسه بترتيب أجزائه على شكل لا قاعدة له الا الذوق . وهو على أرقى درجاته في باريس . تجد المرأة القبيحة الخلقة تتزيا بزي يناسبها وتصفف شعرها تصفيفة تناسب ملامح وجهها فتظهر جميلة . ولهم في تصفيف الشعر واختيار شكل البرنيطة ولونها طرق تختلف باختلاف تقاطيع الوجه ولونه وشكل الانف والعينين والجبهة والفم وغير ذلك فيوفقون التصفيفة (التواليت) والبرنيطة على حال الوجه فيظهر جميلاً

ويتبع ذلك ميلهم الى تزويق الحديث فانه من قبيل رغبتهم في الجمال الخارجي . فكما يوفقون بين تصفيفة الشعر وحجم البرنيطة وشكل الوجه حتى يظهر جميلا فهم ايضاً يحسنون الحديث حتى يلائم ذوق السامع فتنبسط نفسه له . لكنه لا يرى النتيجة دائماً كما كان يتوقعها . فالفرنساوي فيه ميل الى اتقان الظواهر أكثر مما الى اتقان البواطن وهو من قبيل حبه الجمال . ويخالفه الانكليزي في ذلك كما سنبينه فيما بعد . ومن قبيل ميلهم الى الجمال واقتدارهم على توليده ما تجده في مخازنهم وشوارعهم من الزخارف التي يراد بها التحسين . اي ان تظهر السلعة المعروضة احسن مما هي . ومن هذا القبيل استخدام المرايا في الواجهات لايهام الناس أنها أكبر مما هي . واذا كان الحانوت صغيراً جعلوا جدرانه من المرايا فيظهر أضعاف ما هو

الاقتصاد والترتيب

والفرنساوي مقتصد من فطرته وترى الاقتصاد ظاهراً على الخصوص في القرى فان اصحاب المزارع الصغرى يعيشون عيشة بسيطة . والفلاح يشتغل وامرأته تشتغل واولاده يشتغلون كل على قدر طاقته وحسب ميله . ولا بدَّ لكل منهم أن يقتصد شيئاً من ربحه مهما كان قليلا فيحتفظ به لنفسه . وهم يستخدمون الفرش البسيط عكس اهل المدن وكذلك ملابسهم . فالفلاح الفرنساوي بسيط في لباسه واخلاقه ومهما يكن من فقره فانك تجده نظيف الثوب نظيف الفراش يأكل على المائدة

بالشوكة والسكينة بترتيب ونظافة . فلا تستنكف اذا دخلت بيته من ان تجلس على مقعده وتأكل من طعامه وتشرب من كأسه . وليس كذلك الفلاح المصري . ولا سبيل الى اصلاحه الا بتعليم المرأة وتثقيفها وهي المدبرة لكل ذلك

معرفة الواجب

ومن الخلال الحميدة الشائعة في معظم اوربا ونحن في حاجة اليها « معرفة الواجب » وهي تشمل كل اعمال الانسان . نعني ان يشعر الانسان بما عليه فيؤديه من تلقاء نفسه بدون استحثاث او ارهاب او ترغيب — لو فعل ذلك كل انسان لاستغنى الناس عن الحكومات وابطلت المحاكم . ولكن الناس يتفاوتون في هذا الباب واكثرهم شعوراً بالواجب اقربهم من المدنية والارتقاء . وهو يستلزم الامانة وهي اساس المعاملات واكبر اسباب النجاح — ما اجمل أن يشعر الانسان بما عليه فيؤديه بلا وازع أو مراقب . والفرنساويون من اكثر الامم شعوراً به وكذلك الانكليز . وربما ظهر الانكليز اكثر قياماً بالواجب لانهم يعملون كثيراً ويقولون قليلا . واما الفرنساوي فميله الى زخرف الكلام يظهر اعماله قليلة . لكن الشعور بالواجب قويٌّ في كليهما

ومما يجدر ذكره ان قومساريي الترامواي لا رقيب (مفتش) عليهم وهم لا يسلبون الشركة باستعمال التذكرة مرتين او قبض الثمن بدون اداء التذكرة لان القومساري الفرنساوي او الانكليزي نشأ وقد غرست والدته في ذهنه من طفولته ان يعرف ما له فلا يطمع بسواه . ولو اراد السائق أن يطمع فان الشعب ارقى من أن يتساهل في هذا لانه تربى تربية راقية وعرف ما لهُ وما ليس له فهو يعلم ان تساهله مع القومساري في أمر التذكرة انما هو مشاركة لهُ في السرقة . ولكن كثيرين عندنا يتساهلون في ذلك وبعضهم يحرض القومساري على السرقة . والسبب في ذلك ضعف اخلاق العامة عندنا . وان مثل الترامواي هذا على بساطته يدلُّ على اخلاق العامة

الثقة وقيمة الوقت وصدق المواعيد

ومن قبيل الامانة المبنيــة على معرفة الواجب وما يترتب عليها من الثقة المتبادلة ان بعض باعة الجرائد في فرنسا وانكلترا يضعون اعداد الجريدة فوق طاولة على الرصيف خارج الحانوت وبجانبها علبة . فمن أراد أن يبتــاع جريدة وضع ثمنها في

العلبة وتناول الجريدة ولا رقيب عليه . وصاحبها لا يخاف أن يسرقه المارة فيأخذ أحدهم الجريدة ولا يدفع الثمن . وقس على ذلك الثقة المتبادلة في سائر الحرف

دخلنا مطعماً في لندن يوم وصولنا من باريس . وبعد الفراغ من الطعام دفعنا لصاحب المطعم ليرة فرنساوية فاعتذر بان النقود الفرنساوية لا تقبل عندهم . ولم يكن عندنا نقود غير فرنساوية . فوقفنا في حيرة وأردنا ان نترك الليرة له ريثما نعود وقد بدلنا النقود . فاعاد الليرة لينا وقال « دعها معك ومتى بدلتها تدفع ما عليك » وكانت هذه اول مرة رآنا فيها الرجل . أليس ذلك من الاخلاق الراقية ؟ ان صاحبها لا يتصور رجلاً عليه حق لا يبادر الى دفعه من تلقاء نفسه . ولا يدل هذا على خلو تلك البلاد من أصحاب الاخلاق الضعيفة ولكنهم أقل مما عندنا . كما اننا لا نعني ضعف الثقة عندنا في كل الطبقات . وانما نريد الاغلبية

ومن جميل ما نحسدهم عليه معرفة قيمة الوقت وهو يتوقف على معرفة الواجب أيضاً فانهم يقسمون أوقاتهم ويفرقونها على أعمالهم فلا يقصرون بما عليهم ولا يضيعون أوقات أصدقائهم بالزيارة الخبية كما يفعل كثيرون عندنا . فان بعضهم يزورك في ساعة شغلك ولا شغل له ويعلم أنك مشغول فلا يختصر زيارته ولا أنت مجبرا على الاعتذار منه لئلا تتهم بالفظاظة . ولكن هذه العادة آخذة بالزوال من بيننا في الطبقة الراقية

واعتبر ذلك في صدق المواعيد فانه تابع للشعور بالواجب . وهو ينقصنا لكنه آخذ في الشيوع بين المتعلمين

لا يعنيني

ومن الاخلاق الفرنساوية الشائعة في باريس اشتغال كل منهم بنفسه عن سواه فلا يتعرض أحد الى شؤون جاره بالاستطلاع أو التجسس . وهو من طبائع أهل المدن الكبرى وطبيعي شيوعه في باريس وهي ثالثة مدائن العالم . وتجسس الاخبار والدخول في أحوال الآخرين يكثر في القرى الصغيرة لتفرغ أهلها للأحاديث ولانهم مطلعون على عورات جيرانهم ولا يخلون من التحاسد أو التباغض . وكلما اتسعت المدينة قلت تلك العادة فيها . ولذلك كان أهل باريس من اكثر الناس بعداً عنها . فان احدهم يمشي وهمه نفسه ولا يلتفت الى سواه . او يجلس في القهوة ولا يلتفت الى جليسه من هو . وقد يكون بجانبه رجل وامرأة يتغازلان أو يتداعبان فلا يهمه ذلك . وهذا ما نعبر عنه بضعف الغيرة ولا يستطيع الشرقي احتماله . أما

الفرنساوي فيحتمله ولسان حاله يقول « لا يعنيني »

ولكنه مع ذلك جنوح الى النجدة وفيه اريحية اذا استحثته على منقبة اندفع اليها بكليته ولو جرَّه ذلك الى خسارة أو حمله مشقة

المفاخرة بالرجال والحرية

ومن سجاياهم انهم يفاخرون برجالهم ويعظمون النابغين منهم . وحيثما مررت بشوارع باريس تجد تماثيل العظماء منصوبة في متصالب الطرق أو واجهات القصور أو في الساحات العمومية يزيد عددها على مئة وستين تمثالاً كبيراً للقواد والملوك والكتاب والشعراء والفلاسفة والعلماء . وبينها تماثيل بعض مشاهير الامم الاخرى مثل دانتي شاعر الايطاليان وشنطون محرر اميركا وشكسبير الشاعر الانكليزي وغريبالدي القائد الايطالي . غير التماثيل الرمزية عن الحرية او الاتحاد أو نحوها . وغير التماثيل المنصوبة في المتاحف والمسارح والمدارس والكنائس والمنازل وهي عديدة جداً . واكثرها شيوعاً تمثال بونابرت على اختلاف أقداره وأشكاله . والتماثيل تثير في النفوس الحماسة والميل الى الاقتداء باولئك العظماء . وهي وسيلة حسنة لاستنهاض الهمم واستحثاث القرائح لا مثيل لها عندنا — الا قليلاً

ويمتاز الفرنساويون عن سائر اهل اوربا بالنزوع الى الحرية على اختلاف اوجهها . وقد مرّت اجيال كانوا فيها نصراء الحرية يأخذون بايدي طلابها وينصرونهم بالمال والرجال . واشهر الشواهد على ذلك نصرتهم للاميركان في طلب الاستقلال من سلطة الانكليز . ومن قبيل تعشقهم الحرية مغالاتهم في مطاردة بعض الجماعات الدينية لكنهم تطرفوا في ذلك حتى خرجوا به الى عكس المراد بالمدنية . ففترت الحماسات الدينية ونزع الناس الى الشك في الدين وآل الامر في بعض الاحوال الى فساد الآداب . لان العامة لا تستغني عن وازع ديني يصلح من آدابها . ومن اكبر اسباب الفساد القاء الشكوك الدينية في اذهان الناس

طعامهم وشرابهم

والفرنساويون يكثرون من اكل اللحوم في طعامهم وهو شأن اكثر سكان اوربا وخصوصاً في البلاد الباردة لاحتياجهم الى المواد اللحمية في مقاومة البرد . ولهذا السبب ايضاً يكثرون من شرب الخمور وتكاد لا تجد بينهم من لا يشرب الخمر على المائدة رجالاً ونساء واولاداً . وكثيراً ما يجر ذلك الى ادمان المسكر فكثر المدمنون

عندهم ولا سيما في الطبقات السفلى كالعمال والصناع . اما شرب الخمر الاعتيادية فانه عام ولا يشترط أن يكون على المائدة . ولذلك ترى وجوه الفرنساويين مشرقة او مشربة حمرة ـ ولا يدل ذلك على الصحة دائماً وقد يدل على المرض . وترى صاحبه يميل الى النعاس بعد الطعام . ويظهر ذلك في ساقة المركبات بباريس . لان أحدهم اذا لم يكن سائقاً مركبته لا تراه الا نائماً على كرسيه ورأسه متدل على صدره وقد احمرت وجنتاه وانتفخت أوداجه . وحوادث المسكر بمصر على كثرتها قليلة بالنسبة الى تلك البلاد . لكننا نشكو من شيوع الحشيش بمصر رغم منعه رسمياً . على اننا سمعنا بوجوده في باريس أيضاً بامكنة يعرفها طالبوه

بقي علينا النظر في أمرين مهمين من نظام الاجتماع عندهم نعني طبقة العامة والمرأة

العامة

ومن قبيل النظام الاجتماعي ان تكون الامة مؤلفة من طبقات ترجع الى طبقتين: الخاصة والعامة ويختلف حال كل منهما باختلاف الامم والاعصر وان تشابها على الاجمال في كل بلد . فالخاصة وهم أهل الوجاهة والثروة يغلب أن يكونوا ممتازين في نفوذهم ومعيشتهم ويكون العامة تابعين لهم في احوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على تفاوت في ذلك بتفاوت أحوال المدنية وأنواعها

فالعامة في التمدن القديم كانوا كما قال الامام علي « همج رعاع اتباع كل ناعق » وقال معاوية انهم « اشباه البهائم ان جاعوا ساموا وان شبعوا ناموا » وهم نحو ذلك في الشرق الى الآن الا في بعض البلاد الراقية . أما في الغرب فقد تغيرت أحوالهم حتى اوشكوا ان يقلبوا نظام الاجتماع ولا سيما في الممالك الجمهورية ومنها فرنسا وهو موضوع كلامنا في هذا الباب

العامة في فرنسا

ان العامة في فرنسا يختلفون عن عامتنا بامور كثيرة : منها أنهم أرقى تربية وأوسع تعلماً فلا تجد فيهم من لا يحسن القراءة والكتابة . وحيثما توجهت ترى البوابين وساقة المركبات وصغار الباعة وخدم المنازل والقهوات حتى مساحي الاحذية يطالعون

الجرائد والكتب ويهتمون بالشؤون العامة ويبحثون في السياسة ويتناقشون في حقوق الاحزاب وينتقدون أعمال الحكومة . والسبب في ذلك « التعليم » فانه عام في كل بلد وقرية فتنبهت الاذهان وتفتحت الاعين وتعلم العامي معنى الاجتماع والاتحاد وخصوصاً بعد الانقلاب الذي جعل كل شيء في ايدي العامة لانهم قلبوا الحكومة واستبدوا في الشرفاء والامراء . فتشكلت الاحزاب من العامة وارتقت نفوسهم . ورافق ذلك كثرة الاختراعات الصناعية التي أغنت أصحاب الاموال (الخاصة) عن كثير من العمال فتضايق العمال وهم من العامة واضطروا الى الاجتماع والاحتجاج والمطالبة وهو الاعتصاب . وساعدهم على ذلك شيوع مذهب الاشتراكية واحتياج النواب الى العامة في التصويت عند الانتخابات النيابية وكل نائب يجتهد في اكتساب رضى القوم في البلد الذي ينوب عنه حتى يصوتوا له . فازداد العامة نفوذاً وطمعاً واكثروا من الاعتصاب حتى اتعبوا أصحاب الاموال وحملوهم خسائر عاد معظمها على الجمهور لانها آلت الى ارتفاع الاسعار

فالحرية التي نالها العامي الفرنساوي صانت حقوقه من جهة لكنها أضرت به وبالامة من جهة اخرى . لان العامي مهما بلغ من ارتقائه لا يبرح قصير الادراك وانما يتدرب على الاجتماع والصياح مع الصائحين فينحاز الى هذا الحزب أو ذاك لا عن تفطن وادراك وانما هو يساق بعواطفه ويندفع بما يخطر له حسب المؤثرات الخارجية . والعامي الفرنساوي مدمن للسكر كما تقدم . أضف الى ذلك حدة مزاجه فاذا ضربت له على وتر حساس كالدين أو الوطنية أو غيرهما اندفع لما تريده منه . فالغلبة لمن يستطيعون استهواء هؤلاء العامة لاغراضهم بالفصاحة أو نحوها

والنفوذ الحقيقي للخاصة لانهم أقوى عقولاً وأكثر وسائل — ذلك هو شأن الجماعات في كل بلد : يختص الخاصة على السيادة او الكسب فيستنصرون العامة بعضهم على بعض بما يستطيعون من الاساليب فينصرونهم وينفذون أغراضهم والعامة يتوهمون انهم يفعلون ذلك من تلقاء انفسهم . مهما بلغ من رقي العامة وحريتهم فالخاصة هم أصحاب السيادة الحقيقية وهم كالاوصياء على العامة يسنون لهم الشرائع ويضعون لهم القوانين ويدربونهم في شؤونهم السياسية والاجتماعية حتى أحوالهم اليومية . فان الحكومة الفرنساوية تهتم بها كثيراً وقد فرضت على العامل أن يرتاح يوماً في الاسبوع فاذا لم يفعل عدّ مذنباً . واذا كان عمله لا يأذن له بالراحة كخدمة المطاعم

والقهوات ونحوها دبرت الحكومة وسيلة تمكنه من الراحة. وذلك انها أمرت العامل من هؤلاء أن يختار يوماً من الاسبوع يرتاح فيه وعينت من يقوم مقامه في ذلك اليوم ويستولي على اجرته . وعندهم طائفة من العمال تحت الطلب لهذا الغرض . فبهذه الواسطة يشغلون سبع العمال ويريحون جمهورهم . لكن بعض العمال يشتكون من هذه المعاملة لانها تضيع عليهم سبع دخلهم ولانهم ينفقون في يوم الراحة أكثر من يوم الشغل. وللانكليز عناية مثل هذه أو أشد منها في تدبير شؤون العامة سنأتي عليها فيما بعد

المرأة

كانت المرأة في الاعصر المظلمة باوربا وغيرها مرذولة محتقرة تعدُّ من قبيل المتاع . وكان للرجل أحياناً ان يبيع امرأته بالمزاد العمومي . وتفنن الكتّاب والشعراء في هجائها وانتقادها . وتباحث اللاهوتيون طويلاً في « هل للمرأة نفس » وزعموا انها « باب جهنم » و « معمل أسلحة الشياطين وصوتها فحيح الافاعي» وانها « نبال الشيطان » و « سامة كالصل وحقودة كالتنين» وقال الشاعر العربي :

ان النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

فلما بزغ نور التمدن الحديث وتحولت العلوم والمعارف من النظريات والتقاليد الى الاختبار والدرس كان في جملة ما همهم « المرأة » فادركوا خطورة مركزها في الهيأة الاجتماعية وان النجاح معقود بتعليمها وترقية نفسها . لانها قوام العائلة ومربية الابناء وشريكة الرجل في أحوال الحياة . فقدموها وعلموها ورفعوا منزلتها فقامت تطالب بحقوقها . واختلف الكتاب في مقدار تلك الحقوق لكنهم اتفقوا على احترام المرأة واجلالها حتى مثلوا بها الفضائل والمفاخر . فاذا أرادوا تصوير الحرية مجسمة نحتوا لها تمثال امرأة . وهكذا فعلوا بتمثيل الاتحاد والبلاغة والعمل وغيرها من الفضائل المجردة فانهم يمثلونها بصورة امرأة والفرنساويون من أكثر الامم احتراماً للمرأة

المرأة الفرنساوية

أخرجوا المرأة من ظلمات الجهالة وأطلقوا سراحها واعترفوا بحقوقها وساووها بالرجل ما له وما عليه . فبرزت من خدرها وتعاطت أعمال الرجال وسابقتهم في كثير من أعمالهم لانها أقل أجرة من الرجل فكثر استخدامها في ما تستطيعه من المناصب

والمهن . فمن النساء عندهم بائعات في المخازن وعاملات في المناجم والمصانع والمعامل وخادمات في المنازل وكاتبات في المتاجر والشركات وفي بيوت التلغراف والتلفون والبريد وحاسبات في المصارف . وقد تعاطين أهم المهن العلمية كالمحاماة والطب والتحرير والشعر والتأليف والوعظ والعمل في معامل الكيمياء والبكتريولوجيا وغير ذلك . وانشأن الجمعيات العلمية والادبية والاندية الاجتماعية . وألفن الاحزاب السياسية المطالبة بحقوقهن . وتعاطين كثيراً من الصنائع الحقيرة او المتعبة فمنهن غارسات في الحقول ومنظفات في الشوارع — حتى سوق المركبات فقد شاهدنا واحدة منهن تسوق مركبة بالاجرة في شوارع باريس فادهشنا ذلك فاخبرنا صديق كان معنا ان في باريس ١٢ سائقة مثل هذه

والسبب في نزول المرأة هذه المنزلة عندهم ان الفتاة الفرنساوية تنشأ في منزل والديها كما ينشأ الغلام تتعلم كما يتعلم ويطلب منها أن تتكسب بالشغل كما يتكسب هو . وهي تجالس الرجل وتحادثه وتباحثه في كل موضوع كأنها رجل مثله وتسافر للسياحة والاكتشاف وحدها لا ترى في ذلك بأساً او غرابة مما لم نألفه في بلادنا . فان فتاتنا تتعلم او لا تتعلم ثم تمكث في منزل والديها في انتظار نصيبها للزواج وزينتها الحشمة والحياء ولا يخطر لاهلها أن تعمل عملاً . فهي اما أن تتزوج او تبقى عانساً في بيت ابيها ولا تشتغل الا نادراً . وأكثر اشتغالها بالتعليم او الخياطة ويندر أن تتعاطى عملاً آخر . ومهما بلغ من حريتها فهي لا تجالس غير معارفها وذوي قرباها

أما الافرنجية فحالما تخرج من المدرسة تمضي الى السوق كما يمضي الشاب فاذا أتاها النصيب تزوجت فيشغلها الزواج عن الارتزاق اكتفاء بعمل زوجها . والا فانها تشتغل هي أيضاً . ولا يخفى ما في ذلك من تضاعف الايدي العاملة في الامة الفرنساوية أي أن العمال من الجنسين نحو ضعفي العمال عندنا بالنسبة الى عدد السكان

والمرأة الفرنساوية في القرى والبلاد الصغيرة مثال الاقتصاد والترتيب والعطف على أولادها والأمانة لزوجها وكذلك المرأة في العائلات الراقية من الطبقة الوسطى والعليا . لكن هذه الحرية أدت في المدن الكبرى الى تشويه ذلك الجنس اللطيف في طبقة معينة من العامة . وهذا التشويه آخذ في الامتداد ويخشى ان يجر الى انقلاب اجتماعي وخصوصاً في باريس ام المدائن الجميلة

كنا نشكو من جهل الفتاة الشرقية وحجبها ونحسد الفتاة الافرنجية على تعلمها

وحريتها فلما رأينا حالها في باريس انقلبت شكوانا وكدنا نرضى بالحجاب والجهل ـ انهم أساؤوا الى ذلك المخلوق اللطيف بتلك الحرية المتطرفة. أرسلوا المرأة الى الاسواق تخالط الشبان وتبايعهم وتساومهم وتعاشرهم وهي ضعيفة حساسة فتعرّضت لمفاسد كثيرة . وأغراها الشبان بالمال فخدعوها . فلما خرجت من صف الحرائر خدعتهم . ثم آل أمرها الى ضياع العمر في الشوارع والازقة لا تجد رزقاً الا باستهواء الشبان . وفي القاهرة مثال صغير من تلك الطبقة يعرفن ببنات الرصيف . أما هناك فانهنّ ألوف ولا تكاد تخلو منهنّ حديقة أو متنزه أو شارع ولا سيما في أثناء الليل ولا حرج عليهنّ بحجة الحرية الشخصية . والحكومة الفرنساوية تبيح الفحشاء على شروط وضعتها وقوانين سنتها . فاباحت للمتجرين بالاعراض أن يبتنوا المنازل والقصور ويحشدوا فيها الغواني أصنافاً وألواناً يعرضونهن عرض السلع او الاثاث بلا عيب ولا حياء ولهم سماسرة في أيديهم شهادات من الحكومة تخول لهم معاطاة تلك المهنة . ولهذه الطبقة من المتهتكين مجالس وأندية وجرائد وكتب لترويج تلك البضاعة. وليس ذلك جائزاً في انكلترا . ولكن مصر اقتدت فيه بالفرنساويين كما اقتدت بسواه من اسباب تمدنهم . وما كان أجدرنا أن نأخذ الحسن النافع من أسبابه ونعرض عن القبيح الضار

الارساليات المصرية

ومن قبيح هذه الحرية في باريس ان من تلك الشباك الجهنمية كثيراً في حي يعرف بالحي اللاتيني (quartier Latin) فيه اكثر المدارس العالية التي ترسل مصر شبانها ليتلقوا فيها الحقوق أو الطب أو غيرها . ولا مندوحة لهم عن الاقامة هناك والتعرض لتلك الاخطار في المراقص والملاعب حيث يختلط الشبان بالشابات . فلا ينجو من ذلك الخطر الا قوي الارادة ثابت العزيمة . ولكن الانسان ضعيف ولا سيما الشاب القادم من بلاد لا يرى فيها المرأة الا محتجبة وهو في بلده بين أهله ومعارفه يمنعه الخجل من مخالطة غير المحتجبات . اما في باريس وكل شيء فيها مباح فانه يرى الشبان والشابات في الطرق أزواجاً (غير مطهرة) ذكراً وانثى بلا حرج ولا خجل يتداعبون ويتغازلون . ويجد من رفاقه من يغريه على الرذيلة ويحببها اليه باسم الحرية فاذا احجم عيره بالضعف . فهل يلام اولئك الشبان على السقوط ؟ وانما اللوم على الذين يرسلونهم الى تلك المدارس . واذا كان لا بد للحكومة المصرية أو

الآباء من ارسال ابنائهم الى مدارس فرنسا فمن الخطأ ارسالهم الى باريس وتعريضهم لتلك الاخطار

على أن هذه الطبقة من النساء ليست كلها من أهل تلك العاصمة فان فيهن كثيرات من أهل الارياف الفرنساوية او من خارج فرنسا . وبعضهن من روسيا والمانيا وغيرها . ويندر بينهن القادمة الى باريس بقصد العهارة . وانما يفد اكثرهن اليها للارتزاق ببعض المهن فيتعرضن للوقوع في تلك الفخاخ ويعينهن الفقر على الوقوع فيها . لان البائعة في مخزن واجرتها فرنكان أو ثلاثة في اليوم تنفقها على الطعام واللباس والمنام يقع نظرها كل يوم على عشرات من شبيهاتها في الخلقة أو أقل منها جمالاً وكل منهن قد تأبط زندها شاب كساها أحسن الاقمشة وزينها باجمل الحلي فاذا قويت هذه البائعة المسكينة على محاربة الحسد فانها لا تقوى على مدافعة من يتعرض لها من اولئك الشبان الذين يغرونها بالمواعيد العريضة . ويحببون اليها باطراء جمالها وشكوى الغرام وغير ذلك فتقع في الشراك . ولا يباشرها ذلك المغرم الا مدة ثم ينتقل الى سواها . فتصبح غير قادرة على العمل في مهنتها الاولى ويهون عليها الارتزاق من أمثال ذلك الشاب . واعتبر كيف تكون حالها متى ذهب شبابها وذوى جمالها !

فالعلة الاصلية في شيوع التهتك بباريس انما هو اطلاق سراح الفتاة ومساواتها للرجل وتكليفها الارتزاق مثله واباحة الحكومة للفحشاء رسمياً . وزد على ذلك ان الفتور الديني شائع في فرنسا حتى اصبح شبانها يعدون العهارة ضرباً من التجارة ولا فرق عندهم بين الفحشاء والتمتع بسائر ملاذ الحياة كالطعام والشراب والسماع ونحوها . فيغرون المرأة على ذلك فتطيعهم . وليس أقبح من فتور المرأة في الدين لانها أقرب الى التقوى من الرجل واكثر تعففها من طريق الدين خوف العقاب . وهي دقيقة الاحساس سريعة التأثر فاذا لم يشتغل قلبها بالتقوى والرهبة من العقاب خيف عليها السقوط اذ ليس لها ما للرجل من قوة الارادة . ومع ذلك فانه اكثر سقوطاً منها لكن الناس لا يعيبون سقوطه كما يعيبون سقوطها - وذلك من جملة مظالم نظام الاجتماع

في شوارع باريس الوف من الفتيات لولا هذه الاسباب لكنّ امهات وربات عائلات يربين أبناءهن رجال المستقبل على الفضيلة بدلا من ضياع شبابهن في الرذيلة

ويضيع معهن الوف من الشبان بلا عقب . لان هذه الاباحة من اكبر أسباب العقم في فرنسا اذ يمسك الشبان عن الزواج تخلصاً من متاعبه وهمومه واكتفاء بملاذه الوقتية بثمن قليل لا مسئولية بعدها ولا تعب . فلا نبالغ اذا قلنا ان فرنسا بين يدي خطر اجتماعي يهددها ولا تخرج منه الا بعد انقلاب عظيم

بلغ عدد اللقطاء في باريس للعام الماضي ثمانية عشر الفاً لا يعرف آباؤهم فهم من نتاج هذه الرذيلة . من نتاج الافراط في الحرية والفتور في الدين . ان الجهل والحجاب يضران المرأة ويؤخران الهيئة الاجتماعية عن أسباب المدنية . لكن الحرية الزائدة مع العلم أو بدونه تفسد المجتمع الانساني وتضر بالعائلة. وحال فرنسا الاجتماعي أكبر شاهد على ذلك لان احصاءها يكاد يكون الآن كما كان منذ أربعين سنة . ولم تبق امة الا تضاعف احصاؤها في اثناء هذه المدة

خلقت المرأة أماً تدبر العائلة وتربي الاولاد . وتعليمها ضروري للقيام بمهمتها الطبيعية في الشؤون العائلية . وأما تكليفها باعمال الرجال فانه خارج عما خلقت له — الا اذا اضطرت اليه لاسباب قهرية . ولكننا نرى بعض كبار العلماء يجيزون لها كل عمل يعمله الرجل وان تتعاطى كل صناعة أو مهنة لانها مساوية له . وبعضهم الف كتباً في هذا الموضوع خلاصتها ان المرأة يجب أن تعمل كل أعمال الرجال من صناعة او علم او تجارة أو زراعة بحجة تضاعف الثروة بتكاثر الايدي في العمل . وهو رأي نظري لا ينطبق على حاجة المجتمع الانساني . اذا نزل الرجل والمرأة الى السوق من يربي الاطفال ويدبرهم ويعنى باحوالهم ؟ فان قيل ان المراضع والخدم يفعلون ذلك قلنا ان الطفل لا تربيه الا امه . واذا فرضنا قيام الخدم مقامها فالنفقات التي يستلزمها استخدامهم تستغرق ما تكتسبه المرأة بالعمل خارج بيتها

ومهما بلغ من ارتقاء الجنس البشري في الاكتشاف والاختراع فانه لا يقوى على قلب نظام الاجتماع — وهذا النظام يقضي على الام أن تربي طفلها بحيث لا يخرج من دائرة عنايتها . وان يكون هو أهم مشاغلها مع تدبير بيتها وليس ذلك بالشيء اليسير . ان القيام بشؤون العائلة لا يقل اهمية عن أعظم عمل من أعمال الرجال في التجارة او السياسة او الصناعة او غيرها

الخلاصة

في مدنية فرنسا وغيرها من مدنيات أوربا حسنات كثيرة يجب علينا اقتباسها

والاستفادة منها . ولكن فيها سيئات يجب تجنبها والابتعاد عنها فالحسنات التي يحسن بنا اقتباسها هي :

١ معرفة الواجب ٢ المحافظة على الوقت وصدق المواعيد
٣ تهذيب أخلاق العامة بالتربية الصحيحة
٤ تعليم المرأة وتثقيفها ٥ ترقية التعليم والتوسع في الآداب
٦ العمل والجد

أما ما يجب علينا تجنبه من ادران تلك المدنية فاهمه

١ الافراط في الحرية واستخدامها في غير موضعها
٢ ما يخالف الحشمة الشرقية . على ان نأخذ من العلم والتربية القدر الملائم لعاداتنا
٣ الفتور في الدين والمجاهرة بالكفر فانه من اسس ذلك الخراب

نظام الاجتماع في انكلترا [1]

نظام الاجتماع في انكلترا يشبه على اجماله نظام سائر الممالك الاوربية من حيث العائلة والحكومة والمدرسة والكنيسة . لكنه يمتاز في انكلترا بخصائص لا يخلو ذكرها من فائدة هاك أهمها :

١ — طبقات الامة

لا يخفى ان انكلترا ام الحكومات الدستورية وأقدم من اعترف بحقوق العامة . ومع ذلك فالامة عندهم مؤلفة من طبقتين متباينتين لا تختلط احداهما بالاخرى — نعني الخاصة والعامة او الشرفاء والعمال أو الاعيان والعموم . وذلك من بقايا القرون الوسطى التي كان فيها اللورد صاحب الارض وله السيادة هو وأهله على بلده وسائر الناس أعوان له أو عمال في مزارعه . وكان ذلك شأن اكثر امم اوربا في عصر الاقطاع . لكن اكثرهم عدلوا عنه وساووا بين طبقات الامة في الحقوق والواجبات . الا الانكليز فلا يزال لاهل السيادة القديمة حقوق يمتازون بها عن سواهم في بعض

(١) عن الهلال سنة ٢١ صحيفة ٤٢٠

الاحوال السياسية والاقتصادية . ولكل من هاتين الطبقتين شأن خاص مستقل عن شأن الطبقة الاخرى . ونواب الامة طبقتان في مجلسين مجلس الاعيان ومجلس العموم وقد ترى مثل هذين المجلسين في بعض الامم الاخرى لكنه عند الانكليز مبني على تسلسل الارستوقراطية من الاجيال الوسطى . ولا يزال كثير من الارضين ملكاً للشرفاء يتوارثونها ولا يبيعونها بيعاً قاطعاً . وانما يبيعون مرافقها الى أجل معين . والغالب ان يبيعك الشريف الارض تملكها الى ٩٩٩ سنة فتدفع له ثمنها او هو حق صيرورتها اليك بعد تلك المدة . ويبقى له عليك مالٌ يتقاضاه كل سنة يتم الاتفاق عليه يسمونه في اصطلاحهم تشيف (Chief) وقد يحتالون في تمليك الارض حيلة شرعية فيتفق الشاري والبائع على مبلغ يدفعه الشاري مرة واحدة بدل الاقساط السنوية نحو ما تفعل الحكومة المصرية في استبدال معاش المستخدمين. فاذا دفع الشاري ذلك المال صار مالكاً للارض . عرفنا صديقاً لنا في منشستر ابتاع منزلا من أحد الشرفاء بالفي جنيه دفعها معجلاً وبقي عليه الاقساط (التشيف) نحو مئة جنيه يدفعها كل سنة . وأخبرنا انه ينوي أن يستبدل الاقساط بالفي جنيه أخري فيصير المنزل مالكاً له

فالانكليز عندهم الحرية والاخاء وليس عندهم المساواة . على أنهم عاملون على نزع تلك الامتيازات من الشرفاء . وقد أفلحوا في كثير من مطالبهم لكن المساواة الكلية يبطيء الوصول اليها لتأصل الارستوقراطية في نفوس القوم من أجيال متوالية . حتى تراها في كثير من آدابهم الاجتماعية . ومن آثارها المحسوسة انه ليس في قطر السكك الحديدية درجة وسطى بين الاعيان والعموم . فالقطار عندهم فيه عربات من الدرجة الاولى وعربات من الدرجة الثالثة. ولا نجد درجة ثانية في قطرهم الا مايتصل منها بالقطر الفرنساوية وغيرها على الحدود

٢ — ضرائب الدخل

لا تخلو دولة من ضرائب تضربها على رعاياها تسدُّ بها نفقات رعايتهم والقيام على حراستهم او القضاء بينهم . لكن الانكليز يزيدون على ذلك نوعاً من الضرائب اقتضاه تفاوت الثروة في طبقات الامة . فجعلوا مقدار الضريبة بنسبة تلك الثروة ويعولون في تقديرها على الدخل لا على رأس المال . فيفرضون على الغني أو التاجر

مبلغاً من دخله السنوي يسمونه ضريبة الدخل . أصلها اعانة فرضتها الحكومة على الامة للاستعانة بها على محاربة الفرنساويين سنة ١٥١٢ فقرر البرلمان يومئذ أن يدفع العامة ٢٠/١ من دخلهم تلك السنة والكهنة الخمس. وفي سنة ١٧٩٨ زادوها لمثل ذلك السبب وما زالوا يزيدون الضرائب وينوعونها حتى بلغت ما هي عليه الآن . وهي تختلف حسب السنين ولكنها نحو خمسة في المئة من الدخل أو شلين في الجنيه . ولا يدفع هذه الضريبة الا الذي يبلغ دخله ١٦٠ جنيهاً في السنة فما فوق . ولهم شروط لمن يزيد دخله على ذلك الى ٧٠٠ جنيه فهؤلاء يعفونهم من بعض الضريبة . أما من زاد دخله على ٧٠٠ جنيه فيدفع الضريبة كاملة . وقد بلغ دخل الحكومة من هذه الضريبة نحو ٣٢٠٠٠٠٠٠ جنيه في السنة . غير ضرائب الجمارك وعوائد الروحيات وسائر المسكرات والمخدرات . وغير حق الرخص والاذن في معاطاة المهن على اختلاف أشكالها

٣ ــ العامة والعناية بهم

للعامة في انكلترا مشاكل من اعتصاب واضراب كما في فرنسا لكن للانكليز عناية خاصة بهم ولا سيما طبقات العمال والخدم . لعل ذلك من بقايا واجبات الارستوقراطية في العهد القديم . لان رب البلد (اللورد) كان يرى نفسه مسئولا عن حال اتباعه من حيث أسباب معائشهم . ولو تتبعت تاريخ وضع ضرائب الدخل المتقدم ذكرها لرأيتها تنوعت وتعدلت طبقاً لمصلحة العمال أو الفقراء من أصحاب التجارات الصغرى . كانت في أول وضعها شاملة كل أنكليزي مهما قلّ دخله . ثم أخذوا يعدلونها حتى أعفوا منها أصحاب الدخل القليل الذي لا يزيد على ١٦٠ جنيهاً . وخففوها عن الذين لا يزيد دخلهم على ٧٠٠ جنيه . وأبقوها على سائر الناس كما رأيت . ولا يخفى ان الاموال التي تجمع من الضرائب تنفق في مرافق الامة بلا تمييز بين الغني والفقير ــ او هي لمصلحة الفقير أكثر مما لمصلحة الغني . وهي عناية بالعامة كالزكاة في صدر الاسلام تؤخذ من الاغنياء وتنفق في الفقراء

والحكومة الانكليزية تعدُّ نفسها وصية على الفقراء من رعاياها فتضع القوانين لمصلحتهم وتجبرهم على اتباعها . أو هي تتولى تنفيذها عليهم ــ لعلها تتقي اعتصابهم أو اضرابهم . من ذلك قانون صدر في الصيف الماضي ونحن في انكلترا وضعته الحكومة لمنفعة الخدم وصغار المستخدمين أسمه (National Insurance act) في ١٤٠

صفحة كبيرة . مآله ضمانة مستقبل كل مستخدم في المملكة الانكليزية سنه بين ١٦ و٧٠ سنة يقلّ دخله السنوي عن ١٦٠ جنيهاً وكل عامل يشتغل بيده لحساب نفسه ولو زاد دخله على ١٦٠ جنيهاً في السنة . فتفرض على كل من هؤلاء أن يختزن من دخله مالاً يعينه في شيخوخته او مرضه ـ جعلت ذلك اجبارياً لا يرى العامل مفراً منه بوجه من الوجوه . وهو يشمل الممثلين في المراسح وأساتذة المدارس الصغرى والثانوية وكتاب المصارف والمتاجر وخدام المخازن وعمال المعامل وفيهم أصحاب العاهات البدنية وساقة المركبات والنوتية وغيرهم وكل عامل له رئيس يدفع له أجرة

وكيفية ذلك الضمان ان الحكومة طبعت أوراقاً كالسراكي أو الاستمارات في اصطلاحنا تفرقها في العمال . وعلى العامل أن يقدم واحدة منها كل اسبوع وعليها طوابع مختومة يشترك هو ورئيسه والحكومة في دفع قيمتها . وتختلف تلك القيمة باختلاف راتب العامل . فالرجل الذي تزيد اجرته على شلينين ونصف شلين في اليوم يدفع هو أربعة بنسات في الاسبوع ورئيسه يدفع ثلاثة بنسات والحكومة تدفع بنسين . الجملة تسعة بنسات (نحو ثلاثة قروش ونصف) تلصق بقيمتها طوابع على الاستمارة وتختم وتقدم للحكومة كل أسبوع . واذا كان العامل صاحب هذه الاجرة امرأة تعامل مثل معاملة الرجل الا ما تدفعه هي فيكون ثلاثة بنسات بدلاً من أربعة ويختلف مقدار المدفوع باختلاف درجة العامل ومقدار أجرته

والحكومة تحفظ للعامل ما يقدمه كل اسبوع وتختزنه لحسابه وقد تستثمره له فيضمن مستقبله رغم ارادته . ومعظم هذه الضمانة من رئيسه والحكومة وهي لا تضرها لكنها تنفع العامل المسكين . وفي ذلك القانون شروط واحكام تفصيلية لا محل لها . ولكنها بلا شك من أحسن ما استنبطته القرائح لمصلحة العمال وضمان مستقبلهم على نفقة الحكومة وأصحاب الاموال . فضلاً عما فيها من المشقة على أصحاب التجارات او المعامل . فان كل واحد منهم مكلف بالتوقيع على السراكي او الاستمارات بيده كل اسبوع وقد يكون عنده مئة عامل أو الف

أخلاق الانكليز

١ ـ الثبات والتعويل على الحقيقة

للانكليز أخلاق بارزة واضحة تختلف عما لسواهم من الامم يمكن تلخيصها

بكلمتين نعني (١) « انهم يجنحون في أعمالهم وشؤونهم الى الحقيقة المحسوسة دون الظواهر » (٢) « انهم ثابتون في مبادئهم وعاداتهم ومشاريعهم ». فاذا عرفت ذلك فيهم هان عليك تعليل أكثر ما يعرض لك من أخلاقهم. والانكليزي هادىء الخلق يندر ان تغلب عليه الحدة حتى تخرجه عن طور ارادته ولذلك تجدهم يحثون في أهم المسائل وأحرج المشاكل و يجادلون ويتناقشون بهدوء وسكينة. ويغلب في أدلتهم أن تبنى على العقل أكثر مما على العواطف. ويظهر لك الانكليزي جامداً وقد ترى في نفسك تفوقاً عليه بسرعة الخاطر لكنك عند العمل تجده اثبت منك قدماً وأصبر على التعب وأقدر على المشاريع الكبرى. وترى فيه سكوتاً وطول اناة في موقف يستفزُّ سواه ويهيج غضبه وليس ذلك من بلادة في طبعه وانما هو من قبيل ثباته في أعماله وتعويله على الحقائق فلا يكترث بالصغائر بل يجعل همه الغرض الذي يسعى اليه لا يبالي بما يقف في طريقه من العقبات ولا سيما اذا كانت تلك العقبات أموراً وهمية كالكلام في الصحف ونحوها اذا لم يكن مبنياً على حقائق محسوسة — فهو يهمه أن يصل حماره الى العباسية ولا يلتفت الى شقشقة المكاري في أثناء الطريق

٢ — الكبرياء والانانية

ومن الاخلاق المشهورة عن الانكليز أنهم متكبرون يترفعون عن مخالطة سواهم من الامم. وهي تهمة لا تخلو من الحقيقة. ان الانكليزي معجب بنفسه يفتخر بدولته وامته وينفرد عن سائر الامم فلا يزاوجهم او يخالطهم الا بما تقتضيه المصلحة التجارية أو السياسية. ولا عجب فاننا في عصر الانجلو سكسون كما كان العرب في ابان دولتهم والرومان قبلهم. ولكل أمة عصر اذا تفوقت فيه على سواها توهمت امتيازها الفطري عليهم بالجبلة الاصلية — وهي طبعاً لا تنال ذلك التفوق الا لمواهب فيها تمتاز بها عن سواها

ومما يوجه على الانكليز من الانتقاد انهم انانيون يحبون الاستئثار بالمنافع لانفسهم وهو خلق فطري في الانسان لا يختص بامة دون اخرى. لكنه يظهر في الانكليزي لانه لا يبالي ان يظهره ويتمسك به. ولا يهمه ما يسميه الآخرون اريحية أو نجدة ويعدونها من اسمى المناقب فهو لا يعرض نفسه للخسارة لمنفعة سواه كما يفعل الفرنساويون مثلاً او كما يفعل العرب ويعدونه من مفاخرهم. ولذلك كان العرب أسرع اختلاطاً بالفرنساويين مما بالانكليز

ومن مقتضيات الجنوح الى الحقائق ان الانكليزي صريح في اقواله واعماله لا يقول غير ما يعتقده ولو ساءك قوله . فيظهر ذلك منه مظهر الجفاء . ولكنه يعدّ المجاملة ضرباً من العبث فلا يزال يجتنبك حتى يتعرفك ويثق بك فيمد لك يده ويصافحك ويكون عند ذلك من اخلص الاصدقاء واظرف الجلساء .

٣ ــ التربية الادبية والعقلية

ومن مقتضيات ذلك الخلق ايضاً ما تراه من ثبات الانكليز في افضل وسائل التربية البدنية والعقلية ولا سيما الرياضة وهم قدوة الامم فيها . وقد الف ديمولان الكاتب الفرنساوي كتابه عن سر تقدم الانكليز ليحرض قومه على الاقتداء بهم في التربية والاخلاق والتعليم وغير ذلك . واختص غوستاف لوبون اخلاق الانكليز بالاطراء في كتابه « العوامل الاخلاقية في تكون الامم » فالانكليزي رأى بعين الحقيقة أن هذا الضرب من التربية مفيد له فاتبعه ووضع له قواعد اساسها الفائدة الحقيقية بلا زخرف ولا تمويه . وزادهم ثباتاً فيها انهم فطروا على احترام آراء رجال التاريخ واصحاب المواهب منهم والعمل بها بلا جدال او نقد ــ لعله من بقايا خضوعهم للشرفاء في عصر الاقطاع . ولهذه المنقبة فضل كبير في جمع كلمتهم وتأييد مساعيهم لان الامة اذا عملت برأي عقلائها كانت كلها عقلاء . بخلاف الامم التي يزعم كل من افرادها انه صاحب الرأي الاصوب والنفوذ الاعلى ويرى الانصياع لرأي سواه صغاراً ومذلة كما هو شأن الامم الضعيفة التي صارت الى الشيخوخة وآذن الزمان بفساد امورها وانقضائها

٤ ــ الصدق والوفاء

المشهور ان الانكليزي على الاجمال بطيء الخاطر غير مفرط الذكاء . لكنه ناجح على الغالب في اعماله ومشاريعه فما هي علة نجاحه ؟ العلة الحقيقية انهم يعملون بالقواعد التي قررعقلاؤهم انها وسيلة النجاح وقد رسخت في اذهانهم بالتربية للاسباب التي قدمناها . وهي تعلمهم ان التاجر او الصانع يجب أن يعول في اعماله على الحقائق مع المنفعة المتبادلة . فجعلوا معولهم على الصدق والامانة والثبات وهي أهم اسباب نجاحهم في اعمالهم الكبرى والصغرى . وقد اشتهر ذلك عنهم حتى جرى مجرى الامثال . والمشهور بين تجار الارض ان الانكليزي اذا سألته عن سعر بضاعته اعطاك آخر سعر يوافقه ولا يفتح باباً للاخذ والرد أو المساومة كما تفعل سائر الامم

٥ ـ المحافظة على التقاليد

قد رأيت الامة الانكليزية لا تزال حتى الآن محافظة على الارستوقراطية رغم اعراقها في الدستورية ـ حتى الدستورعندها لا يزال محفوظاً بالتقليد أي انهم لم يدونوا قواعده وشروطه بما يسميه العثمانيون القانون الاساسي أو نحوه . وانما يجرون فيه على التقاليد الماضية فيحكمون في شؤونه بالقياس على احكام سابقة أصدرها اسلافهم مع مراعاة مقتضيات الاحوال واذا عرضت مسألة لم يسبق الحكم فيها حكموا فيها وعدوا حكمهم سابقة لمن يأتي بعدهم

فالانكليز من اكثر الامم محافظة على التقاليد المتوارثة . وذلك من قبيل الثبات في اخلاقهم . ولهذا السبب كانوا من اشد الناس احتراماً لرجال التاريخ منهم ينصبون لهم التماثيل ويعملون باقوالهم . ولنفس هذا السبب جروا في استعمارهم على احترام تقاليد الامم التي تدخل في سلطانهم او حمايتهم . فلا يتعرضون لهم في شيء من اديانهم أو عاداتهم . بل يساعدونهم على القيام بشعائرهم الدينية او الوطنية . ولذلك كان الشرقيون اكثر ارتياحاً الى سيادتهم مما الى سواها لولا ترفعهم وبعدهم عن المجاملة

٦ ـ التدين والنظام

ومن قبيل الثبات والمحافظة على التقاليد أنهم متمسكون بعقائدهم الدينية . ورغم تطرف اكثر الامم من جيرانهم وزملائهم في الحرية الدينية حتى جاهروا بمناوأة رجال الكهنوت ومطاردة الجمعيات الدينية فالانكليز ما زالوا متمسكين باهداب الدين يحافظون على طقوسه وتعاليمه ولا سيما الراحة يوم الاحد فقد ذكرنا في الهلال الماضي كيف يقفلون الحوانيت والمخازن وغيرها في ايام الآحاد والاعياد

ومن هذا القبيل ايضاً خضوعهم للنظام وتقديسه والرضوخ له باحترام وافتخار لا يستنكف من ذلك كبيرهم ولا صغيرهم . ولا يرى الملك بأساً ان يعترف بالخطأ بين يدي اصغر رعاياه ولا يعد ذلك حطة . وانما هو من نتاج جنوحهم الى الحقيقة واحترامهم اياها . وتجد كتبهم المدرسية مشحونة بالحكايات التي تعلم هذه المنقبة وامثالها من الصراحة بالقول والاعتراف بالخطأ . غير القدوة الحسنة التي يستفيدها التلاميذ من اساتذتهم او والديهم او كبارهم في هذا السبيل

٧ ـ الشعور بالواجب

ان الشعور بالواجب عام في الممالك الراقية لكنه ظاهر كل الظهور في اخلاق

الانكليز . فالانكليزي يعرف ما عليه من حق أدبي أو مادي فيؤديه في حينه بلا مطالبة او استحثاث . يفعل ذلك بهدوء وسكينة . لانهُ من أكثر الناس عملاً واقلهم كلاماً . فاذا وعدك بزيارة كن على ثقة انه منجز وعده . واذا كلفته بخدمة فمن التأدب عندهم ان لا يؤكد لك نجاحه فيها وانما يقول « اني سأجرب » فاذا قال هذا قائل منهم عدوا قوله وعداً اكيداً . وهكذا اذا عزم أحدهم على تكليف آخر بخدمة او مطالبته بحق له أو وعد يتوقعه فانه يجمل طلبه بصورة الاستفهام أو الشك فيقول مثلاً « ماذا تظن لو فعلتَ كذا » فيجيبه « اظنني فعلاً كذا » فيعد ذلك وعداً لا بدَّ من قضائه . وهذه التعابير تكون غالباً في الطبقة الراقية من القوم

٨ — المرأة الانكليزية

المرأة في انكلترا تشبه سائر نساء اوربا في أكثر الاحوال الاجتماعية والادبية لكنها تفرق عنهن بما يقتضيه الخلق الانكليزي أو التربية الانكليزية من بعض الوجوه. فهي أميل الى الحقائق في آدابها وعاداتها وازيائها . ويمتاز الزي الانكليزي غالباً بالبساطة لانهم يلاحظون فيه المنفعة الحقيقية – شأنهم في كل شيء .واذا رأيت انكليزية بثوب مزخرف فانها تقلد به غير الانكليز

ومن هذا القبيل انصرافها الى الرياضة البدنية بالالعاب المشهورة عندهم حتى لعب السيف وركوب الخيل . ولذلك كانت الانكليزية صحيحة البنية نشيطة الحركة ممشوقة القوام مشرقة الوجه قوية الارادة .وقد أخذت تتشبه بالرجال وتجاريهم في أعمالهم . وتطرفت طائفة من المتهوسات حتى طلبن حق التصويت في مجلس النواب وبالغن في ذلك وخرجن به عن طورهن الذي خلقن له واستخدمن العنف في مطالبهن . ولا نظنهن الا راجعات الى الصواب . وحكمنا على المرأة الانكليزية من هذا الوجه مثل حكمنا على المرأة الفرنساوية عند كلامنا عن أخلاق الفرنساويين :

« ان المرأة خلقت لتهتم بشؤون بيتها وعائلتها فاذا تحولت عن ذلك الى أعمال الرجال خرجت عن طبيعتها »

على ان المرأة الانكليزية في أصل فطرتها كثيرة الخضوع لرجلها تستهلك في سبيل راحته وراحة سائر العائلة مهما كلفها ذلك . لكنها وهي عذراء تتمتع بما يتمتع به الشاب من الحرية الشخصية في ذهابها وايابها وقيامها وقعودها . فاذا تزوجت انقطعت الى بيتها ولم يعد يهمها سواه مع احترام زوجها ومعرفة حقه

٨ ــ طريقتهم في الاستعمار

وترى الخلق الانكليزي الاساسي ــ نعني التعويل على الحقيقة مع الثبات ــ ظاهراً في طرقهم السياسية كالاستعمار مثلاً فان لهم فيه طريقة تخالف طرق سائر المستعمرين • فهم ينظرون من وراء الاستعمار الى الفائدة الحقيقية لا يهمهم زخرف السيادة وأبهة الدولة والتفاخر بسمة السلطة بقدر ما تهمهم المصلحة الحقيقية في الاستعمار • وقد وجدوا بعين العقل ان المصلحة الحقيقية من الفتح او الاحتلال انما هي المرافق الاقتصادية او المالية فيوجهون سعيهم اليها • ولا يهمهم بعدها أن تكون لهم سيادة ان لم يكن الغرض منها المنفعة الاقتصادية • ومن ثباتهم وطول اناتهم صبرهم على استثمار مطامعهم الاستعمارية اعواماً متطاولة ترسخ في أثنائها أقدامهم أو تسنح لهم فرص يغتنمونها ويؤيدون بها حقوقهم

ولهذا السبب رأيتهم لا يتعجلون وضع الحماية اواعلان السيادة بل بعكس ذلك يتساهلون مع مستعمراتهم في الاستقلال الاداري حتى لا يبقى فرق يذكر بينه وبين الاستقلال الحقيقي . ويهمهم من البلد الداخل في حيازتهم او تحت نفوذهم أن تكون مصالحهم المادية رائجة فيه ــ ولا يبالون ان يجيئهم ذلك بطريق الاحتلال أو الحماية او الاستعمار . وعلى هذا المبدأ حلوا قيود اوستراليا وكندا والترانسفال وغيرها . ولا نرى مانعاً من أن يفعلوا ذلك في الهند وغيرها اذا تحققوا ضمان مصالحهم الاقتصادية وبقاء علائقهم الودية وأن تكون لهم الافضلية من الحيثيات الاخرى

فالسطوة التي بلغت اليها الامة الانكليزية في هذا العصر تتوقف على أخلاقهم أكثر مما على ذكائهم . ان الاخلاق التي ذكرنا أمثلة منها جعلت أربعين مليون انكليزي يحكمون نحو ٣٥٠ مليون نفس من امم شتى في القارات الخمس . وفيهم القوقاسي والمغولي والهندي والزنجي وغيرهم من طبقات الناس يتكلمون عشرات من اللغات المختلفة . ان الانكليز استطاعوا ذلك باخلاقهم المتينة واساسها الثبات والتعويل على الحقيقة . والا فان بين الامم الداخلة في سلطانهم شعوباً لا يقلون عنهم ذكاء ويفوقونهم في كثير من المواهب العقلية . وانما تنقصهم الاخلاق اللازمة للتغلب او الاستقلال

١٠ ــ المدنية الحديثة ومدنية العرب

فالانكليز من أوضح الامثلة للاخلاق الملائمة لروح هذه المدنية ــ وان كانت

لا تلائم المدنيات الاخرى . اذ لكل مدنية قواعد تبني عليها دعائمها ولا تصلح الا بها . فمدنية العرب أساسها مناقب العرب في صدر الاسلام أهمها الاريحية والنجدة والجوار والوفاء والحلم وسعة الصدر وكرم الخلق ونحوها مما لا يلائم المدنية الحديثة . كان الخليفة او الامير يعفو أحياناً عن القاتل لاعتبار قام بنفسه من قول سمعه أو فكر خطر له ويعدُّ ذلك أريحية . وكان القوم يتواصون بالعفو عند المقدرة والاخذ باسباب الكرم يقيمون بيوت الضيافة ينزل فيها الاضياف أشهراً لا يسألهم أحد من هم . وكان لهم ضرب من الارتزاق بالسخاء من الخليفة فمن حوله وأتباعهم وحواشيهم وأعوانهم يقيم في بيت الامير او العامل عشرات اومئات من الناس يأكلون ويشربون ويلبسون ولا عمل لهم وقس على ذلك مما فصلناه في تاريخ التمدن الاسلامي . فهذه المناقب بعيدة عن مقتضيات المدنية الحديثة التي أساسها مبادلة الحقوق والواجبات لا حلم ولا عفو ولا أريحية ولا نجدة . وانما ينال المرء من الرزق أو المنصب على قدر سعيه ومواهبه بمقتضى القواعد الاقتصادية والاعتبارات السياسية . فلا يرتقي في هذا السلك غير العارف باحكام السياسة الذي ينظر الى حقائق الاشياء بالنظر الى مصلحة الامة ويحافظ على العدالة وشروطها لا ينفق قرشاً الا في طريقه . وغير ذلك من المناقب الشائعة في أوربا لهذا العهد ـ ولكل أيام دولة ورجال

الشجاعة في الحرب[1]

الشجاعة شدة القلب وقوة النفس عند اليأس وهي ضرب من الصبر . وقالوا هي هيأة للقوة الغضبية متوسطة بين التهور الذي هو الافراط والجبن الذي هو التفريط . وأساسها الضمير وقوة الارادة . فالرجل القوي الارادة اذا اقتنع بامر تمسك به واذا رأى الصواب في قتال ثبت فيه او في قول جاهر به . ومن دله ضميره على عمل واجب ولم يعمله فهو جبان . ولذلك عرّف الشجاعة بعضهم بقوله « تظهر الشجاعة بان لا تعمل في الخفاء الا ما يمكننا عمله أمام كل الناس » لان الضمير عندهم خير

---

(١) عن الهلال سنة ٢٠ صحيفة ٢٠٩

الشاهدين . وقال كونفوشيوس « من رأى الحق ولم يأخذ جانبه فهو جبان » وقالت العرب « الشجاعة عماد الفضائل ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة » وقال شيشرون « من يعدّ الالم أعظم مصائب الحياة لا يقدر ان يكون شجاعاً . ومن يعدّ الملذات أعلى مطالب الدنيا لا يقدر أن يكون معتدلاً »

ويشترط في الشجاعة أن تستعمل معها الروية وصدق النظر وقياس الاسباب والنتائج لئلا يقدم صاحبها على عمل ثم يرى خطأه فيفشل . وانما يجب عليه أن يتدبر الامر فاذا تحقق وجه الصواب أقدم عليه وصبر الى النهاية . ومن أكبر اسباب الشجاعة « الحب » فان الشجاع يكون أثبت في حربه وجهاده اذا كان جهاده من أجل شيء يحبه ويغار عليه . وقد يكون ذلك الشيء شخصاً أو وطناً أو رأياً أو مبدأً أو غير ذلك . فالشجاعة بهذا الاعتبار ضروب كثيرة ترجع الى ضربين : الشجاعة في ساحة الوغى دفاعاً عن دين أو وطن أو غرض وهي الشجاعة البدنية . والجرأة في الرأي أو الشجاعة في الدفاع عن رأي أو مبدإ أو علم وهي الجرأة الادبية او الشجاعة الادبية

الشجاعة في الحرب

هي الصبر في حومة الوغى بثبات جأش وصدق عزيمة . وهي عند رجال الحرب ثلاث مراتب : الاولى اذا التقى الجمعان وتزاحف العسكران وتكالحت الاحداق برز من الصف الى وسط المعترك من ينادي هل من مبارز . والثانية اذا نشب القوم واختلطوا ولم يدر أحدهم من أين يأتيه الموت فيكون رابط الجأش ساكن القلب حاضر اللب لا يخالطه الدهش ولا تأخذه الحيرة فيتقلب تقلب المالك لاموره القائم على نفسه . والثالثة اذا انهزم أصحابه فيلزم الساقة ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم ويقوي قلوب أصحابه

ولكننا نرى فوق هذه المراتب مرتبة رابعة هي تضحية النفس عن اختيار في سبيل ما يدافع عنه . فان أصحاب المراتب الثلاث المتقدم ذكرها لا يخلو أحدهم من أمل في البقاء ولو كان في أشد الضيق أو الخطر . وأما المرتبة الرابعة فهي ان يقال لصاحبها « الق نفسك في هذه النار لانقاذ وطنك او في الثبات على رأيك » فاذا صدق والقى نفسه فقد بلغ ارقى مراتب الشجاعة . وسنقصر بحثنا هنا على أصحاب هذه

المرتبة من الشجعان . وهؤلاء اما ان يقتلوا ذلك في سبيل الدين او الوطن أو الشرف الشخصي

١ — الاستهلاك في الدفاع عن الدين

النعرة الدينية من أشد النعرات تأثيراً في نفوس الناس فهم يغضبون لدينهم أكثر مما يغضبون لاي شيء آخر من المصالح المشتركة . والذين استهلكوا في سبيل نشر الدين او الدفاع عنه كثيرون لما يتوقعونه من الاجر على صبرهم وعذابهم . والحروب الدينية كثيرة واخبارها طويلة لا حاجة بنا الى ذكرها . وأكثر الشهداء في سبيل الدين يدخلون في باب الجرأة الادبية لثباتهم في رأيهم وسنعود اليهم . وانما نكتفي هنا بالاشارة الى جان دارك لانها ضحت بنفسها في سبيل الوطن بدعوة دينية وتاريخها مشهور . وقد فعلت ما لم يفعله الرجال في حرب فرنسا وانكلترا بأوائل القرن الخامس عشر . فدافعت عن فرنسا دفاعاً لم يسمع بمثله وعرضت نفسها للقتل مراراً بارشاد هاتف كان يدعوها الى ذلك . ولما قبض الانكليز عليها وحاكموها كانت تجيب بشجاعة وثبات عزيمة . وقد قتلوها حرقاً وهي رابطة الجأش لا تبالي ولا تخاف . وآخر كلمة سمعوها منها « يسوع »

ويشبه ذلك او هو أدل منه على الشجاعة الحقيقية ما فعلته الخنساء مع اولادها في حرب القادسية وهي يومئذ عجوز ولها اربعة اولاد حرضتهم على الثبات في القتال. فلما حمي الوطيس تقدموا واحداً واحداً ينشدون الرجز يذكرون فيه وصية والدتهم حتى قتلوا عن آخرهم . فلما بلغها الخبر قالت « احمد الله الذي شرفني بقتلهم »

٢ — الاستهلاك في الدفاع عن الوطن

*

*

ثبات الامم[1]

في الدفاع عن اوطانها

ان ما ابداه أهل طرابلس الغرب من التفاني في الدفاع عن وطنهم على اثر حمل الايطاليان عليهم بجيوشهم وأساطيلهم – دفاعاً لم يكن يرجى ممن في مثل حالهم – بعثنا على كتابة مقالة في أشهر ماجرى من هذا القبيل في التاريخ على سبيل العبرة والموعظة:

تتفاوت الامم في الدفاع عن الوطن بنسبة ما فطروا عليه من التمسك بالاستقلال أو ما نشأوا عليه من العادات او ما يحيط بهم من الاحوال والمؤثرات . وفي التاريخ حوادث كثيرة تدل على أن الوطن عزيز على أهله وان الاستقلال اشهى ما تتطلبه النفوس الابية . فلا غرو اذا رأينا امماً تتفانى في الاحتفاظ به وتفضل الفناء في سبيله على الحياة بدونه . والشواهد على ذلك تتصل باقدم أزمنة التاريخ

ان أطول حصار ذكره التاريخ القديم حصار ازوت أمام جند بسامتيك العظيم فانه دام نحو ٢٩ سنة . يليه في الطول حصار طراوده سنة ١١٨٤ ق م . واستمر ١٠ سنين . وقد وصفه هوميروس صاحب الالياذة . وقس على ذلك حصار كثير من مدن التاريخ القديم كحصار مدينة صور سنة ٥٧٢ و ٣٣٢ ق م ٠ وحصار سراقوسه سنة ٤١٤ ق م و ٢١٢ ب م ٠ وحصار ساجنتم سنة ٩١٢ ق م ٠ وحصار أورشليم سنة ٥٩٠ ق م و ٧٠ ب م ٠ وقد ثبت الاورشليميون في هذا الحصار الاخير ثباتاً

(١) عن الهلال سنة ٢٠ صفحة ١٣٦

يذكره لهم التاريخ مع الاعجاب والثناء · وقد فصله يوسيفوس تفصيلاً حسناً وذكره سواه

حصار اورشليم

وخلاصة ذلك ان طيطس امبراطور الرومانيين حمل على اورشليم سنة ٧٠ يريد فتحها · فامتنع أهلها فحاصرها بجند يزيد عدده على ٣٠٠٠٠ مقاتل . وكانت اورشليم يومئذ في ابان مناعتها يحيط بها ثلاثة أسوار الواحد داخل الآخر . وكان جند طيطس أربع فرق أقام ثلاثاً منها في شمالي المدينة على مسافة ميل من السور الخارجي وفرقة أقامها في شرقها عند جبل الزيتون · ومع جند الرومان العدة والسلاح وآلات الهدم وهي يومئذ الكباش والمجانيق والدبابات . وكان بين معسكر طيطس في الشمال وسور المدينة الخارجي أرض عامرة فاخربوا ابنيتها واقتلعوا اشجارها ليسهل على الجند الزاحف المرور فيها بعدّته ومهماته ـ قضوا في ذلك ٤ ايام ثم زحفوا من الشمال وعسكروا في مكان يشرف على زاوية السور الخارجي وبنوا لاتقسهم ابراجاً نصبوا فيها مجانيقهم وألحوا على الاسوار بالقنابل (الحجرية)

وكان الاورشليميون يرون في الدفاع عن مدينتهم دفاعاً عن وطنهم ودينهم وكتابهم فثبتوا جهد طاقتهم . ولكن اسلحة الرومانيين كانت اقوى من اسلحتهم وفيها الكباش وهي كالمركبة الكبيرة تجري نحو الاسوار على عجلاتها وفيها الرجالة يحميهم اخوانهم بالدفاع عنهم من فوق . حتى يصل الكبش الى قرب السور فيأخذون في نقبه برأس الكبش لا يبالون بما يرمى عليهم من النبال أو غيرها

فتمكن الرومانيون بذلك من فتح ثغرة في السور الخارجي · وكانت الفرقة الشرقية على جبل الزيتون ترمي اليهود بالمجانيق تصوبها نحو الهيكل وترسل عليه النفط المشتعل . فخاف اليهود على هيكلهم واجابوهم باطلاق القنابل من مجانيق كانوا قد غنموها من حروب ماضية . ثم علموا باتثلام السور الشمالي فيئسوا من الدفاع عنه فتقهقروا . فلحق الرومانيون بهم وبنوا الابراج لحصار السور الثاني . وهم في اثناء ذلك يطلبون اليهم التسليم وحجب الدماء والاورشليميون يرفضون

لكنهم عمدوا الى حيلة عسكرية اتعبوا بها الرومانيين ـ وذلك انهم اسقطوا تلك الابراج باحتفار سرداب دهليز تحت الارض من داخل السور الى اسفل معسكر الرومانيين . فسقطت الابراج وخسر الرومانيون بذلك خسارة عظيمة ولم يستطيعوا

ترميم تلك الابراج الا في بضعة ايام . ثم ألحّوا في الحصار وأكثروا من رمي القنابل على اورشليم وأهلها حتى اضطر قائدهم سمعان للانسحاب الى داخل السور الثالث . وهو آخر ملجأ لهم لانه يحيط بالمدينة والهيكل وفيه كل الذخائر المقدسة عندهم

وجمع الرومانيون هناك كل قواتهم وعادوا الى مخابرة اليهود بالصلح فابوا وعمدوا الى حفر سراديب أخرى هدموا بها كثيراً من حصون أعدائهم . فعاد الرومانيون الى تشييدها وازدادوا نقمة وغيظاً وشددوا الحصار . وما زالوا يلحون بالمجانيق والكباش حتى اخترقوا السور الثالث . وقد لعبت النار في الهيكل فاحترق معظمه . ولم يسلم منه الا قدس الاقداس لمتانة حجارته فلم تؤثر النار فيه الا قليلاً . والاورشليميون لا يزالون يجاهدون في الدفاع . فاغتنم طيطس ضعفهم وتضعضعهم وطلب اليهم التسليم بشروط وضعها لهم فلم يقبلوها . فعاد وألحّ في الهدم والاحراق مما يطول تفصيله . وأخيراً دخل المدينة عنوة وأمعن في اهلها قتلاً وسبياً . قالوا انه قتل العجائز والاعلاء وباع الاطفال بيع الارقاء واستعبد الباقين . غير الذين هجروا تلك المدينة وتفرقوا في اطراف العالم

وقس على ذلك ما أتاه البوير في الترانسفال منذ بضع عشرة سنة في محاربتهم انكلترا فانهم وهم شرذمة قليلة شاغلوا سيدة البحار أكثر من سنتين فأنفقت في سبيل اذلالهم نيفاً ومئتي مليون جنيه وألوفاً من الجند . نعم ان البوريين خرجوا من تلك الحرب مغلوبين لكن الناس لا يزالون يحدثون بشجاعتهم وثباتهم ويعجبون بصدق وطنيتهم وقد سجل التاريخ ذلك لهم

واعتبر ايضاً ثبات غوردون باشا ورجاله في الخرطوم لما حاصرها محمد احمد المهدي السوداني فانهم ذاقوا الجوع والمرض حتى اكلوا جذور الذرة والعظام والجلود وظلوا ثابتين حتى قتلوا بالسيف بعد دخول المهدي عنوة سنة ١٨٨٥

بطل سنكات

ومن امثلة الثبات في الدفاع عن الاستقلال والمحافظة على الواجبات العسكرية دفاع توفيق بك محافظ سواكن في اثناء الحوادث السودانية . وذلك انه كان مكلفاً بخفارة الطريق بين سواكن وكسلا في السودان الشرقي فاستخدم لذلك شيخاً من

الاعراب اسمه محمد الامين ليتفق مع العربان في حماية الطريق. فاساء محمد الامين التصرف مع العربان فغضبوا وكرهوه فطلبوا الى المحافظ توفيق بك أن يبدله بسواه فأبى فغضبوا ونفروا من الحكومة وهم كثار. واتفق في اثناء ذلك مجيء عثمان دقنة أحد امراء المهدي بمنشور منه يدعو الناس الى بيعته. فبايعوه فاشتد ازره فسار بهم لمناوأة الحكومة في سواكن وضواحيها فضايقوها والحكومة ترسل الجند لمقاومتهم عبثاً. وقد حاصروا سنكات وطوكر فضاق اهلها ذرعاً وجاعوا. فبعثوا الى الحكومة يطلبون المدد. فاعدت الحكومة سنة ١٨٨٤ حملة بقيادة باكر باشاسارت الى سواكن لفتح الطريق بينها وبين بربر فلقيها الدراويش وغلبوها فعادت بخفي حنين. وكان توفيق بك محافظ سواكن قد سار الى سنكات عرضاً ودخل في جملة المحاصرين. وكان شهماً باسلاً فاظهر في حصاره ثباتاً لم يعهد الا في القليلين من الناس

وسنكات قرية لا تزيد حاميتها على ستين رجلاً وقد ضيق عثمان دقنه السبل عليها وقطع المؤن عنها حتى كاد اهلها يهلكون جوعاً. فكتب عثمان الى توفيق ان يسلم فلا يقتله فابى الا البقاء على ولاء الحكومة. فلما جاء باكر باشا وعاد خائباً بعث عثمان اليه ثانياً ان يسلم فيسلم وان الامل بانقاذه قد انقطع فلم يجبه الا بالثبات. ولما رأى توفيق بك أخيراً ان المؤن نفدت والجند جاعت وأهل البلد ملت جمع اليه رجاله وأهل سنكات وشاورهم في الامر وحثهم على الثبات في ولاء الحكومة. فقالوا نحن على ما تريد فقال « قد نفد زادنا والطريق مقطوع بيننا وبين المدد فلنخرج مستقتلين فاما أن نسير الى سواكن واما ان يلاقينا العصاة فندافع عن انفسنا حتى الموت »

فخرجوا في أوائل فبراير سنة ١٨٨٤ بعد ان هدموا الطوابي وأخربوا المنازل وما ساروا ميلين حتى لاقاهم عثمان دقنة برجاله وهاجموهم فقاتل توفيق بك حتى قتل شهيد الامانة والبسالة ولم ينج من رجاله وأهل القرية الا نفر قليلون

تفاني القرطاجيين في الدفاع عن وطنهم

على ان ما تقدم ذكره لا يعد كثيراً بالنظر الى ثبات القرطاجيين أهل قرطاجة بجوار طرابلس الغرب منذ الفي سنة في حربهم مع الرومانيين المعروفة بالحرب البونية أو الفونية وبطلها هنيبال القائد القرطاجي أشهر من أن يذكر. وقد فصلنا تاريخها

في الهلال السادس من السنة التاسعة . وانما أردنا هنا الاشارة الى ما أدهش العالم من ثبات القرطاجيين في الدفاع عن وطنهم مما لم يسبق له مثيل . وهم اسلاف الطرابلسيين الذين يحاربون الايطاليين مع الجند العثماني اليوم دفاعاً عن حقوق الدولة العثمانية . أما حديث القرطاجيين فاليك خلاصته :

فاز القرطاجيون اولاً في حربهم مع الرومانيين حتى اخترقوا اوربا وقطعوا جبال الالب وحاصروا رومية وأوشكوا أن يفتحوها ثم عادت العائدة عليهم . وبعد حوادث كثيرة حمل عليهم الرومانيون في بلادهم وحاصروهم في مدينتهم « قرطاجة » (بقرب تونس) وقد انهكت الحروب قواهم وهلك قوادهم واكثر رجالهم . وكان الرومانيون يتوقعون منهم التسليم حالاً بلا مراجعة - كما كان الايطاليان يتوقعون من الطرابلسيين العثمانيين بالامس . فلما وصل الرومانيون الى قرطاجة أمروا اهلها أن يسلموا اسلحتهم وهم يعرفون عجزهم عن الرفض . فسلموا السلاح وهم يحسبون هذا كل ما يطلب منهم . ثم ابلغهم قائد تلك الحملة ان مجلس الشيوخ الروماني يأمرهم أن يهجروا مدينتهم ويبنوا مدينة اخرى بلا حصون ولا اسوار وان تدك قرطاجة الى اساسها . فعظم ذلك على القرطاجيين ولطموا وجوههم وشقوا جيوبهم وتمرغوا بالتراب وتضرعوا الى آلهتهم ولعنوا الرومان على قساوتهم . فلما فرغوا من النحيب عادت اليهم شجاعتهم وعزموا على الدفاع الى آخر نسمة من حياتهم حتى يموتوا تحت أسوار مدينتهم

افرغ القرطاجيون ما في وسعهم لتحصين مدينتهم فجعلوا الهيا كل حصوناً وهدموا الابنية العمومية واستخرجوا أخشابها ومعادنها وقضوا الليل والنهار نساء ورجالاً في اصطناع الاسلحة منها . وقطع النساء شعورهن وجدلنه اوتاراً للاقواس وأمراساً للمجانيق . ولم يمض قليل حتى تسلح القرطاجيون باحسن الاسلحة

وكان الرومانيون في اتيكا فزحفوا الى قرطاجة وهاجموها وهم يحسبونها لا تستطيع دفاعاً . فاذا هي محصنة بالابراج والمجانيق والرجال مما لا يسهل التغلب عليه فحاصروها سنتين والقرطاجيون ثابتون ثبوت الجبال

وفي السنة الثالثة تولى قيادة الجند الروماني هناك قائد اسمه شيبيو اميليانوس فادنى معسكره من المدينة حتى اصبح على مرمى قوس من اسوارها وقطع ما بينها وبين البر ولم يبق للقرطاجيين سبيل الى الاقوات الا بالبحر . فعمد شيبيو الى قطعه

بسد البوغاز بمرفأ من الحجارة الضخمة · وحاول القرطاجيون في أثناء بناء المرفأ أن يمنعوا الرومانيين من بنائه بسفن ارسلوها لمحاربتهم فلم تصل في الوقت المناسب ولم تأت بفائدة · فازداد الحصار ضيقاً وهجم الرومانيون من جهة المرفأ فظنهم القرطاجيون هاجمين على المدينة من تلك الجهة فاحرقوا أخشاباً كانت هناك · ولكن الرومانيين تحولوا الى الجهة المقابلة وهاجموا المدينة والقرطاجيون مشتغلون في الجهة الاخرى · فدخل الرومانيون المدينة واحتلوا اسواقها فالتجأ أهلها إلى القلعة فتبعهم الرومانيون والنبال تتساقط عليهم من سطوح المنازل · واشتبك القتال في وسط المدينة بالسهام والحراب · فامتلأت الطرق بالقتلى ودوى الجو بانين الجرحى وبكاء الاطفال وعويل النساء وصياح الرومانيين · حتى اذا وصلوا الى القلعة أمر شيبيو باحراق المدينة ففعلوا فتصاعد اللهب وخرج جماهير الشيوخ والاطفال والنساء والعجزة من منازلهم فراراً من الحريق ولكن كيف يفرون وهم بين النار والسيف

وظلت النيران متقدة ستة ايام متوالية وفي اليوم السابع بعث القرطاجيون المحاصرون في القلعة الى جند الرومان يعرضون التسليم على شرط استبقائهم في قيد الحياة . فاجابهم شيبيو انه يستبقي الجميع الا الهاربين وكان عددهم تسعمائة التجأوا الى هيكل اسكولابيوس بقيادة حسدروبال . وكان الهيكل على أكمة منيعة فما زالوا محاصرين فيه حتى غلب عليهم التعب والجوع . فخرج حسدروبال خلسة وغدراً وسلم نفسه الى شيبيو فاجلسه هذا عند قدميه والقرطاجيون ينظرون اليه من أعلى الهيكل ويلعنونه ويعيرونه بالجبن والخيانة . ولما يئسوا من النجاة احرقوا الهيكل والقوا انفسهم في نيرانه ولسان حالهم يقول النار ولا العار

ويقال ان امرأة حسدروبال جاءته بعد تسليمه ومعها طفلاه وهو جالس عند قدمي شيبيو وخاطبت شيبيو قائلة « ويل لكم ايها الرومانيون اهلكتمونا وانتم لا تخافون الآلهة ولكن آلهة قرطاجنة ستجازي حسدروبال هذا لانه خانني وخان أولاده وآلهته » ثم تحولت الى حسدروبال وقالت له « ويل لك ايها الخائن الشقي انك اجبن الناس . ومتى رأيت هذه النيران تحرقني وتحرق ولديك هذين ما يكون عذرك يا قائد القرطاجيين وما الذي يحميك من نقمة هذا .. الذي انت جالس عند قدميه ؟ » قالت ذلك وهمت بالطفلين فقضمت حلقوميهما ورمت بهما الى النار والقت نفسها فوقهما

فعسى أن يكون في نفوس الطرابلسيين من صدق العزيمة والثبات في الدفاع عن الوطن ما كان في نفوس أسلافهم . وأن تكون نتيجة ذلك فوزهم في نصرة الدولة العثمانية واخراج الاعداء من بلادهم ان شاء الله فيخلد لهم التاريخ ذكراً لا تمحوه الايام

هل السوريون عرب

او ما هم[1]

فاضت صحف الاخبار بعد الدستور في السوريين هل هم عرب واختلفت الآراء في ذلك فكتب الينا غير واحد يسألوننا رأينا فيهم فنقول :

السوريون قبل الاسلام

ان السوريين ويراد بهم غالباً أهل الشام والعراق وما بين النهرين وفلسطين يصعب تعيين أصولهم لكثرة ما توالى عليهم من الدول قديماً وحديثاً . فقد كانت هذه البلاد في أقدم أزمنة التاريخ مأهولة بشعوب سامية تتقارب نسباً ولغة. أما قبل نزول الساميين فكانت مقاماً لامم لا يعرف أصلها وكان الساميون اقوى منهم فغلبوهم واستقروا فيها واخذ اولئك بالانقراض قبل الميلاد بعدة قرون. وهاك ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال الى الجنوب - الآراميون (السريان والكلدان) فالفينيقيون فالعبرانيون فالانباط . وخالطتهم امم شتى غير سامية أقامت بين اظهرهم في بقاع مختلفة من بلادهم غير بقايا الشعوب الاصلية مما يطول بيانه ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعاً وعاشت اديانهم وآدابهم وعاداتهم

على ان مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الامم القديمة كالحثيين والمصريين والاشوريين والفرس فكانوا يتناوبون فتحها او اكتساحها وتتقاطر شعوبهم اليها . ولكن الامر لم يستقم لدولة من الدول في سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء الاسكندر . فان هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع

---

(١) عن الهلال سنة ١٧ صحيفة ٤٢٥

قبل الميلاد واوغل فيها ثم صيرها خلفاؤه يونانية وتوافد اليها اليونان واقاموا فيها واختلطوا باهلها ولا سيما بعد ظهور النصرانية . وقد دخلت في سلطة الرومان ولكن العنصر اليوناني ما زال متغلباً عليها واكثر تغلبه على سواحل بحر الروم ويضعف شأنه في الداخلية تدريجاً

ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية محافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها ولا سيما اليهود فانهم مع ما أصابهم من الاضطهاد والسبي ظلوا من حيث الآداب والدين نحو ما كانوا عليه في أيام داود وسليمان الا ما أصاب لغتهم من التغيير في اثناء السبي ببابل فانها اختلطت بالسريانية والكلدانية وعرفت باللغة الآرامية او الكلدانية وبها كتبوا التلمود وانقسموا الى اليهود والسامريين . أما من بقي من الشعوب السامية ولا سيما الآراميون فتنصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم واكثرهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين وأعالي سوريا الى فلسطين

فكانت حدود الشام الغربية على سواحل بحر الروم يغلب فيها العنصر اليوناني . وحدودها الشرقية مما يلي البادية يغلب فيها العنصر العربي . وكان هناك من أوائل القرن الرابع قبل الميلاد امة عربية عرفت بالانباط أو النبط كان مقامهم وراء فلسطين شرقاً جنوبياً على انقاض الادوميين وهي دولة بطرا التي فصلنا اخبارها في كتابنا « العرب قبل الاسلام » فانهم اختلطوا باهل الشام وفلسطين اجيالاً متوالية . ولما ضعف شأنهم ظهر مكانهم على حدود الشام والعراق أجيال جديدة من العرب اتخذهم الفرس حلفاء يردون غارات اخوانهم أهل البادية او ينصرونهم في الحروب التي كانت تنتشب بين الدولتين قبيل الاسلام . فاقام حلفاء الروم في جهات حوران وهم الغساسنة وأقام حلفاء الفرس على شاطىء الفرات في الحيرة وهم المناذرة . فاذا انتشبت الحرب بين الروم والفرس تجند الغساسنة للروم والمناذرة للفرس ودافع كل منهما عن أصحابه . ولنحو هذا السبب أقام العرب على الحدود بين الفرس والروم في ما بين النهرين والعراق وفيهم بطون من اياد وربيعة

فسكان الشام والعراق عند ظهور الاسلام كان معظمهم من بقايا الآراميين الاصليين في الشمال والشرق . واليهود والسامريين في الجنوب وبقايا الانباط في الجنوب الشرقي يليهم العرب الغساسنة والمناذرة ثم قبائل أياد وربيعة بين النهرين . ويتخلل هذا المجموع شتات من امم اخرى كالجراجمة في جبل اللكام والجرامقة في الموصل واخلاط

من مولدي اليونان والرومان على الشواطىء ومولدي الفرس والاكراد في الشمال

السوريون بعد الاسلام

ولما رسخت قدم العرب في الشام والعراق اختلطوا باهلها وأقاموا في مدائنها ثم نزح اليها غيرهم طلباً للرزق ونزلوا الارياف . ولما قامت الدولة العباسية وعظم شأن الفرس وتولوا الاعمال في المملكة نزح جماعة منهم الى الشام والعراق . ثم تكاثر الجند التركي في الدولة فكثر تقاطر الاتراك وأقاموا فيهما وكانت الدولة تستعين في حربها برجال من الاكراد والديلم والارمن . وتزايد الاكراد على الخصوص في عهد الدولة الايوبية ثم تكاثر الاتراك والجركس في عهد الدولة السلجوقية والنورية والسلاطين المماليك . فلما تسلطت الدولة العثمانية اضيف اليهم جماعة من الانكشارية وهم اخلاط من امم شتى وجماعة الارناؤط وغيرهم ـ ناهيك بتقاطر الافرنج الى سوريا في أثناء الحروب الصليبية وما بعدها وفيهم الفرنساوي والانكليزي والالماني والايطالي وقد اجتاحوا الثغور والاراضي المقدسة وأقاموا ردحاً من الزمن في مملكة معززة الاركان بمن كان يأتيها من نصارى الافرنج وقد بقي منهم جماعة توطنوا وتناسلوا

وكانت المهاجرة متواصلة الى سوريا من جيرانها سكان شواطىء البحر المتوسط من الغرب وسكان البادية من الشرق ولا سيما اليونان وعرب حوران فان مهاجرتهم اليها لم تنقطع حتى الآن . وفي سوريا كثير من العائلات المسيحية ترجع بانسابها الى احدى هاتين الامتين

فالسوريون الان يقسمون من حيث أصولهم الى قسمين كبيرين المسلمين والمسيحيين . فلننظر في انساب كل منهما على حدة . أما اليهود فأنسابهم محفوظة قلما طرأ عليها تغيير

انساب المسلمين في سوريا : ان انساب مسلمي سوريا ترجع بالاكثر الى العرب لانهم أول من نزلها من أهل الاسلام بعد الفتح كما تقدم . وخالطهم بعد ذلك من جاءها من الامم الاسلامية كالترك والجركس والاكراد والفرس والديلم ونحوهم ومن اعتنق الاسلام من مسيحييها او يهودها او اليونان او غيرهم فمن حفظوا انسابهم العربية بيوت الخالدي والحسيني والمخزومي وغيرهم وفيهم بيوت يخالطها شيء من الدم الارامي او اليوناني او الاسرائيلي

انساب نصارى الشام

أما نصارى سوريا وهم المراد من البحث الذي فاضت به الصحف فقد كان معظمهم عند ظهور الاسلام من الاراميين والعرب واليونان كما رأيت . والاراميون هم سكان البلاد الاصليون وجاءهم اليونان بحراً من الغرب فنزلوا سواحل بحر الروم ودخل عليهم العرب براً من الشرق والجنوب واكثرهم من غسان في حوران وتغلب واياد والنمر في ما بين النهرين . وكانت هذه القبائل عند ظهور الاسلام تدين بالنصرانية لكن قبائل ما بين النهرين نصرت العرب بجامعة الجنس او اللغة لانها كانت ناقمة على الفرس فعرف العرب المسلمون لها فضلها في ذلك . فلما هموا بوضع الجزية على أهل الذمة بعد الفتح أبت قبائل تغلب واياد والنمر اداءها وبلغ عمر بن الخطاب ذلك فاستشار أصحابه فقال له بعضهم « انهم عرب يأنفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية فلا تعن عدوك عليك » فوافق ذلك ما في نفسه ففرض عليهم الصدقة كما تفرض على المسلمين ولكنه اشترط عليهم ان لا ينصروا أولادهم فآل ذلك طبعاً الى دخولهم في الاسلام . وكان عمر شديد المحافظة على الجامعة العربية لا يأذن للعرب النصارى في التوغل ببلاد الروم واذا فعلوا استرجعهم وخاطب ملك الروم بشأنهم لانه يرى ذلك حقاً له . ذكروا ان الوليد بن عقبة لما سار لفتح العراق والجزيرة انضم اليه عربها النصارى الا قبيلة اياد فانهم تحملوا الى بلاد الروم فكتب الوليد الى عمر بذلك فكتب عمر الى ملك الروم « بلغني أن حياً من احياء العرب ترك دارنا وأتى دارك فوالله لتخرجنه او لتخرجن النصارى اليك » فاخرجهم ملك الروم

فلم يبق على النصرانية من عرب الشام بعد الاسلام الا بقايا الغساسنة في حوران ونتف من اتباع المناذرة عرب العراق او من جاءهم من كندة ونحوها . فما كان في نصارى الشام من دم العرب والنسب العربي مرجعه بالاكثر الى الغساسنة . أما العرب الفاتحون الذين نزلوا الشام والعراق فكلهم مسلمون وندر فيهم من تنصر فلم تدخل انساب السوريين المسيحيين شيء من أنسابهم ولا دخلها شيء من انساب الامم الاسلامية التي نزلت الشام بعد العرب كالاتراك او الاكراد او الفرس او الجركس او غيرهم . ولكن خالطها كثير من انساب الامم النصرانية التي نزلت هناك كالارمن والروم والافرنج من زمن الصليبيين وما بعده لان هؤلاء كانوا اذا جاؤا

سوريا استقروا فيها وتناسلوا ونسيت أنسابهم وتكلموا العربية وتخلقوا باخلاق السوريين وعاداتهم وصاروا منهم

فانساب نصارى الشام الآن ترجع الى أنساب أصلية وهي الآرامية (السريان والكلدان) وأنساب دخيلة أقدمها واكثرها شيوعاً على سواحل البحر المتوسط اليونانية لان اليونان جاءوا سوريا واختلطوا باهلها من أقدم أزمنة التاريخ وكانوا ينزلون شواطئها وزاد نزوحهم بعد زمن الاسكندر حتى صارت سوريا بلداً ثانياً لهم كما تقدم . وظلوا يتوافدون اليها بعد الفتح الاسلامي وما زالوا على ذلك الى الآن . وفي سوريا بيوت كثيرة تنتسب الى اليونان واسماؤها تدل على أصولها كبيت بني وباولي وكتسفليس وبابادوبلس وفيليبيذس وغيرهم . ومنها بيوت تبدلت أسماؤها باسماء عربية وحفظت انسابها عند أهلها كبيت مشاقة في دمشق الشام فهم يرجعون بنسبهم الى يوسف بركي من كورفو ببلاد اليونان نزل طرابلس الشام وكان تاجراً بالمشاقة فعرف اسمه بها . وبيت مسرّة فرع من اسرة يونانية نشأت في طرابزون جاء جدها الى ديار بكر فحلب وتفرعت في دمشق ومصر

اما النسب العربي في السوريين فانه قديم وعريق فيهم ايضاً لكن أكثره في شرقي الشام وجنوبها مما يلي جزيرة العرب لان أهل هذه الجزيرة كثيراً ما كانوا ينزلون ما جاورهم من القرى ويتحضرون . ولكن تلك الاصول القديمة قد ضاعت الآن وأكثر ما يعرف من النسب العربي في السوريين يرجع الى الغساسنة وهو متأصل فيها قبل الاسلام ثم توالى دخول الغساسنة الشام واندماجهم باهلها جيلاً بعد جيل التماساً للرزق بالزرع أو غيره او فراراً من العرب المسلمين في مشارف الشام . وأحدث ما يذكرونه من توافدهم الى سوريا مهاجرتهم في أواسط القرن الخامس عشر على أثر خصام وقع في حوران حملهم على الالتجاء الى المدن فتفرقوا في سوريا ونزل منهم جماعة كبيرة في جنوبي لبنان . وكثيرون من نصارى هذا القسم الروم الارثوذكس وغيرهم ينتسبون الى الغساسنة وقد نزل بعضهم المدن وتناسلوا فيها . وهناك عشائر نصرانية كبيرة ترجع باصولها الى حوران فمشائخ بيت الخازن في لبنان ينتسبون الى أصل حوراني ويقولون ان جدهم جاء من اذرع في حوران في اواسط القرن الخامس عشر . وكذلك اسرة المطران في بعلبك وزحلة فانهم في الاصل من

جالية حوران . وهكذا يقال في بيوت جبارة وغنام وحوراني وعطية وشقير وطراد وحداد وصفير وغصن وغيرهم

وأما سائر الانساب النصرانية فنها الاصول الارمنية وهي كثيرة وكلها تعد من جملة السوريين كبيوت هندية وخياط باشا وابكاريوس وورتبات وقرابيت وغيرهم . ومنها الاصول الافرنجية وقد ضاعت اسماؤها الا قليلاً منها كبيت ايلاً من الاسبان وبيت طاسو من الايطاليان وبيت شرشل من الانكليز . وينتسب بيت كرم في اهدن الى كولونل فرنساوي . وبيت طربيه في طرابلس ينتسبون الى الفرنساويين من زمن الصليبيين . وقس على ذلك سائر الامم المسيحية التي نزلت الشام واختلطت باهلها مما يطول شرحه

فالسوريون المسيحيون ليسوا عرباً من حيث النسب وان كان فيهم شيء من دم العرب بل هم أخلاط من امم شتى ولكنهم يعدون عرباً لانهم يتكلمون العربية وقد توالدوا في بلاد عربية وتخلقوا باخلاق العرب . فسوريا أصبحت بعد الفتح الاسلامي عربية لنزول العرب المسلمين فيها واتخاذها وطناً لهم وقد نشروا فيها لسانهم وعاداتهم وآدابهم فسكانها يعدون عرباً وان لم يرجعوا بانسابهم الى قبائل العرب

والعرب بهذا الاعتبار ثلاث طبقات (١) أهل البادية الذين ينتسبون الى القبائل العربية ولا يزالون محافظين على انسابهم (٢) العرب المسلمون الذين نزلوا الارياف واختلطوا بغير العرب بالتزاوج واندمج فيهم سواهم من الامم الاسلامية غير العرب وهم سكان المدن في الشام والعراق ومصر والمغرب تجمعهم اللغة العربية والدين الاسلامي (٣) العرب المولدون المنتسبون الى العرب وهم المسيحيون من سكان هذه البلاد فانهم يعدون عرباً باعتبار لغتهم وعاداتهم وآدابهم لا من حيث انسابهم . ومنهم نصارى الشام والعراق وأقباط مصر . وعلى هذا القياس يعد نصارى بر الاناضول الذين يتكلمون التركية اتراكاً وأكثرهم من اليونان وقس عليه

---

*

السوريون وتجنسهم بالجنسية الاميركية

بحثٌ اجتماعيٌ [1]

جاءنا من رصيفنا صاحب جريدة المناظر التي تصدر في سانباولو البرازيل كتاب يقترح علينا فيه باسم السوريين في اميركا أن نبدي رأينا في مناظرة دارت بينه وبين صاحب جريدة المهاجر التي تصدر في نيويورك بشأن مستقبل السوريين في اميركا من حيث تجنسهم بالجنسية الاميركية والاختلاط التام بالاميركان او البقاء على العثمانية والمحافظة على الوطنية السورية للرجوع الى سوريا فاجبنا اقتراحه وبعثنا بالجواب اليه ونظراً لما في هذا الموضوع من البحث الاجتماعي رأينا أن ننشره في الهلال وهاك نص الجواب :

حضرة الرصيف الفاضل

وصلني كتابك الذي تقترح عليّ فيه باسم السوريين باميركا ان ابدي رأيي في ما دار بينك وبين الرصيف الفاضل صاحب المهاجر بشأن مستقبل السوريين في اميركا من حيث « التجنس بالجنسية الاميركية والاختلاط التام بالاميركان » وهي دعوة المهاجر . أو « البقاء على العثمانية والمحافظة على الوطنية السورية للرجوع الى سوريا » وهي دعوة المناظر . فاشكر لكما حسن ظنكما بهذا العاجز للحكم في مسألة هي من أهم المسائل السورية لان الحكم فيها يتناول الحكم على حال السوريين في سائر ديار هجرتهم في اميركا واوربا وأسيا واستراليا وافريقيا فاذا كان الصواب في استبقاء جنسيتهم والرجوع الى بلادهم وجب اطلاق ذلك على السوريين كافة حيثما نزلوا

على انني رأيتكما جعلتما السوري مخيراً في اتباع أحد الرأيين وهو في الحقيقة مسوق الى أحدهما بطبيعة العمران شأن الانسان في سائر أحوال اجتماعه . فلو جعلنا موضوع البحث هل يرجع السوريون من ديار هجرتهم أم يبقون فيها لكان ذلك أقرب الى مجاراة ناموس التاريخ ـ وقد قيل اذا شئت ان تطاع فسل ما يستطاع

(١) عن الهلال سنة ١٣ صحيفة ١٤

قرأت كتاب الرصيف الكريم واطلعت في اعداد المناظر على ما دار بينكما في هذا الشأن وانا في رمل الاسكندرية وقد فررت من المحابر وهجرت الاقلام والدفاتر وأقمت في هذا المصيف التماساً للراحة في اثناء احتجاب الهلال . ففكرت في هذه المسألة الخطيرة وانا مطل من نافذة فندق نحن مقيمون فيه يشرف على قطر الترامواي وهي ذاهبة جائية تقل الناس بين الاسكندرية ومصايف الرمل فرأيتها تحمل العشرات والمئات وليس بينهم من الوطنيين الا جزء صغير والباقون من الاجانب وفيهم جانب عظيم من السوريين أكثرهم من أهل الوجاهة وأرباب الثروة والنفوذ وأهل العلم والادب . وتذكرت كثرة السوريين في القاهرة وفيهم جماعة كبيرة من كبار الموظفين وأصحاب المناصب الادارية والعسكرية وأرباب الصحافة والتجار والمحامين والاطباء وغيرهم . ومثل هؤلاء كثيرون أيضاً في انحاء القطر المصري — فقلت في نفسي لو صحت دعوة المناظر لوجب أن يعود هؤلاء جميعهم الى سوريا ويعود أمثالهم من أربعة أقطار المسكونة وهم يعدون بمئات الالوف وفيهم أهل الثروة والجاه وقد زادهم الاغتراب علماً واختباراً واقتبسوا من امم الارض أحاسن ما عندهن من آداب الاجتماع وأساليب الارتزاق . وليست ثروتهم بالشيء القليل نعرف ذلك بالقياس على ثروة السوريين في القطر المصري فانها تقدر الآن بنحو ثلاثين مليون جنيه وهم لا يزيدون على بضعة عشر الف نفس فكيف بثروة من بقي منهم في سائر ديار هجرتهم وعددهم نحو ٣٠٠ الف نفس مع اعتبار ثروتهم في غير مصر أقل منها فيها فلو قدرناها بنصف ذلك او ربعه لزادت ثروة مهاجري سوريا على ٢٠٠ مليون وهي تتضاعف بتوالي الاعوام فان ثروة السوريين في مصر كانت منذ عشر سنين ربع ما هي الآن — فاذا عاد السوريون الى سوريا بهذه الثروة سعدت تلك البقعة المباركة واجتمع فيها الاقرباء والاصدقاء يتمتعون بالنسيم العليل والاقليم النشيط — وذلك غاية ما يرجوه الانسان من أسباب السعادة في دنياه ولكن :

نسج الريح على الماء زرد يا له درعاً منيعاً لو جمد

انها أمنية لا يرجى تحققها . فالسوريون باقون في ديار غربتهم وسيندمجون في أهاليها ويكونون بعضاً منهم يتفاهمون بالسنتهم ويتأدبون بآدابهم — ذلك هو رأيي نشرته في الهلال منذ بضعة أعوام ونشره صاحب المهاجر في رده . وقد كان في الاشارة اليه كفاية لولا ما تخلل بحثكما من ذكر الوطن وخيانته والوطنية وجامعتها

مما ينقر على أوتار القلوب فيثير العواطف حتى تشوش على العقل سبيله في احكامه . والبحث الذي نحن فيه يستلزم النظر في الحقيقة المجردة والمصلحة الشاملة فاستأذن الرصيفين الكريمين في تفصيل ما أجملته هناك

(المهاجرة) قديمة كالانسان وأقدم أسبابها الارتزاق . وهي من أقدم دعائم العمران وأقواها لان البشر تسلسلوا من أب واحد وكانوا في بقعة واحدة فلما تكاثروا ضاقت تلك البقعة عن معائشهم فهاجروا الى ما حولها التماساً للغرس والمرعى ثم تفرعت هجرتهم للسبب عينه بتوالي الاجيال . وأقدم ما بلغنا من اخبار المهاجرة تفرق ابناء نوح أو قبائلهم من أواسط آسيا الى اطراف المعمور وهم أرقى السلالات البشرية ومنهم تسلسلت الامم المرتقية المعبر عنها بالشعوب القوقاسية . وكان القوقاسيون حيثما نزلوا في أثناء هجرتهم لقوا شعوباً من سلالات سافلة كالزنوج أو الهنود فكانوا يغلبونهم على ما في أيديهم ويتولون امورهم . ثم انشأوا تمدناً لا يزال يرتقي الى اليوم - فكان الارض عمرت بالمهاجرة من سلالات بعضها ارقى من بعض تعاقبت وهي ترتقي بتعاقب الدهور

واذا نظرنا الى كل بقعة من بقاع الارض على حدة رأينا آثار ذلك التعاقب ظاهرة فيها . فوادي النيل مثلاً أقدم سكانه الزنوج ثم جاء النوبة وهم ارقى منهم فطاردوهم نحو الجنوب وأقاموا مكانهم ثم جاء القوقاسيون فزاحموا النوبة وغلبوهم ومنهم الفراعنة الذين انشأوا التمدن المصري القديم . ويقال نحو ذلك في شواطيء افريقيا الشمالية فان الشعوب القوقاسية جاءتها من الشرق والشمال وطردت برابرتها نحو الجنوب . ولما نزح الآريون الى الهند وجدوا فيها الهنود الاصليين وهم كالنوبة في افريقيا فتغلبوا عليهم ومنهم الكهنة (البراهمة) والحكام وقس على ذلك نزوح القبائل الآرية الى اوربا والسامية الى سوريا وفلسطين وبلاد العرب وغيرها

ناهيك بما كان من المهاجرات المتوالية في عهد التاريخ وخصوصاً بعد اكتشاف اميركا واوستراليا وغيرها من بلاد العالم الجديد . فقد نزح اليها أهل اوربا (وهم القوقاسيون) فطردوا من كان فيها من سلالات الهنود ونقلوا اليها تمدنهم وفر الهنود من وجه الافرنج في اميركا واوستراليا كما فر النوبة من وجه القوقاسيين (الساميين) في افريقيا قبل ذلك الزمن بقرون . ولا يزال القوقاسيون ينزحون الى العالم الجديد من سائر اقطار المعمور ومهما اختلفت لغاتهم وعاداتهم وآدابهم فانهم سلالة رجل

واحد يجمعهم شكل الجمجمة وسمو المدارك وهم الذين انشأوا هذا التمدن ونشروه في العالم القديم والحديث ولو اتيح لهم اكتشاف عوالم اخرى لنزحوا اليها وعمروها

ثم ان الامم تختلف ميلاً الى المهاجرة واقتداراً عليها باختلاف الاقليم وطبائع أهله . ومن أقدر الامم على المهاجرة واكثرهم سعياً فيها السوريون فقد كانوا من عهد الفينيقيين أهل رحلة ومهاجرة وقد استعمروا كثيراً من شواطىء البحر المتوسط قبل الميلاد بعدة قرون واشهر مستعمراتهم قرطاجنة في شمالي افريقيا ورحلوا الى بلاد التمدن القديم في أشور وبابل ومصر وكانوا خير واسطة لنقل ذلك التمدن بين تلك الامم (راجع الجزء الثالث من كتابنا تاريخ التمدن الاسلامي) . وكان ذلك شأنهم في عهد التمدن اليوناني ثم الروماني فكانوا ينزحون الى بلاد الروم والفرس والاسكندرية لهذه الغاية . وهذا هو شأنهم ايضاً في عهد هذا التمدن فانهم يطلبون الرزق ويسهل عليهم الانتقال في طلبه حتى اجتمع منهم نحو ٢٠٠٠٠٠ في اميركا وجماعات كبيرة في اوستراليا وتسمانيا وزيلاندا وفي زنجبار والترانسفال والسنيغال وفي سائر سواحل افريقيا وأواسطها وفي الهند وفارس والصين واليابان وفي جزائر المحيط . غير مصر والسودان وتونس ومراكش وغير المقيمين في عواصم اوربا . وبالجملة فلا تكاد تخلو منهم بلد من البلاد العامرة في أربعة أقطار المسكونة وهم بحول الله حيثما نزلوا أفلحوا

وللسوري طبيعة يمتاز بها عن سائر الامم وقد تمكنت فيه بتوالي الاغتراب فهو مع نشاطه وذكائه ذو اقتدار غريب على تكييف نفسه وتطبيق أخلاقه وأطواره على البيئة التي يعيش فيها واتقان اللغة التي يتفاهم بها أهلها . فاذا أقام في فرنسا مثلاً لا يمضي كبير زمن وهو يقلد الفرنساويين حتى لا تشك انه منهم وكذلك اذا أقام في اميركا او انكلترا فانك تحسبه اميركياً او انكليزياً . وتراه من اشد الناس غيرة على البلد الذي يستوطنه واكثرهم دفاعاً عنه وسعياً في خدمته

« الوطن والجامعة الوطنية » رأيت صاحب المناظر الفاضل مغالياً في اعتماده على الجامعة الوطنية في تأييد رأيه وقد عد تجنس السوري بالجنسية الاميركية خيانة للوطن . فاستأذنه في بيان الوطن والجامعة الوطنية بالنظر الى السوري . اما الوطن فهو البلد يقيم فيه اناسٌ مصالحهم مشتركةٌ وحقوقهم متبادلة . والحنين الى الوطن من قبيل الحنين الى الوالدين وكلاهما من نتائج العادة والالفة . فكيف لا نحنُّ الى بلد

عرفنا الشمس في سمائه وتنشقنا الحياة من هوائه واغتذينا من حيوانه ونباته فاظلنا أطفالا وربانا احداثاً وشباناً . وقد تألفت ابداننا من عناصره وتكيفت أطوارنا تبعاً لاقليمه . وهو مجتمع الاهل والاقرباء ومقرّ الخلان والاصدقاء ـ فالحنين الى الوطن طبيعي حتى في الحيوان الاعجم فلا حاجة الى اثباته . اما البقاء فيه او الرجوع اليه فليس من الواجبات المفروضة كما ان البقاء في حجر الوالدين ليس من بواعث العمران ولا من قواعد الارتقاء الا اذا قضت المصلحة بذلك . فالشاب اذا بلغ أشده طلب أسباب الرزق حيثما توفرت له ولو قضى عليه ذلك بفراق والديه واهله فكيف بوطنه . وكما يطلب منه أن يذكر اهله ويحن اليهم ويسعى في راحتهم ولو بعد عنهم فكذلك وطنه اذا اصيب بنكبة فانه مطالب بنصرته واعانته بما تبلغ اليه قدرته

هذا هو الوطن بالنظر الى كل فرد من افراده وأما بالنظر الى مجموع الامة أو الى الدولة فهو الجامعة الوطنية وهي في ابسط أحوالها عبارة عن اجتماع أهل البلد الواحد لدفع عدو يريد اغتياله . وقد يكونون في نزاع وخصام حتى يهددهم الخطر فيجتمعون وذلك طبيعي حتى في العجماوات . فان الاديك قد تتنازع وتتخاصم فاذا جمعتها في قفص وعذبتها بالجوع او نحوه تحابت وتآلفت . فاهل البلد الواحد يشتركون في الدفاع عن بلدهم او السعي في مصلحته بما يسمونه الجامعة الوطنية وهي من التعبيرات التي اقتبسناها من أهل التمدن الحديث في أوربا ويراد بها عندهم تكاتف أهل المملكة الواحدة في الذب عن حياضها والسعي في مصلحتها وهي تقوم مقام جامعة الدين أو اللغة في الامم الأخرى . وتقوى الجامعة الوطنية وتتوثق عراها بين أطراف المملكة كلما اشتد أمر الدولة وتوطد سلطانها وتبودلت أسباب الانتفاع بين العاصمة والبلاد التابعة لها . فقد كانت الدولة في أقدم أزمنة التاريخ تحصر في مدينة واحدة تنسب اليها كدولة اثينا وسبارطة ورومية فاذا قوي سلطانها واتسعت فتوحها حتى صارت مملكة كبيرة نسبت المملكة الى تلك المدينة كالمملكة الرومانية مثلاً فانها عبارة عن مدينة رومية والبلاد التابعة لها . وكانت الجامعة الوطنية الرومانية تقوى وتضعف مع سلطان رومية

أما العرب فقد كانوا قبل الاسلام قبائل تجمعهم الانساب والاعصاب فلما أسلموا أصبح الاسلام جامعتهم وأصبحت دولتهم اسلامية لا تنسب الى بلد معلوم . وانما كانت تسمى باسماء مؤسسيها أو أقرب اسلافهم قرابة من النبي كالعباسية والعلوية والمروانية

ونحوها . فلما تشعبت مملكتهم وحكمها غير العرب فرقوا بين فروعها بمواطن ملوكها أو لغاتهم كالترك والفرس والاكراد وغيرهم . وقد يسمونها باسماء مؤسسيها كالدولة النورية والصلاحية والعثمانية .وكانت الدولة الرومانية قد أخذت في الانحلال وضعفت جامعتها الوطنية فاصبح أهل اوربا دولاً صغيرة يتنازعون ويتخاصمون حتى اذا استفحل أمر المسلمين في الشرق وأراد الافرنج استخراج بيت المقدس من أيديهم لم يروا ما يجمع شتاتهم غير الدين . فاجتمعوا تحت لواء الصليب وحاربوا المسلمين . فلما انقضت الحروب الصليبية وأخذ الافرنج في نهضتهم الاخيرة واشتدت سواعدهم قام التنازع بين دولهم على الاستئثار بالنفوذ الاعظم في تلك القارة . فأصبح همُّ كل دولة منهم جمع كلمة أهلها لتقوى على الغلبة وكان الدين جامعتهم الكبرى كما تقدم فلم يكن لتلك الدول ما يجمع افراد كل منها على حدة غير الوطن او الجنس . فالفرنساويون جعلوا جامعتهم فرنسا أو الشعب الفرنساوي وكذلك الالمان والانكليز . فتشعبت الجامعة النصرانية في اوربا الى الفرنساويين والالمانيين والانكليز وغيرهم كما تشعبت الجامعة الاسلامية قبلها الى الفرس والترك والاكراد وغيرهم . واذا أمعنت النظر في تلك الجامعات رأيت أساسها في الحقيقة اللغة والدين . فان أهل كل مملكة من ممالك أوربا يتكلمون لغة واحدة هي لغة أهل الدولة ويغلب أن يضمهم مذهب واحدٌ هو مذهب الحكومة

فالجامعة الوطنية لا معنى لها ان لم يكن لها دولة تؤيدها أو تدعو اليها للانتظام في خدمتها أو حمل السلاح في الدفاع عن استقلالها وان يكون لاهل الوطن حقوق على الدولة في مقابلة ذلك على أن تكون لغتهم لغتها . والسوريون ــ ويراد بهم هنا نصارى الشام ــ لا شأن لهم في ذلك لانهم من أهل المملكة العثمانية ولكنهم لا ينتظمون في جيشها ولا يحاربون عنها ولا يتكلمون لغتها فلا شأن لهم في الجامعة العثمانية والوطن السوري في غنى عنهم من هذا القبيل فما في بعدهم عنه خيانة او تقصير . وخصوصاً لانهم هجروه مضطرين التماساً للرزق بعد أن نفدت حيلتهم في استدراره هناك وسعياً في الراحة . فكأن الوطن تخلى عنهم واخرجهم منه رغم ارادتهم على حد قول الشاعر :

واذا رأيت العبد يهرب ثم لم يطلب فولي العبد منه هارب

وقول الآخر

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ان لا تفارقهم فالراحلون هم

والسوريون لا ينقصهم شيء من أسباب الارتقاء ولا يقلون في قوامم ومواهبهم عن أرقى الامم المتمدنة وقد رأيناهم يجارون الافرنج حتى في بلادهم . فنهم التجار في اكبر مدائن أوربا وأميركا فضلاً عن كبار التجار في مصر فان أكبر محل تجاري فيها للسوريين ومنهم كبار المحامين والاطباء والكتاب وأرباب المناصب وغيرها . وهم في كل ذلك مثال الاجتهاد وعنوان الاستقامة والاخلاص . وانما يعابون بضعف جامعتهم الوطنية ولاذنب لهم في ذلك للاسباب التي قدمناها . ناهيك بتعداد المذاهب والمشارب في بلادهم وقد زادهم الاغتراب تباعداً بما فطروا عليه من تكييف أذواقهم على أذواق الامم التي يعيشون بينها وهي متباينة

فعلاقة السوريين بوطنهم علاقة حنين وائتلاف لا علاقة هجوم او دفاع ولا علاقة ملك وانتفاع . وهم من اكثر الامم حناناً الى اوطانهم ولا يزالون يذكرون الوطن ويحنون اليه ولو طال زمن اغترابهم ويعللون النفس في الرجوع اليه ويبذلون جهدهم في ذلك . وقد تتسع تجارة أحدهم ويقتني العقار ويبني المنازل في دار غربته وهو مع ذلك يعدُّ نفسه مقيماً الى اجل اذا انقضى رحل الى وطنه . فهو انما يرجو ذلك من حنينه ولكنه في الواقع لا يرجع ـ اخبرني صديق من وجهاء حاصبيا الذين نزلوا بيروت بعد نكبتهم الشهيرة سنة ١٨٦٠ ان والدته ما زالت الى عهد غير بعيد اذا احتاجت الى بعض آنية المطبخ اوصت النحاس أن يصنع للمواعين حلقاً ليعلقوها بها على البغال في اثناء رجوعهم الى حاصبيا ووالده من الجهة الاخرى يوسع تجارته ويبني المنازل في بيروت ويثبت قدمه فيها . ونعرف جماعة من وجهاء السوريين في هذا القطر اذا توفي لهم عزيز دفنوه في حفرة موقتة على ان ينقلوا رفاته معهم الى سوريا عند رجوعهم اليها . ونعرف آخرين بمصر وغيرها يرسلون ما يجتمع عندهم من الاموال الى سوريا يبتاعون العقار ويبنون المنازل هناك استعداداً للرجوع اليها متى فرغت حاجتهم من الاغتراب . ولكنهم قلما يرجعون واذا رجعوا يندر أن يبقى احد منهم هناك . واما اعقابهم في مهاجرهم فهم متجنسون بجنسية البلد الذي يولدون فيه ويشبون بين أهله اراد أهلهم او لم يريدوا

ولا حرج عليهم وهم انما يساقون الى ذلك بطبيعة العمران كما يساق غيرهم من الشعوب الذين هاجروا الى تلك البلاد. فالولايات المتحدة انما عمرت بشعوب هاجروا

اليها من انكلترا واسبانيا وفرنسا والمانيا وغيرها وقد تمازجوا واستبدلوا جنسياتهم الاصلية بالجنسية الاميركية وكل من نزح اليهم واقام بين ظهرانيهم وانخرط في جنسيتهم أصبح له ما لهم وعليه ما عليهم. فلا جناح على السوريين اذا آثروا البقاء في تلك البلاد العامرة واختلطوا بسكانها وتجنسوا بجنسيتها ووطنهم في غنى عنهم وهم في حاجة الى الوطن الجديد لما يجدونه فيه من ابواب الرزق وأسباب الراحة فيستخدمون مواهبهم في العمل بنشاط واجتهاد ولكل مجتهد نصيب

على اني اودُّ من صميم القلب ان يخطيء حكمي وألتقي باخواني وخلاني في الوطن بسعةٍ ورغد وسكينة فانها امنية كل محب لوطنه . والا فاني احنُّ الى ذلك الوطن حنين الولد الى والديه ولا احسب بعدي عنه خيانة او عقوقاً

بلادي وان جارت عليَّ عزيزة   واهلي وان جاروا عليَّ كرام

اما بقاء السوريين في دور هجرتهم مع المحافظة على لغتهم وآدابهم وعاداتهم كما هو حال الالمان في اميركا مثلاً فلا بأس به اذا استطاعوا اليه سبيلاً . ولكنهم اذا استطاعوا ذلك فالى اجل قصير وخصوصاً في اميركا لضعف الجامعة السورية بالنظر الى جامعة الاميركان والقوي يأكل الضعيف ـ سنة الله في خلقه

السوريون في مصر (١)

يربو السوري في بلاد ما برحت منذ القدم مهداً للتجارة وبين قوم تتصل اُرومتهم بالفينيقيين الذين هم اول من اخترق البحار ومال الى الاسفار بقصد الاتجار . ويعيش أبناء السواحل منهم بين ارباب التجارة والقائمين باعبائها ويخالطون فئات من الغرباء من جالية الافرنج وغيرهم ممن يأتونهم لترويج بضائعهم . فيتدربون على ملكة البيع والشراء والاخذ والعطاء ويرون من طبيعة الاقليم عندهم ما يحسن لهم الاسفار وجوب الاقطار ثم لا يمر بهم يوم لا يسمعون فيه بمهاجرة عشرات منهم الى انحاء شتى من العالم طلباً للكسب وسعياً وراء الاثراء فيشبون على حب الاغتراب وطلب المعالي متمثلين بقول الشاعر

ترحل عن مكان فيه ضيم   وخلّ الدار تنعي من بناها

---

(١) عن الهلال سنة ١ صفحة ٢٧١

فانك واجدٌ أرضاً بارض ونفسك لا تجد نفساً سواها
ومن كانت منيته بارض فليس يموت في ارض سواها

وهم عاكفون من جهة اخرى على تعلم اللغات واتقانها فاذا أتم السوري دروسه أو اتقن تجارته ولم يتعاط عملاً يقعده عن السفر جعل دينه الاقلاع عما هو فيه من السعي وراء ما يكفيه مؤونة الحول ورفع منزلته بين الاقران فيقدح زناد الفكرة في الجهة التي يختارها لمسيره فيفضل في الغالب الديار المصرية لانها ما برحت منذ تولاها المغفور له محمد علي باشا باباً واسعاً للاتجار فكان يتقاطر اليها السوريون يتعاطون التجارة التي كانت اذ ذاك واسعة لاتصالها بالسودان وبلاد العرب وفارس والهند من الشرق واوربا واميركا من الغرب

ومما كان يرغب اليهم ايثار هذا القطر السعيد على سواه ما كانوا يرتاحون اليه من رابطة اللغة وسيادة الامن وما كانوا يؤانسونه في اخوانهم المصريين من حسن الوفادة ورقة الجانب فان المصري عنوان اللطف ومعدن الرقة ولكنه يؤثر الاقامة على الاغتراب ومعاناة الاسفار لما خص الله به تربة بلاده من الخصب وعا اولاه من حسن الرعاية وتأييد الامن وتكاثر أسباب الكسب السهل بعد ان دانت الديار المصرية للعائلة المحمدية العلوية بما توخاه ولاتها من الرفق بالرعية وتسهيل أسباب معيشتهم فهم من أجل ذلك في أمن وسكينة لا تشوقهم الاسفار وهم لا يميلون الى استطلاع أحوال الامم لاستغنائهم عن ذلك بما يرد على بلادهم من اجناس الناس على اختلاف المذاهب والنزعات واللغات والازياء فيمر في أسواقهم كل يوم مئات بل الوف من الجالية القادمين من انحاء العالم وفيهم الاوربي والاميركي والشامي والتركي والفارسي والهندي والسوداني والحجازي واليمني وغيرهم مما لا يحصيه عد وكل منهم آمن مطمئن أقام أو رحل استوطن او نزح

فألف السوريون الاقامة بينهم يتعاطون اعمالهم التجارية حتى نبغ منهم جماعة اكتسبوا مالاً طائلاً بجدهم واجتهادهم وهؤلاء هم في الغالب اغنياء السوريين في الديار المصرية . وهذا كان دأبهم الى الثلث الاخير من هذا القرن

أما في الازمنة الاخيرة فقلما يأتون هذه الديار للاتجار لتضيق هذا الباب بفتح ترعة السويس واتصال البحرين الابيض بالاحمر فتحولت مجاري التجارة الى اوربا

وتزاحم الافرنج على أبوابها واتفق تولي الخديوي الاسبق اسماعيل باشا فحبب اليهم الاستخدام في مصالح الحكومة برواتب باهظة فمالوا بكليتهم الى هذه الوجهة وآثروا نيل الراتب وجعل ذلك يتمكن فيهم حتى كادوا يفقدون ملكة التجارة الا فئة منهم

فالسوري يأتي الديار المصرية الآن يلتمس خدمة في دوائر حكومتها غالباً وشتان بين مجيئه هذا ومجيء اسلافه من قبل وقد اصبح منذ رضي بالاستخدام خاملاً مغلول اليدين وقد قصرت باعه عن مباراة أسلافه ومعاصريه في اكتساب الاموال لانه قنع براتب يتناوله آخر الشهر ثم لا يكاد يدخل الشهر التالي الا وقد انفقه وربما استدان ما يعينه على نفقات باقي الشهر ولا فرق في ذلك بين ط الراتب او قلّ فانه منفقه لا محالة سواء كان مئة قرش او مئة جنيه او اكثر او أقل فان القاعدة العمومية انفاق الراتب قبل انقضاء الشهر

ونحن نعرف بين هؤلاء الموظفين كثيرين من اصحاب الرواتب الباهظة ولا يخطر لنا مما نعلمه من ابواب النفقة عندهم انهم يحتاجون الى اكثر من نصفها ولكننا لا نراهم الا وقد أنفقوها واستدانوا فوقها . وهذه حالة توجب قلقهم وتستدعي تيقظهم لانهم يقضون اثمن سني حياتهم لا يجمعون شيئاً يرتكنون اليه وقت الحاجة . ناهيك عما يتهددهم من استغناء الحكومة عنهم في زمن لا يعرفونه . فويل لمن يأتيه الامر بالرفت وهذه حالته فانه يصبح (الا فيما ندر) صفر اليدين مغلول القبضتين كثير النفقات لما اعتاده من البذخ والاسراف والتأنق بالمأكل والمشرب والملبس وهو مع ذلك لا يستطيع عملاً تجارياً كان او صناعياً لتعوده معيشة الترف وقضاء معظم أوقاته اما في اماكن اللهو واما بمطالعة الروايات او باشياء أخرى تختلف عن ذلك كثيراً فيقع في حيرة وربما قاده اليأس الى المهاجرة الى حيث لا يعرفه احد هذا اذا لم يكن مقيداً بعائلة او شيء آخر يحمله على البقاء تحت هذه الاثقال ولا ادري ما تكون عاقبة امره اذا لم يتوفق الى خدمة في احدى مصالح الحكومة ولكن بعد ان يذوق مرّ العذاب ويعض على نواجذ الندم ويندب الزمن الذي قضاه في ما لم يغن عنه شيئاً ويقسم أن يشير على كل من عرفه ويوصي اولاده واولاد اولاده ان يبتعدوا عن هذه الخدمة

على أن للاستخدام حسنات ولا سيما في مصالح الحكومة المصرية ولكنها لا توازي نذراً يسيراً من سيئاتها لان السوري انما يغادر وطنه طلباً لتكسب الحسن

حتى يستوفي ما ينسيه مشاق الاسفار والابتعاد عن الاهل والخلان . والسوريون اهل مهارة في اساليب التجارة يشهد لهم بها العارفون ويؤيد صحتها تاريخ اسلافهم الاقدمين وموقع بلادهم ولنا من شواهد الاحوال اقوى دليل فاليك العيان ودع عنك الخبر ها ان في القطر المصري من التجار عدداً عديداً وهم اخلاط من سائر الطوائف والملل ولا ترى السوري فيهم الا من امهرهم في ابواب التجارة واقدرهم على اكتساب الاموال

واذا نظرت الى السوريين المقيمين في هذا القطر وتأملت طرق معائشهم تتضح لك عاقبة كل من التجارة والاستخدام لانك ترى الذين جمعوا مالاً منهم انما جمعوه بطريق التجارة ليس الا ولا يغرنك من حسنات الاستخدام نيل المناصب والرتب والالقاظ وانما العمدة فيما تذخره لعائلتك واولادك ولا ترى واحداً في كل مئـة من المستخدمين من اذخر شيئاً يستحق الاعتبار وربما لو بحثت تراه انما اذخره من غير باب الاستخدام

اما اذا احسن المستخدم التصرف في نفقاته واقتصد في طرق معايشه حتى يذخر شيئاً من راتبه مع ما يستحقه من المكافأة او المعاش في آخر ايامه فيكون قد أصاب الغايتين وتمتع بالحسنتين لان في خدمة الحكومة شرفاً وابهة تتطاول اليهما الاعناق وتشد اليهما الرحال ويكون من الجهة الثانية قد قام بخدمة هي من اجل الخدمات العمومية لمصلحة بني الانسان . ولكننا نبغض هذه الخدمة الى من لا يعرفون كيف يقومون بها حتى تقوم بهم واذا داموا لها فانها لا تدوم لهم

وما يصح على السوريين من هذه الحيثيـة يصح على المصريين وان يكن هؤلاء أحق بتولي تلك الخدمات وأجدر بالتمتع بمصالح البلاد الا اننا نرى من تكاتفهم على الخدمة وتعليق آمالهم بها وانقطاعهم اليها ما لا نحسن عاقبتـه فننصح لهم أن يوجهوا انتباههم الى باب من أبواب الثروة قد اختصت به الديار المصرية وقلَّ أن يضارعها فيه غيرها من البلاد ألا وهو باب الزراعة فان وادي النيل واد خصب كثير النتـاج بما يحمله اليه النيل المبارك من السماد بفيضانه كل سنة فاذا اعتنى الآباء في توجيه افكار أولادهم وترغيبهم في الزراعة وأدخلوهم في المدرسة الزراعية فان لهم مستقبلاً حسناً يعود على سائر القطر بالنفع الجزيل

العرب والترك [1]

كيف التقت الامتان

لم يكن بين العرب والترك علاقة قبل الاسـلام وكان كلاهما أهل بادية وسطو وغزو . ولم يلتقيا قط لما بينهما من الابعاد الشـاسعة . فالعرب كانوا في جزيرتهم والترك في جبال الالطاي أو جبال الذهب في اواسط آسيا بين الهند والصين وسيبيريا وبينهم وبين جزيرة العرب مفاوز واودية وجبال . وهم يختلفون عن العرب في تكاوينهم واخلاقهم وآدابهم ولغتهم اختلافاً كبيراً . ويستحيل التفاهم بينهم لتباعد اللغة التركية الاصلية في تركيبها والفاظها عن اللسان العربي يوم لم يكن فيها كلة عربية ولا في اللغة العربية كلة تركية فضلاً عن اختلاف أسلوب التعبير

فلما قام العرب بالاسلام وأخذوا ينتشرون بالفتح أو غيره وطئت حوافر خيولهم بلاد الترك وهم يعبرون عنها بما وراء النهر ففتحوا بخارا وسمرقند وفرغانة واشروسنة وغيرها من تركستان في أيام بني امية . وكان أهل تلك البلاد قبائل يتولاهم امراء او ملوك يعرفون باسم خاقان أو اخشيد أو غيرها . وكانوا لا يزالون على عبادة الاوثان فدخولهم في حوزة المسلمين بعث على احتكاكهم بالعالم المتمدن في ذلك العهد فاعتنقوا الاسلام وظهرت مواهبهم ونبغ منهم القواد العظام وانشأوا دولا حكمت العالم الاسلامي قروناً متواليـة . وتقسم علاقة الاتراك بالعرب في الاسلام الى دورين الاول دور الخدمة والثاني دور السيادة . ونعني بدور الخدمة دخول الترك في خدمة العرب في صدر الاسلام . وبدور السيادة سيادة الترك على العرب بعد ذلك

سيادة العرب في صدر الاسلام

فطر العرب على الانفة والاستقلال فلما قاموا بالاسلام وفتحوا العالم زادوا عظمة واعتقدوا الفضل في انفسهم على سائر الناس وأنهم من غير طينتهم . وأصبح العربي يعدُّ نفسه سـيداً على غير العربي ويرى انه خلق للسيادة وسواه للخدمة . ولذلك لم يكن العرب يشتغلون في صدر الاسلام بغير السياسة والحكومة وتركوا سائر الاعمال لسواهم . ولم يكن ينازعهم في تلك السيادة أحد فكانوا يزدادون افتخاراً وخصوصاً على المسلمين غير العرب ويسمونهم الموالي يريدون انهم كانوا عبيداً لهم واعتقوهم –

(١) عن الهلال سنة ١٧ صحيفة ٤٠٨

وهم غير أهل الذمة . ويدخل في جملة الموالي الفرس والترك وغيرهم من المسلمين غير العرب . وبلغ من ترفعهم عنهم انهم كانوا يكرهون ان يصلوا خلف المولى واذا صلوا قالوا اننا نفعل ذلك تواضعاً لله . وكانوا لا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقاب ولا يمشون في الصف معهم ولا يتقدمونهم في المواكب الى غير ذلك مما تراه مفصلاً في تاريخ التمدن الاسلامي

وكأن العرب سكروا بخمر السيادة والنصر لارتقائهم من رعاية الابل الى سياسة الممالك في بضعة عشر عاماً فتوهموا في فطرتهم ما ليس في سواهم من المناقب والسجايا كما توهم الرومان قبلهم وكما يتوهم أهل هذا العصر في بعض الامم السائدة فيعتقدون امتيازها باصل فطرتها عن سائر الامم - وكان فضل العرب على سواهم يعد قضية مسلمة لا تحتاج الى دليل . فلما بالغ بنو امية في الاستخفاف بغير العرب بعد ان ذهبت دهشة النبوة أخذ هؤلاء في التذمر ونصروا آل علي وغيرهم من أعداء الامويين ونشأت طائفة لا تعترف بفضل العرب تعرف بالشعوبية لم تظهر الا في الدولة العباسية بعد ان انحط شأن العرب

وبدأ انحطاط شأن العرب على الخصوص بعد الاختلاف الذي وقع بين الامين والمأمون اذ استنصر المأمون الفرس على العرب رجال أخيه وكانت الغلبة للمأمون . فانحط شأن العرب وصار الخلفاء يعولون بعده على الاستعانة بالاعاجم وخصوصاً الاتراك واخذوا يجندونهم

خدمة الاتراك في الجند الاسلامي

يبدأ دور الخدمة منذ فتحت تركستان على عهد الامويين فكان القواد اذا فتحوا بلداً حملوا اسراه وسباياه الى اهلهم أو باعوهم لمن يحملهم الى الاطراف فيباعون بيع الرقيق . ولما افضت الدولة الى العباسيين كانت تركستان تؤدي الجزية والخراج فكان العمال يحملون في جملة الجزية اولاداً من أهل بادية تلك البلاد يبيعونهم للرق وهم في الغالب من السبي او الاسرى على جاري العادة في تلك الاعصر . وقد يختص الامراء باحسنهم فيخدمون في دورهم مع غيرهم من ارقاء الامم الاخرى ويعرفون بالمماليك

وكان الاتراك يمتازون عن سائر الامم التي دانت للمسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة في رمي النشاب والصبر على الاسفار الشاقة فوق ظهور الخيل والثبات في ساحة الحرب فاتخذ منهم الخلفاء بالتدريج جنداً واول من استخدمهم في الجندية من

الخلفاء المنصور العباسي ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لا شأن لها في الدولة وانما كان الشأن الاكبر يومئذ للخراسانيين (الفرس) والعرب . ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس في ايام الرشيد وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الامين وتسلط الفرس انصار المأمون واخواله واستبدوا في الدولة كانت الحضارة قد اضرت بالمسلمين واذهبت منهم قوة التغلب والفتح . ففكر المعتصم اخو المأمون في ذلك قبل ان تفضي الخلافة اليه وكانت امه تركية وفيه كثير من طبائع الاتراك التي ذكرناها مع الميل اليهم لانهم اخواله كما كان يميل المأمون الى الفرس

وشاهد المعتصم جرأة الفرس وتطاولهم بعد قتل اخيه الامين فاصبح يخافهم على نفسه ولم يكن له ثقة بالعرب وقد ذهبت عصبيتهم واخلدوا الى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم فرأى ان يتقوى بالاتراك وهم لا يزالون الى ذلك العهد اهل بداوة وبطش مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش . فجعل يتخير منهم الاشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم في العراق او يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها فاجتمع عنده عدة آلاف وفيهم جمال وصحة فالبسهم اثواب الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وميزهم بالزي عن سائر الجنود وبذل العناية في تدريب جنده هذا وبنى لهم مدينة سامرا واطلق لهم الاعطية فاعتنقوا الاسلام وتحضروا ولم يقتصر على اقتناء المماليك لكنه رغب كثيرين من الامراء واولاد الملوك في القدوم اليه فاشتد ساعد الاتراك وقويت شوكتهم وغلبوا على امور الدولة خصوصاً بعد ان انقذوا المملكة من بابك الخرمي وفتحوا عمورية في عهد المعتصم . فبعد أن كان النفوذ للوزراء الفرس صار الى الاتراك واصبحت ازمة الدولة العباسية بعد المعتصم في ايديهم ولا سيا بعد ان قام المتوكل لمقاومة الشيعة فزاد في تقديم الاتراك لانهم كانوا عونه على ذلك . ثم اغراهم ابنه المنتصر (او هم أغروه) على قتله فقتلوه وكان ذلك أول جرأتهم على الخلفاء . وولوا المنتصر بعده ولم تطل مدة حكمه اكثر من بضعة اشهر فمات وضميره يخزه . وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨ هـ ثم المعتز بالله سنة ٢٥١ هـ وقد استفحل امر الاتراك استفحالاً عظيما — ومما يحكى عن استبدادهم في الخلفاء انه لما تولى المعتز قعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم « انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة » وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال « انا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره

وخلافته » فقالوا له « فكم تقول انه يعيش وكم يملك » قال « مهما أراد الأتراك »
فلم يبق في المجلس الا من ضحك

وقد قتلوا المعتز هذا شرَّ قتلة فانهم جرّوه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه في الشمس بالدار فكان يرفع رجلاً ويضع اخرى لشدة الحر وبعضهم يلطمهُ بيده . والمستكفي سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس وبلغ من فقر القاهر بالله انهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفي رجله قبقاب خشب - فلا غرو اذ اصبح الخلفاء آلة في ايدي الأتراك اذا تنازعوا على السلطة كان الخليفة مع الحزب الغالب وبعد ان كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم

فبهذا وامثاله انحط شأن العرب وقيل عنهم « لا يفلح العربي الا اذا كان معه نبي ينصره » واشتد ازر الأتراك فتدرجوا من الاستبداد في دور الخلفاء الى انشاء الدول فانتقلوا من الخدمة في دول العرب الى السيادة على العرب وغير العرب

سيادة الأتراك في القرون الوسطى

بدأت سيادة الأتراك بأنشاء الامارات في ظل العباسيين واقدم اماراتهم الطولونية فالايلكية فالاخشيدية فالغزنوية ثم انشأوا الدول الكبرى واولها الدولة السلجوقية وفروعها في فارس وتركستان واسيا الصغرى والشام والعراق وغيرها ثم دول السلاطين المماليك في مصر والشام واخيراً الدولة العثمانية وبها يدخل تاريخ الاسلام في دور جديد . لانها اتت والعالم الاسلامي قد تمزق وتضعضع بما أنتابه من صدمات المغول وغيرهم فجاءت هذه الدولة في ابان الحاجة اليها فافتتحت القسطنطينية وقد يئس المسلمون من فتحها بعد أن حاولوه مراراً . وحارب العثمانيون أعظم ملوك أوربا وطاردوهم الى بلاد المجر وحاصروا فينا عاصمة النمسا وأخذوا الجزية من الارشيدوق فرديتان واكتسحوا البحر الابيض الى شواطىء اسبانيا فارتعدت أوربا خوفاً منهم. وفتحوا المشرق الى العراق ثم ساروا جنوباً غرباً حتى فتحوا الشام ومصر وفيها بقية الدولة العباسية فتنازل العباسيون لهم عن الخلافة فامتدت مملكتهم في ايام السلطان سليمان (سنة ٩٢٦ - ٩٧٤ هـ) من بودابست على ضفاف الطونة الى أصوان على ضفاف النيل ومن الفرات بالعراق الى بوغاز جبل طارق . فاجتمع العالم الاسلامي الغربي تحت جناح الدولة العثمانية ولا يزال . وكان اجتماع الخلافة

والسلطة فيها سبباً لطول بقائها اكثر مما تقدمها من الدول الاسلامية حتى العباسيين مع طول مدة ملكهم لان سلطتهم أصبحت بعد القرن الثالث من انشاء دولتهم اسما بلا رسم . والدولة العثمانية أول دولة اسلامية غير عربية جمعت بين الخلافة والسلطة ووافقها المسلمون عليه

أما العنصر العربي في أثناء ذلك فقد كان ضعيفاً الا في الاندلس الى زمن محدود . وحاول النهوض في أثناء الدولة الفاطمية بمصر فلم يكد ينهض حتى غلب عليه الاكراد فالأتراك فسقط ولم يقم للعرب قائمة في الدولة الاسلامية من ذلك الحين — الا ما أبدته بعض القبائل من النهوض في بلاد العرب أو غيرها بدعوة سياسية أو دينية كقيام الوهابية في نجد والدراويش في السودان . ولما عزم محمد علي باشامؤسس العائلة الخديوية على انشاء دولة اسلامية كبرى في اوائل القرن التاسع عشر أراد أن يستعين على انشائها بعصبية اسلامية وأقوى العصبيات بمصر يومئذ الترك والعرب وكانت العصبية التركية للدولة العثمانية فاختار عصبية العرب فحامت الآمال حوله وخصوصاً بعد حربه الوهابية واجتماعه بشريف مكة وغيره من رؤساء القبائل . فاحيا العنصر العربي ونشطالعصبية العربية بما أنشأه من المدارس والمطابع أو نشره من الكتب . فكان للعرب نهضة قلما أفادته في غرضه السياسي لما حال دون مطامعه من أغراض دول الافرنج في المملكة الاسلامية . ولكنها أفادت أهل الشرق من العرب فائدة أدبية علمية بتمهيد السبيل للنهضة التي نحن فيها

القسم الخامس
في اللغة والادب والصحافة

الاكاذيمية العربية[1]

اللغة كائن حي خاضع لناموس النشؤ والارتقاء تنمو بالدثور والتجدد والتحول والتولد على ما تقتضيه الاحوال الاجتماعية والعلمية والسياسية . وللغة العربية تاريخ يؤيد هذه الحقيقة . ولو توفرت لنا اسباب البحث لرأينا لكل لفظ تاريخاً مرَّ به في ادوار يسر وعسر وتقلب بين السعادة والشقاء . وان الوفاً من الالفاظ ماتت واندثرت وقامت الوف اخرى مقامها . ويغلب ان يصيبها ذلك على اثر الانقلابات الاجتماعية أو العلمية أو غيرها فيصيب اللغة تغير يلائم احوال المتكلمين بها . واهم التغيرات التي اصابت لغتنا في عصر التاريخ وقع في صدر الاسلام على اثر الانقلاب الديني بحدوث المعاني الدينية والاجتماعية . يليه تغير رافق الانقلاب السياسي بانشاء الدولة الاسلامية والحضارة الاسلامية في انحاء العالم العربي . وتغير اقتضاه نقل العلوم من اللغات الاعجمية بما فيها من المصطلحات العلمية . غير ما استلزمه اختلاط العرب بالامم الاخرى من اقتباس الالفاظ والمعاني مما يطول شرحه

وانما نريد الآن التغيير الاخير الذي اقتضاه دخولنا في المدنية الحديثة اقتداء بالافرنج . فنقلنا علومهم وفنونهم وقلدناهم في كثير من آدابهم الاجتماعية وأحوالهم السياسية والادارية فاقتبسنا معاني كثيرة لا نعرف لها الفاظاً عربية تؤديها . فنهج كل كاتب منهجاً في النقل أو التعريب فاختار بعضنا للمعنى الحديث لفظاً يرى انه يؤدي الغرض المطلوب واختار غيره غيره . فاختلفت مختاراتنا وتضاربت حتى أصبح للمعنى الواحد عدة الفاظ على ما تراءى للناقلين . فبعضهم وضع لفظاً من عند نفسه والبعض الآخر استخرجه من كتب العرب القدماء ومنهم من استبقى اللفظ الاعجمي على

---

(١) عن الهلال سنة ٢١ صحيفة ١٠١

حاله . فادى ذلك الى فوضى الانشاء وتضليل القراء واصبحت اللغة في حاجة الى من ينظر في أمرها ويتلافى الخطر الذي يهددها . واليك أمثلة من بواعث تلك الحاجة

الالفاظ العلمية : يدخل فيها مصطلحات العلوم الطبيعية وما تفرع منها على اختلاف مواضيعها مما حدث أو اتسع في هذا العصر كالطبيعيات والكيمياء والتاريخ الطبيعي والجيولوجيا والفيسيولوجيا . وعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد السياسي والفلسفة الادبية والعقلية وغيرها . فان لكل من هذه العلوم مصطلحات لفظية لمعان حدثت في هذا العصر لم يكن العرب يعرفونها فلم يكن لها الفاظ في لسانهم . أو ربما كان لها الفاظ أهملت بتوالي الاجيال فلا نصل اليها الا بالبحث والتنقيب . وقد اشتغل المترجمون في النهضة الاولى على أيام محمد علي في التنقيب عنها فاستخرجوا كثيراً منها أدخلوه في مترجماتهم . وفعل مثل ذلك أيضاً المشتغلون بنقل هذه العلوم في المدرسة الكلية الاميركية في بيروت . ولكنهم اختلفوا في كثير من المصطلحات التي وضعوها للمعاني المتشابهة فاختار هولاء لفظاً لهذا المعنى واختار اولئك غيره وكلاهما اتصل اليه بالاجتهاد فمن مصطلحات علم النبات مثلاً :

الاصطلاح المصري	الاصطلاح السوري	الاصطلاح المصري	الاصطلاح السوري
الفصيلة الخيمية	الصيوانية	الرقص السنجي	الخوريا
الغاب	القصب	حنف القدم	قدم فدعاء
توت	كيش	مغص معوي	قولنج
زر	برعم	الجسم المندمل	الجسم الصلب
عضو التذكير	السداة	عين السمكة	مسمار
الريشة	سويق الجنين	داء الحرقفة	مرض الورك
الشيكوريا	الهندباء	لحين	كرياتين
جذر كروي	قرم	حمى الدنج	ابو الركب
لفافة ظرفية	كويس	غروين	املسين
ذنيب	رجيلة او زند	سيانوز	الزوارق
خيط عضو التأنيث	قلم	بشرة مخاطية	ابثيليوم
الشوكران	الكونيوم	طفح جلدي	نفاط
خوخ	دراقن	هربس	قوبا

الاصطلاح المصري	الاصطلاح السوري
عضو التأنيث	مدقة
برقوق	خوخ
طلع	بلن
توت أرضي	كبش القش
عرق الذهب	ايبكاك
القرنفل العطري	كبش قرنفل
ليفين نباتي	كاوتن
ومن المصطلحات الطبية	
التسمم الكحولي	هذيان السكارى
الذباب الهندي	الذراح
المنستر	الكستوريوم
منُّ القيطس	منّ الغاطوس
مدة التفريخ	مدة الحضانة
الم عصبي	نقرالجيا
نتانة الفم	بخر
قفاعة	نجل
التهاب رئوي	ذات الرئة
ضربة الشمس	رعن
ومن مصطلحات الطبيعيات وغيرها	
الجير	الكلس
القوة المركزية	قوة التباعدعن المركز
حلزوني	لولبي
عتلة	مخل
زيغان النور	استقطاب النور

وقس على ذلك سائر المصطلحات التي نقلوها يومئذٍ . ولا يخفى ما يترتب على هذا الاختلاف من الالتباس . واعتبر ذلك ايضاً في الالفاظ الادارية وفي جملتها مصطلحات الحكومة فان بين مصطلحات الحكومة المصرية والسورية بوناً عظيماً . وأمرها مشهور لا يحتاج الى بيان . وهكذا يقال في العلوم الحادثة لهذا العهد وقد أخذ الكتاب في نقلها الى العربية كعلم الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع وعلم النفس (البسيكولوجيا) ونحوها . فهذه لا بد من اختلاف الناقلين في انتقاء الالفاظ المؤدية لتلك المعاني . وبعضها يحتاج الى اعمال الفكرة قبل تعريبه مثل قولهم من مصطلحات علم النفس Subconscious و Subjective و Objective و Association وقولهم من اصطلاح علم الاجتماع Genetic و Telic و Institution و Régime

المصطلحات السياسية : وناهيك بالمصطلحات السياسية والصحافية التي كثيراً ما يلتبس فيها النقل لعدم الاتفاق على لفظ معين لها . فلم تتفق حتى الآن على لفظ يميز بين Conference وCongress وبين Entente و Alliance وبين Convention و Treaty وبين Souverain و Suzerain وبين Colonie و Dependance

وبين Marine و Sailor وقس على ذلك مصطلحات الجندية البرية والبحرية كقولهم Yeomanry و Miltia وأسماء السفن الحربية كالطرادة والنسافة والمدمرة ونحوها فان كثيراً منها لا يزال ملتبساً . ومن هذا القبيل المصطلحات المالية والادارية كقولهم Deposit و Crédit و Exchange ونحوها مما لم تتفق على الفاظ عربية تؤديه بلا التباس . وهكذا في سائر المصطلحات العصرية

الالفاظ المولدة : وهناك طائفة من الالفاظ العربية المولدة اقتضاها سير التمدن الحديث ولانجد بدلا عنها في اللغة الفصحى مما استعمله العرب قديماً ولانجدها في كتب اللغة. مثال ذلك لفظ «معجم» بمعنى قاموس فان أصل معناها «النقط بالسواد» ومنه حروف المعجم وهي الحروف المقطعة التي تختص أكثرها بالنقط من بين حروف سائر الامم . فصار معناها بالاستعمال الكتاب المرتبة مواده على أحرف الهجاء مثل لفظة « قاموس » وهذه ايضاً ليست أصلية لهذا المعنى فانها وضعت في الاصل اسماً لمعجم الفيروزابادي . وأصل معناها البحر او أبعد موضع فيه سمى الفيروزابادي كتابه به لمحيط اتساعه ثم أطلق على كل معجم . وكان العرب يسمون القواميس « كتب اللغة » . وقولهم « الوظيفة » بمعنى المنصب فان هذا اللفظ ليس له هـذا المعنى في القاموس . ولـكن جماعة من خيرة الـكتاب استخدموه له وفي جملتهم ابن خلدون والمقريزي . وقس على ذلك طائفة كبيرة من الالفاظ العربية يستعملها الـكتّاب في أثناء التمدن الاسلامي لمعان جديدة لم يذكرها القاموس فهذه ينبغي ضبطها واعتبارها مولدة كما فعل علماء اللغة بغيرها من نوعها

فاللغة بهـذا الاعتبار في حال من الاضطراب والتشويش لا تخرج منها الا اذا بادرنا الى اصلاحها . وهذا العمل لا يستطيعه فردٌ واذا استطاعه فلا يرجى أن يتبعه الـكتاب في ما يراه أو يذهب اليه . لان كل كاتب مفتون ببنات أفكاره فلا بد من جمعية تتولى هـذا العمل . وقد شعر أدباء اللغة بهذه الحاجة فالفوا الجمعيات لهذا الغرض منها المجمع العلمي الشرقي في بيروت والمجمع اللغوي العربي بمصر منـذ بضع وعشرين سنة . واهتم نادي دار العلوم بهذا الموضوع أيضاً منذ بضع سنوات فقرر الفاظاً ومصطلحات كثيرة لـكنها لم تشع على اقلام الـكتاب اذ لم يكن لها صفة رسمية. فلا بد من تأليف جمعية تكون لها صفة رسمية وهـذا ما أردنا اقتراحه على نظارة المعارف المصرية

نظارة المعارف

اما اختصاصنا نظارة المعارف المصرية بهذا الاقتراح فسببه ان مصر كما قلنامراراً هي مركز العالم العربي وما برحت ملجأ اللغة العربية من قرون متباعدة وهي التي حافظت على الآداب العربية في اثناء عصر الانحطاط . وهي التي بدأت بالنهضةالعربية في اثناء هذا التمدن . واقتدت بها البلاد الاخرى في الشام وغيرها . وهي اليوم أرقى البلاد العربية مدنية وصحافة وأدباً . فبعد أن ضربت الذلة على هذه اللغة أصبحت مصر ملجأها الوحيد للخروج من هذا المأزق ولا سيما بعد ان أخذ سعادة ناظر المعارف في احياء الآداب العربية . وهو أول من تصدى لذلك من وزراء هـذه النظارة كما يتضح لك مما يلي :ـ

توالى على نظارة المعارف بضعة عشر ناظراً اولهم مختار بك أحد المتخرجين في اوربا من زمن محمد علي تولاها سنة ١٨٣٦ وآخرهم لهذا العهد حشمت باشـا . فالنظارة تأسست منذ ٧٦ سنة تقلبت في اثنائها على اربعة ادوار :

الدور الاول : يبدأ من ولاية محمد علي برئاسـة مختار بك المذكور وينتهي في زمن الخديوي اسماعيل .وكانت تلك النظارة تعرف في اثناء ذلك الدور باسم « ديوان المدارس » وكان أعضاؤه من ابناء المصريين والارمن الذين تخرجوا في مدرسـة باريس بامر الحكومة المصرية وبعضهم من الفرنساويين . وكان الغرض الاول من انشاء هذا الديوان التـدريس الحربي لاخراج ضباط مصريين . ثم اتسعت دائرة التعليم فانشأوا المدارس المختلفة من ابتدائية وعالية للضباط والموسيقى والمشاة والفرسان والطبجية والبحرية والطب والهندسة والـكيمياء والزراعة والالسن وغيرها. وكانت قاعدة التدريس فيها اللغة العربية فنبغ العلماء والاطباء والفوا في كل علم وفن باللغة العربية ولا تزال أمثلة من مؤلفاتهم في المكتبة الخديوية حتى الآن

الدور الثاني : يبدأ بنهضة التعليم الثانيـة في زمن اسماعيل وينتهي بالاحتلال . وفيه تشكل مجلس النظار سنة ١٨٧٧ على الشكل المعروف الان . وتحددت النظارات وفي جملتها « نظارة المعارف » بدلاً من « ديوان المدارس » . وكان اسماعيل رغاباً في انشاء المدارس فاكثر منها على يد وزيره علي باشا مبـارك واتسعت دائرة العلوم والفنون . ثم افضت الولاية الى المغفور له توفيق باشا وفي أيامه حدثت الثورة العرابية

التي أفضت الى الاحتلال الانكليزي

الدور الثالث : يبدأ بالاحتلال وينتهي بوزارة حشمت باشا الوزير الحالي . وحدث في أثناء هذا الدور تغيرات هامة في التدريس وطرق التعليم أهمها ان التعليم تحول فيها من اللغة العربية الى اللغات الافرنجية الانكليزية اوالفرنساوية .وانصرفت العناية من التعليم العالي الى الابتدائي بانشاء الكتاتيب ونحوها . واقفلت الارساليات الى اوربا وابطل التعليم المجاني وقلت العناية بتعليم آداب اللغة العربية . فكان لذلك وقع سيء لدى الامة وارتفعت أصوات الجرائد والمجلات تطلب ملافاة ذلك . فاقترحت الجمعية العمومية على الحكومة سنة ١٩٠٧ أن تجعل تعليم العلوم في مدارسها باللغة العربية فاجابها ناظر المعارف يومئذ سعد باشا زغلول يعتذر بتعذر ذلك ويبين أفضلية التعليم باللغات الاجنبية بالنظر الى حالة مصر . لكنه وعد أن يبذل جهده في اجابة طلبهم . وقد فعل لكنه لم يستطع شيئاً كثيراً

الدور الرابع : وهو الذي نحن فيه يبدأ باسناد هذه النظارة الى حشمت باشا . ويمتاز هذا الدور عما تقدمه بامور أهمها :

١ انه جعل التعليم في المدارس المصرية بالعربية في مدرسة الزراعة بالجيزة وفي مدرسة مشتهر المتوسطة التي انشأها . ومدرستي التجارة والمحاسبة . فضلاً عن المدارس الابتدائية والثانوية . فان التعليم فيها أصبح كله باللغة العربية

٢ انه أعاد قلم الترجمة لتعريب الكتب كما كان في زمن المغفور له محمد علي باشا وقد ترجم في السنتين الماضيتين ١٢ كتاباً في فنون مختلفة

٣ أدخل علوماً جديدة فنيـة تلائم حال الجمهور من حيث اعمالهم اليوميـة وارتزاقهم ومن حيث ترقية أخلاقهم وآدابهم

٤ اخذ في احياء آداب اللغة العربية . وهذا لم يتصد له وزير قبله فقرر طبع بعض الكتب العربية النادرة وأخذ في اصلاح المكتبة الخديوية . وكثيراً ما سمعناه يشكو من حال اللغة العربية واحتياجها الى الاصلاح أو الضبط ولذلك تجاسرنا على عرض هذا الاقتراح عليه

الاقتراح

نقترح على سعادته انشاء مجمع علمي او اكاذيمية تتولى هذا الاصلاح وغيره مما

يسهل عليه الطريق الذي يسعى فيه لاحياء الآداب العربية . كما فعلت الدول المتمدنة في اوروبا منذ أجيال . فما من دولة متمدنة الا ولها اكاذيمية لهذا الغرض أشهرها الاكاذيمية الفرنساوية التي انشأها ريشليو وزير لويس الرابع عشر في القرن السابع عشر . والاكاذيمية الانكليزية نعني جمعية الاداب الملوكية أنشأها الملك جورج الرابع سنة ١٨٢٥ وقد الفوا منها سنة ١٩١٠ لجنة سموها اللجنة الاكاذيمية على نسق الاكاذيمية الفرنساوية . الغرض منها النظر فيما تحتاج اليه اللغة الانكليزية وآدابها من الاصلاح في الانشاء والالفاظ والاخذ بناصر الادباء وتنشيطهم وتقدير الجوائز لمستحقي المكافأة منهم وغير ذلك . وهكذا يقال في سائر العالم المتمدن

فنقترح انشاء مجمع أو جمعية او اكاذيمية الغرض منها اصلاح اللغة العربية وضبط ما دخلها أو يدخلها وما تولد أو يتولد فيها من الالفاظ الحديثة على شكل يعم استعماله في العالم العربي . لاننا نعلم بالاختبار الطويل أن كتاب اللغة العربية في أنحاء العالم كله حتى في فارس والهند وغيرها يشعرون بهذه الحاجة . ولذلك فالذي نراه ان تتألف هذه الاكاذيمية من أهل الادب على اختلاف طبقاتهم . بحيث يكون فيها العالم اللغوي والكاتب الصحافي والباحث الطبيعي والطبيب والمؤرخ والشاعر وعارفو اللغات الشرقية وامهات اللغات الافرنجية ولا سيما اليونانية واللاتينية . وان يكون لهذه الجمعية أعضاء مراسلون في أطراف العالم العربي يشتركون في هذا العمل . فيعرضون ما يرون الحاجة ماسة الى اصلاحه او أدخاله او تعريبه من الالفاظ أو المعاني او نحت الالفاظ الجديدة التي يصعب تصريفها مثل تلغراف وتلفون فتشتق لها افعالاً من لفظها يسهل استعمالها ونحو ذلك

والاكاذيمية تنظر في ما يعرض عليها من الالفاظ او الاوضاع وتعين اللجان اللازمة لدرسها وتقريرها . ثم تعرض ذلك على الجمعية فما أقرت على استعماله بالاكثرية يعلن في الصحف ويدون في الكتب المدرسية بمصر . وينشر في سائر العالم العربي بواسطة الاعضاء المراسلين. ثم تشتغل بوضع معجم على النسق الحديث بحذف الالفاظ المهملة الضخمة التي حكم عليها ناموس الارتقاء بالدثور واضافة الالفاظ الجديدة من المعرب او المنقول او المنحوت او المولد مما تكون الجمعية قد قررته. وترجع في مواد القاموس الى اصولها التحليلية فتبين أصل كل مادة من أي لغة هو . وتتسع أعمال هذه الاكاذيمية مع الزمان بحيث يكون لها ما للاكاذيميات الافرنجية من تقرير الجوائز

المالية او الفخرية او الاخذ بناصر الادباء في نشر آثارهم او غير ذلك مما لا يمكن تعيينه الآن . اذ من العبث أن نطيل الكلام في موضوع لا يزال في حيز الفكر . فاذا حاز هذا الاقتراح قبولاً عدنا اليه وتوسعنا في درسه . ويحسن بالادباء الخوض فيه لاستجلائه بالبحث والمناقشة والله ولي الامر

حرية الصحافة (١)

في انكلترا ومصر

١ — الحرية على الاجمال

تقسم الحرية في نظر علماء الاخلاق الى حرية الفكر وحرية القول وحرية العمل . وقد يستغرب بعض أهل هذا الجيل قولنا « حرية الفكر » وكيف لا يكون الانسان حراً في فكر أي ان يفتكر كما يشاء اذا كان لا يقدر أن يقول او يفعل كما يشاء . ولكن أهل الاجيال الوسطى ومن كان على شاكلتهم من المقيدين بالعادات او الاعتقادات اولئك وأمثالهم لا يفتكرون كما يريدون لانهم تعودوا الطاعة المطلقة والتسليم الاعمى لرؤسائهم أو أساتذتهم أو كهنتهم فلا يصدقون غير ما غرسوه في أذهانهم ولو كان مخالفاً لاحكام عقولهم وهو ما يعبر عنه بالتعصب الاعمى . ولولا ذلك لرأيت هداية الناس الى الصواب هينة ولكنها صعبة وأصعبها ما كان من قبيل الاعتقاد الديني فان الانسان حريص على معتقده مثل حرصه على كرامة نفسه وقد يرى الخطأ في جانبه فيغالط نفسه ويقيد فكره دفاعاً عن معتقده الذي اصبح جزءاً من حياته ولا يزال مكابراً حتى تجرد السيوف وتسيل الدماء — وكم سفكت في هذا السبيل دماء أهل الاجيال المظلمة . واذا نظرنا في سبب الخصام بفكر حر رأيناهم كانوا يختصمون على الاوهام

وقد يصل تقيد الفكر الى المكابرة بالحق الواضح مما يقع تحت الحواس الظاهرة كالقول مثلاً بدوران الارض فقد اضطهد صاحب هذا الرأي حتى اتهم بالكفر قبل شيوع مذهبه — ذلك كان شأن الامم من قديم الزمان وكانت افكارهم صدى افكار

(١) عن الهلال سنة ١٦ صحيفة ٢٦

قادتهم أو زعمائهم أو أساتذتهم فيدفعون كل فكر يخطر لهم اذا لم يوافق ما غرس في أذهانهم

ويمتاز عصر التمدن الحديث عن سائر الاعصر الماضية بشيوع الحرية فكراً وقولاً وفعلاً . فأخذ الناس منذ بضعة قرون يطلقون العنان لافكارهم ولو خالفت ما قبلها وهم لا يخشون بأساً ولا رقيباً . اما القول والفعل فلا يتيسر اطلاق الحرية فيهما لئلا يؤدي الى الاذى بالآخرين . ولتقييد تلك الحرية اقيمت الحكومات وسنت القوانين وفرضت الشرائع وكان أهل الاعصر الماضية اكثر تقيداً منا فكراً وقولاً وفعلاً لان التقاليد حبست افكارهم والقوانين قيدت اقوالهم وافعالهم والحكومات الاستبدادية ضيقت عليهم طرقهم . فلما اطلقت قيود الافكار بعد عصر الاصلاح تبعتها قيود الاقوال والافعال وقد جاهدت الامم المتمدنة في سبيل كسر تلك القيود جهاد الابطال . ويدخل في حرية العمل ان تنجو الامة من سلطة الاجانب وتقبض على حكومتها بيدها فتخدم بلادها بحريتها كما فعلت اميركا بالنجاة من سلطة انكلترا

ويترتب على حرية القول أن يقول الرجل ما يخطر له او يراه . ويدخل تحتها حرية التأليف — وكان التأليف قبل عصر الطباعة مقيداً بارادة الرؤساء يراعي المؤلف فيه ما يرضي الملك او الامير او الرئيس او يميل فيه الى ما يوافق غرضه او غرض بعض محبيه . وقلّ من الف كتاباً بحرية تامة الا في العلوم التي لا سبيل لمراعاة الخاطر فيها . اما كتب التاريخ والادب فاكثرها كتب ارضاء لرئيس او حزب او جماعة التماساً للجائزة او فراراً من العقاب — حتى في عصر التمدن الاسلامي فقد كان لارادة الملوك او الخلفاء او الامراء دخل في المؤلفين والمؤلفات ولذلك رأيت الكتاب في عصر الدولة العباسية سكتوا عن حسنات بني أمية ولم يذكروا الا سيئاتهم ارضاء للخلفاء العباسيين وقس على ذلك

ويدخل في حرّية القول أيضاً حرية المطبوعات على العموم والصحافة على الخصوص لانها عبارة عن اطلاق الحرية للكتاب أن ينشروا ما يقولونه — وهو موضوع بحثنا

٢ — حرية المطبوعات

لم تنل امم اوربا حرية المطبوعات الا بعد جهاد عظيم مثل جهادهم لنيل الاستقلال

ونحن لا نستطيع تصور ذلك الجهاد لاننا لم نجرب هذا ولا ذاك ولان حرية الصحافة أتتنا غنيمة باردة مثل سائر أسباب المدنية الحاضرة . فقد وصلتنا العلوم والمصنوعات والاختراعات ناضجة تامة فاقتطفنا ثمارها ونحن نيام . اما اصحاب هذا التمدن فقد بذلوا النفس والنفيس وضحوا بالمال والرجال قبل الحصول عليها . كانت الاقوال مقيدة قبل عصر الطباعة بقوانين كنائسية تمنع الناس التكلم او الكتابة الا ضمن حدود معينة ومن اسلحة هذه القوانين ديوان التفتيش . وكانت الحكومة تعضد الكنيسة في تقييد الاقوال وكان مجلس الاعيان في بلاد الانكليز يساعد الكنيسة في هذا التقييد فلا يؤذن لواعظ ان يخطب الا برخصة خصوصية . فلما اخترعت الطباعة انحصرت مراقبة حرية القول بالحكومة فاصبحت لا تسمح بطبع كتاب او صحيفة الا باذن منها يتناوله المؤلف ويكون بيده شبه حق يحصر منفعة الكتاب به

ولنتتبع تاريخ حرية المطبوعات في انكلترا ـ فقد كانت مراقبتها تأول اما الى منع الكاتب من نشر كتابه بالكلية او تأذن بنشره بعد تنقيحه أو تعاقب ناشره اذا نشره بدون اذنها . وكانت تشدد على الخصوص في منع نشر ما يدور في مجلس البرلمان من المباحثات او ما هو من قبيل اجراءات الحكومة ويعاقب الناشر بالقتل . وفي عهد الملكة ماري سنة ١٥٥٦ حصرت الحكومة الانكليزية حق الطبع والنشر بشركة تشكلت يومئذ لهذه الغاية . وأصدرت الحكومة سنة ١٥٨٥ امراً بحصر الطباعة في لندن واكسفورد وكمبريدج على أن لا يتجاوز عدد الطابعين ٢٠ طابعاً ومعهم أربعة من سابكي الحروف ولا تطبع شيئاً الا برخصة خصوصية . واذا اتهم احدٌ انه طبع شيئاً بلا رخصة عمدت الى يده وفتشته بالقوة على يد موظف يسمونه « رسول المطابع » . وشددت في منع ادخال الكتب المطبوعة في الخارج اذا كانت من قبيل الجدل الديني او الانتقاد على الحكومة او الكنيسة . وعينت لمراجعة الكتب قبل طبعها مراجع معينة حسب المواضيع : فالكتب القضائية تؤخذ الرخصة بطبعها من رئيس القضاة وكتب التاريخ يأذن بطبعها أحد نواب نظارة الداخلية والكتب العسكرية يأذن بطبعها قائد الجند العام . وأما كتب الدين والفلسفة والشعر ونحوها من الادبيات فيرجع بها الى رئيس اساقفة كنتربري

وفي أواسط القرن السابع عشر عهد النظر في مراقبة المطبوعات الى البرلمان فعين أناساً يراقبونها تحت مناظرة الشركة التي تقدم ذكرها . وتجددت قوانين المراقبة

سنة ١٦٨٠ بعد أن نظر فيها ١٢ قاضياً فقرروا « ان كل من يكتب او يطبع او يبيع مطبوعات فيها طعن على الناس أو على أحدهم تحجز ويعاقب صاحبها حسب القانون وكذلك ما يمس الحكومة وان يعاقب كتبة الاخبار على التحريف في نقلها وان لم يكن فيها طعن او قذف »

وكانت رخصة الطبع تعطى لمدة سنتين فجعلوها لسبع سنين. وللطباعة علاقة كبرى بالصحافة فلننظر في نيل هذه الحرية عن طريق الصحافة :

٣ ــ حرية الصحافة في انجلترا

كانت الصحافة الانكليزية في اول امرها تابعة باحكامها لسائر المطبوعات حتى اذا تولى جورج الثالث ملك انكلترا مع ضعف رأيه وشدة عناده ورغبته في تولي امور الدولة بنفسه دون البرلمان اضطربت انكلترا وفشت الرشوة فيها وأصبحت المناصب تباع باسعار محددة حتى عضوية البرلمان . فاصبح الشعب لا يأمن على مصالحه لانه ضاع بين عناد الملك وكبرياء مجلس الاعيان وارتشاء مجلس العموم فاصبح لايثق باحدى هذه القوات الثلاث فلجأ الى قوة رابعة اسعفته ونصرته وانالته مراده وهي « الصحافة » وكانت الى ذلك العهد تحت المراقبة مثل سائر المطبوعات . ولكن الشعب كان قد ارتقى وتشرب روح الحرية الشخصية وآن له أن يفتكر بحرية ويقول بحرية وكتاب الصحافة من ابناء العامة يشعرون بما يقاسيه اخوانهم من الضغط فاخذت الصحافة على عاتقها المناداة بشكوى العموم من اعمال الملك ووزرائه ومجلس البرلمان

واتفق في أثناء ذلك ان الحكومة الانكليزية عقدت مع فرنسا معاهدة باريس سنة ١٧٦٣ وفيها ما فيها من الاجحاف بمصالح الانكليز فالشعب لم يكن راضياً عنها . وكان بين الصحف يومئذٍ صحيفة اسمها « نورث بريتون » يحررها عضو في مجلس العموم اسمه جون ويلكس فانتقد تلك المعاهدة وطعن على ارل بوت رئيس الوزارة لانه رضي بها وهي اول مرة تجرأ صحافي أن ينتقد وزيراً انتقاداً صريحاً ويسميه باسمه فتحدث الناس بذلك وتناقلته الصحف وهاج الرعاع حتى اضطر الارل المذكور أن يستقيل من منصبه

فخاف الملك جورج أن يصيبه ما أصاب وزيره ورأى ان وزرائه لا تقوى على نصرته بين يدي هذا التيار العظيم فلجأ الى مجلس العموم وقدم الى وليم بت زعيم

ذلك المجلس أن يشكل وزارة جديدة . فرأى بت أنه عاجز عن مناهضة الشعب فاشترط على الملك إذا شكل هو الوزارة أن يجعل أعضاءها ممن يرضاهم الشعب. فأبى الملك وعهد بتشكيلها الى جورج غرانفيل فشكلها وأعضاؤها من الحزب الضعيف رأياً وفعلاً وأول عمل عزمت عليه تحكيم الصحافة وتأييد سلطة البرلمان في وضع الضرائب على المستعمرة الاميركية كما ذكرناه في مقالة « استقلال اميركا » — ويهمُّ الشعبَ الانكليزي الغاء هذا القرار لانه يمس حرية الجمهور في انكلترا نفسها . وكان الشعب الانكليزي يكره غرانفل كما كان يكره ارل بوت فانقضت عليه الصحف بالطعن والقذف من كل ناحية وكتبت فيه المقالات السياسية الحادة وعرضت فيها بذكر الملك والقت عليه بعض التبعة وأهم ما كتب بهذا الشأن مقالة نشرت سنة ١٧٦٤ في نورث بريتون جريدة جون ويلكس المتقدم ذكره جاء في جملتها « ان خطاب الملك للبرلمان يشتمل على كذب صريح »

فاصدرت الحكومة أمراً مستعجلاً بالقبض على محرر الجريدة وصاحبها وطابعها. فقبض على جون ويلكس وسيق الى سجن برج لندن بدعوى كونه مجرماً سياسياً وحمل الآخرون الى السجون الاخرى تحت الحفظ. ثم انتبهت الوزارة الى تسرعها في مقاصة هذا المذنب وانها فتحت عليها مسألة سياسية دستورية — ولم يكن ويلكس بحد ذاته من الاهمية في شيء ولو لم تضطهده الوزارة وتمعن بمطاردته لمات خامل الذكر ولكن اضطهادها اياه جعل له شأناً كبيراً حتى أصبح نائباً عن مبدإ عظيم الاهمية يتعلق بالحرية والدستور أعني حرية الصحافة وساعده على ذلك ان قلوب الشعب كانت معه لانه كان يعبر عن احساسها . فكان من غريب امره انه وفق الى ثلاثة امور نالها الشعب الانكليزي على يده هي من أعظم أسباب تقدمه أهمها حرية الصحافة وقد ترتب عليها منافع دستورية هامة تتعلق بمجلس الاعيان وعلاقته بمجلس العموم

أما طابعو نورث بريتون فلم يطل حبسهم ونالوا عند خروجهم تعويضاً كبيراً لان القبض عليهم لم يكن قانونياً . وكذلك ويلكس فانه خرج ونال تعويضاً لنفس هذا السبب فاستأنف البرلمان محاكمته وأتى بالادلة على ادانته بجريمة القذف ففر الى فرنسا . وفي اثناء غيابه أصدر البرلمان قراراً باخراجه من عضويته واسقاط كل حقوقه المدنية . وعمد البرلمان والوزارة معاً الى الاستبداد في مقاومة الصحافة فاصدر

غرانفل رئيس الوزارة ماثني حكم ضد الصحف بانذار عمومي هاجت منه البلاد وماجت وثار الشعب الانكليزي بجملته لاعتباره تلك المقاومة ضده لان الصحف انما حكم عليها لانها نصرت مصلحته . فانحاز الشعب الى جانب ويلكس وأصبح شعارهم الذين ينادون به « ويلكس والحرية » فلم يستطع غرانفل الوقوف امام هذا التيار واضطر البرلمان ان يعترف رسمياً بان الانذار العمومي للجرائد غير قانوني ولم تصدر الحكومة الانكليزية انذاراً مثله من ذلك الحين

على أن الحكومة أخذت تعترض سير الصحافة وتسعى في قتلها من جهة أخرى فقررت سنة ١٧٧٦ ضريبة على كل نسخة من الجريدة بنساً ونصف بنس أي نحو سبعة مليمات وزادتها سنة ١٧٨٨ الى بنسين ثم زادتها سنة ١٧٩٤ الى بنسين ونصف وما زالت تزيدها حتى بلغت ضريبة الحكومة سنة ١٨١٥ أربعة بنسات على كل نسخة أي نحو قرشين مصريين فكانت النسخة تباع بسبعة بنسات او ثمانية والناس يطلبون الصحف مهما يكن ثمنها لانهم في شوق الى استطلاع الاخبار وفي حاجة الى تأييد غرضهم . ثم انتبهت الحكومة الى خطأها فانزلت الضريبة الى بنس واحد على النسخة ونصف بنس على الملحق . وكانت قد وضعت على الصحافة ضرائب أخرى على طبعها وعلى اعلاناتها فتأخذ على الاعلان مهما يكن حجمه ثلاثة شلينات ونصف واذا تجرأ صاحب الجريدة على اصدارها بدون الطوابع الناطقة بدفع الغرامة وقع تحت طائلة القصاص فكان صاحب الجريدة في لندن يرسل الورق قبل طبعه الى مصلحة الطوابع ثم يحمله الى المطبعة — فاعتبر نفقات الصحف بما يلحقها من ضريبة الطوابع وضريبة الاعلانات فلا عجب اذا بيعت النسخة يومئذ بثمانية بنسات وهي تباع الآن ببنس واحد . فلم يكن للفقراء سبيل الى ابتياع الصحف مع تشوقهم الى استطلاع الاخبار فكان يشترك جماعة منهم على ابتياع الصحيفة ويتناقلونها ويتدارسونها بالعناية لئلا تتمزق . فاحتال بعض الكتاب على اصدار نشرات في كراريس لم يسمها صحفاً ولايدفع عليها ضريبة وكان يبيع النسخة ببنسين واحتال آخرون حيلاً أخرى لنشر الاخبار بالثمن المعتدل والحكومة تقف في طريقهم وتحاكمهم او تغرمهم مما يطول شرحه

ثم تغيرت السياسة وتولى الحكومة العقلاء فاخذوا في تخفيف الضرائب تدريجاً وتحويلها وتعديلها وتخفيف اجرة البريد حتى صارت الصحافة الانكليزية الى ما هي

عليه الان فضلاً عن حرية الطبع والنشر . وقس على ذلك سائر دول اوربا فان الصحافة حرة في معظمها وقلَّ بينها من نال هذه النعمة الا بعد التعب والعذاب

٤ — حرية الصحافة بمصر

تاريخ الصحافة في الشرق يختلف عن تاريخها في الغرب اختلافاً عظيما فالصحافة الغربية اقتضتها طبيعة العمران بعد ان تمدن الناس وتعلموا وتعددت أحزابهم السياسية واحتاجوا الى ما يذيعون به آراءهم او يطلعون به على آراء الآخرين . فانشأوا الصحف لهذه الغاية والحكومات يومئذ لا تريد نشر الآراء على هذه الصورة خوفاً على اسرارها أو ظهور ما تريد اخفاءه من أعمالها ولا هي تريد أن يرتفع صوت الشعب وتعذ كلمته لان ذلك يقلل من نفوذها ويعرقل مساعيها فكانت تبذل جهدها في معارضة الصحف والتضييق عليها بالقوانين الصارمة والضرائب الفادحة حتى اصبح العدد الواحد من الجريدة يكلف صاحبها نحو قرشين ونصف كما رأيت ولكنه لم يكن يخاف تعطيل جريدته لانه كان يبيع العدد الواحد منها بثمانية بنسات او اكثر والناس في اضطرار للمطالعة للاسباب التي قدمناها والشعب يعدها سلاحه ونصيره . فاتحدا يداً واحدة على الحكومة حتى فازا أخيراً بحرية المطبوعات

أما الصحافة الشرقية فقد وضعت في الاصل لخدمة أغراض الحكومة أوموظفيها والاهالي في غفلة عن معنى الصحافة أو الغرض منها الا طائفة من الخاصة . وأما جمهور الشعب وخصوصاً في مصر فكان مستغرقاً في زراعته لا تهمه الصحف ولا أصحابها . فكان أرباب الصحف يستعينون على نشر جرائدهم بنفوذ الحكومة فضلاً عما كانت تبذله لهم في سبيل اصدارها ولا سيما في عصر اسماعيل فانه لم يدخر وسعاً في تنشيط الصحف ومساعدة اصحابها بالمال وكانت حكومته تشترك بمئات النسخ من الجرائد ولا تمنع مستخدميها من مساعدتها في تحصيل بدلات الاشتراك وكان بعض الوزراء يصحب وكلاء الجرائد بكتب التوصية للمديرين يأمرهم بمساعدة تلك الجرائد في النشر وتحصيل أموالها . فكان الرجل من العمد أو الفلاحين يشترك بالجريدة وهو لا يعرف القراءة وقد تأتيه أعدادها فلا يفتحها ويدفع بدل الاشتراك كأنه ضريبة من جملة الضرائب التي لا مفر منها . وكان بعض مأموري الحكومة يستعملون في تحصيل بدل الاشتراك العنف كالجلد أو الحبس مع علمهم أن الرجل لم يطلب الاشتراك ولا هو يحسن القراءة . وقد آلت هذه الطريقة طبعاً الى تعود الناس قراءة الصحف وان لم

يكن هذا هو الغرض المقصود منها ـ ظل ذلك شأن الصحافة بمصر الى اوائل الاحتلال ثم أخذت طريقاً آخر فصدرت الاوامر المشددة بمنع مستخدمي الحكومة من التوسط بامرها من حيث بذل الاشتراك او المكاتبات ونحوها

وقد مرّ على الصحافة الشرقية الى الان ثلاثة ادوار الاول « دور الحضانة » كانت فيه الجرائد آلة في أيدي الحكام تسبح باسمهم وتترنم باعمالهم واذا بحثت في السياسة فاكثر ابحاثها عن البلدان البعيدة كما تفعل أكثر صحف سوريا اليوم . والدور الثاني « دور التمخض » يبدأ بنهضة الشعب المصري منذ ولاية المرحوم توفيق باشا وكان الناس في عهد أبيه اسماعيل تحت الضغط لان سياسته كانت تقضي بابعاد الوطنيين وتقريب الاجانب ولم تكن الجرائد تصرح بهذا الغرض اما تزلفاً الى اسماعيل أو خوفاً على حياتها من عصاه . ولا يزال القوم يذكرون ما أصاب صاحب الاهرام رحمه الله لما نشر خبر مبلغ أنفق ولم يعرف سبب انفاقه فطلب اسماعيل احضاره باسرع من البرق ولو لم تنصره دولة أجنبية لقضي عليه

على ان الصحف كانت في أواخر أيام اسماعيل قد اخذت تستنشق روح الحرية مما كان ينشر في بعض الجرائد الافرنجية التي تصدر بمصر وكانت تقلدها في حرية القلم الا ما يمس اسماعيل أو سلطته . فكان الكتاب الوطنيون يرون أقلامهم مقيدة بهيبة ذلك الرجل الغضوب الفتاك فيكظمون

وكان ابنه توفيق رحمه الله محباً لمصر وفيه سهولة ودماثة وكان يشكو من شدة والده واسرافه والوطنيون يتوسمون نفعاً كبيراً بانتقال الخديوية اليه . فلما قبض على ازمتها سنة ١٨٧٩ لم يدخر وسعاً في مراعاة جانب الوطنيين وتقديمهم ـ ولعله بالغ باطلاق الحرية لهم وهم لم يتعودوها فانقلب الغرض المقصود منهـا الى ما لا يخفى على احد

أما الصحافة فظهرت فيها آثار الحرية اكثر مما ظهرت في غيرها فاطلقت لنفسها العنان في الانتقاد وطلب الاصلاح ولم يكن بمصر الى ذلك الحين جرائد تنتمي الى الاحزاب فلما قام العرابيون أنشأوا عدة جرائد للدفاع عن سياستهم أشهرها جريدة التنكيت التي سماها عرابي « لسان الامة » وجريدة « الحجاز » و « الزمان » و « الطائف » وغيرها وظلت بعض الجرائد في جانب الحكومة فاضطرت هذه لايقاف ذلك التيار الى تقييد الاقوال فسنت قانوناً للمطبوعات سنة ١٨٨١ يقضي انه

لا يجوز لاحد انشاء مطبعة او جريدة الا باذن الحكومة بعد دفع تأمين مالي معين ولا يجوز للمطابع نشر كتاب ما لم تنل الاذن بطبعه من قلم المطبوعات والا وقع عليها العقاب وقس على ذلك . فلم يكن هذا التقييد الا ليزيد الخرق اتساعاً وانتهى الحال بالثورة العرابية ثم الاحتلال الانكليزي

ودخلت الصحافة المصرية بعد الاحتلال في دور ثالث نسميه « دور الولادة » لان الصحف تدرجت فيه الى ما يشبه الصحافة الافرنجية من حيث اعتمادها على نفسها في جلب الاخبار ونشرها وتدبير المشتركين وتحصيل البدل بعد ان كفت الحكومة عن التوسط بذلك وحصرت اشتراكها بنسخ قليلة من كل جريدة وأهمل قانون المطبوعات عمداً وأطلقت حرية الاقلام فتعددت الصحف وانقسمت الى احزاب بعضها يمتدح الاحتلال ويطلب بقاءه والبعض الاخر يقبحه ويطلب الجلاء وهؤلاء فئتان فئة تطلب الجلاء بشدة وعنف وفئة تطلبه بالحسنى . وكل فئة من هذه الجرائد لا تنوب عن حزب معين له أعضاء معينون مثل الاحزاب في اوربا اذ ليس في مصر أحزاب سياسية معينة ولكنها تعبر عن احساس طائفة من الناس يوافقون صاحب الجريدة على رأيه

فالجرائد عندنا هي التي تضع الآراء وتصورها الاحزاب والعادة في العالم المتمدن ان الاحزاب هي تنشيء الصحف وتحارب بها وتدافع عنها بالاموال والارواح — لا تبالي بتهديد الحكومة الا ضمن حدود القانون ولا نظن جرائدنا مهما يبلغ من شدتها اذا آنست من الحكومة عيناً حمراء تستطيع الصبر على مقاومتها اذ ليس في قوانين مصر نص عن حرية المطبوعات ولا يقوم الشعب لنصرتها

فالصحافة أتت مصر ناضجة تامة النمو وأتتها حرية المطبوعات عفواً لم تسفك في سبيلها دماً ولا انفقت عليها درهماً . فعسى ان تحسن استخدام هذه الهبة لئلا تذهب من يدها . ولا يحسن بنا التمثل بدول أوربا في كل شيء لان احوالنا غير احوالهم . وتلك الدول أعطت رعاياها حرية المطبوعات مضطرة بعد جدال وحرب انتهت بتغلب الشعب فاذعنت الحكومة وكتبت لهم بذلك عهوداً دونتها في قوانينها وشرائعها ولا يسهل الغاء شيء منها الا بعد مصادقة مجالس الامة . واما مصر فقد نالت تلك الحرية بارادة شخص اللورد كرومر . وقانون المطبوعات المتقدم ذكره لا يزال قابلاً للتنفيذ

الجرائد وواجباتها وآدابها[1]

حملتنا حال الجرائد المصرية في هذه الايام من التطرف والتهور على التكلم في الجرائد وآدابها والشيء بالشيء يذكر . وقد رأينا لزيادة الفائدة أن نقسم كلامنا في ذلك الى أربعة أقسام : (١) تاريخ الجرائد في اوربا منذ نشأتها الى الآن (٢) تاريخ الجرائد العربية (٣) آداب الجرائد وواجباتها (٤) الجرائد المصرية وتهورها

(١) تاريخ الجرائد في اوربا

ذكرنا في الهلال الثاني والعشرين من السنة الثالثة ان الجرائد نشأت اولاً في الصين سنة ٩١١ قبل الميلاد وهو قول يحتاج الى اثبات ولكن المعوَّل عليه ان يوليوس قيصر الروماني في اواسط القرن الاول قبل الميلاد أصدر نشرة يومية سماها (Acta Diurna) (أكتا ديورنا) ومعناها « الاعمال اليومية » ينشر فيها اعمال المشيخة الرومانية الرسمية وحوادث الشعب الروماني وما زالت تصدر الى زمن الامبراطور يوليان في أواسط القرن الرابع للميلاد فكانت بمنزلة مثال للجرائد التي صدرت بعد ذلك في أوربا

أما الجرائد في الاعصر الحديثة فنشأت أولا في جرمانيا في القرن الخامس عشر للميلاد وكانت تصدر في فينا وراتسبون واوسبرج ونرنبرج على شكل صحف فيها ملخص الاخبار الجارية في تلك المدن وما والاها . ولكن الجرائد لم تمثل بالشكل المعروفة به الان الا في البندقية وأول جريدة صدرت فيها أثناء الحرب التي قامت بينها وبين الدولة العلية سنة ١٥٦٣ م دعوها (Gazetta) غازتا وهو اسم لقطعة من نقود البندقية تساوي ما يقرب من المليم المصري وقد دعوها به نسبة الى ثمنها لانها كانت تباع بهذه القيمة

ثم تشبه الانكليز بهم فاصدروا في لندن سنة ١٦٢٢ جريدة (Weekly News) (أخبار الاسبوع) وكان المظنون ان الانكليز اصدروا جريدة سنة ١٥٨٨ في زمن الملكة اليصابات سموها (The English Mercury) «عطارد الانكليزي» ولكنهم

---

(١) عن الهلال سنة ٤ صحيفة ٩

وجدوا بعد البحث والتنقيب ان تلك الجريدة صدرت بعد ذلك التاريخ بزمان ومنها نسخ محفوظة في المتحف البريطاني

ثم انشأ الفرنساويون جريدة سموها « غازتة فرنسا » صدرت بباريس في ابريل سنة ١٦٣١ م وقد نشطتها الحكومة ورفعت منزلتها حتى ان الملك لويس الثالث عشر نشر فيها مقالة بقلمه واقتدى به في ذلك أيضاً الكردينال ريشليو الشهير ولا تزال هذه الجريدة حية الى الان وقد مر عليها ٢٦٤ سنة

فيظهر مما تقدم ان أول من أنشأ الجرائد على النمط الحديث البندقيون ثم الانكليز ثم الفرنساويون ولكن « أخبار الاسبوع » المتقدم ذكرها كانت أشبه بالخطابات الخصوصية منها بالجرائد العمومية حتى قد يليق بنا تقرير السبق للفرنساويين وأما أول جريدة انكليزية انشئت على مثال الجرائد حقيقة فهي جريدة « غازتة لندن » صدرت سنة ١٦٤٢ لكنها لم تعش طويلاً ثم انشئت « غازتة اوكسفورد » صدرت في اوكسفورد سنة ١٦٦٥ ثم نقلت الى لندن ودعيت غازتة لندن London Gazette وهي لا تزال تصدر بهذا الاسم حتى الان . ثم صدرت جرائد اخرى في انكلترا وغيرها من ممالك اوربا واميركا وأقدم جريدة أنشئت في اميركا « بوستون نيوستلر » صدرت سنة ١٧٠٤ . فقد مرَّ على الجرائد منذ أوَّل ظهورها الى الآن اكثر من ثلاثة قرون قاست في اثنائها مشقات جسيمة حتى بلغت ما هي عليه من الكثرة والانتشار والحرية وكان في جملة العراقيل التي وقفت في سبيل نشر الجرائد عند أول صدورها الضرائب التي كانت تضرب عليها فقد بلغت النفقة على العدد الواحد منها في بلاد الانكليز في أواخر القرن الماضي أربعة بنسات (نحو قرشين) وجعلوا ضريبة على كل اعلان ثلاثة شلينات ونصف شلين فضلاً عن المراقبة الشديدة التي كانت عليها فتضايق أرباب الصحف من ذلك كثيراً حتى صاروا ينتحلون الوسائل الغريبة في نشر جرائدهم وتجنب نفقاتها الباهظة

ومما يحكى من هذا القبيل ان رجلاً انكليزياً يقال له كربنتر أصدر في أوائل هذا القرن جريدة على شكل كتاب خصوصي سماه « كتاباً سياسياً » يوجه الخطاب فيه الى احد أعيان الانكليز ثم يطبع منه نسخاً عديدة يبيعها باسم كتاب سياسي وليس جريدة فكان يبيع من كل طبعة آلافاً من النسخ والحكومة لا تستطيع مطالبته

لخروج نشرته هذه عن تعريف الجريدة ولكنها أخيراً توسعت في تحديد الجرائد فأوقعته تحت طائلة القصاص وحكمت عليه بدفع الضرائب التي ظنَّ نفسه تخلص منها فاضطر الى اصدار جريدته كسائر الجرائد الاخرى يدفع عليها النفقات الاعتيادية

ومن أساليب الحيل التي اتخذوها هرباً من الضرائب ان أحدهم المستر هترنتون أصدر جريدة كان يطبعها على مناديل رخيصة الثمن يسميها «منديلاً سياسياً» فنشرها مدة وكان يبيعها بثمن بخس فانتشرت انتشاراً حسناً حتى ناله أخيراً ما نال كربنتر المتقدم ذكره . على ان الحكومة نفسها بعد ذلك شعرت بفوائد الجرائد وانتشارها فأخذت تنشطها وتسهل طبعها ونشرها حتى بلغت ما هي عليه ففي بلاد الانكليز وحدها الآن ٢٣٠٠ جريدة سياسية يصدر منها في اليوم مئات الملايين من النسخ وقس عليه الممالك الاخرى

(٢) تاريخ الجرائد العربية

ذكرنا في اول عدد صدر من الهلال كلاماً مسهباً عن الجرائد العربية وأتينا على اسماء الجرائد العربيـة التي صدرت في العالم منذ أول عهدها الى تاريخ صدور ذلك الهلال وليس من غرضنا العود الى هـذا الموضوع الآن ولكن المراد الاقتصار على تاريخ نشأة الجرائد العربية بالاختصار

علمت مما تقدم ان الجرائد نشأت ونمت في اوربا ونحن اقتبسناها عنها كما اقتبسنا سائر العلوم الحديثة . ومعلوم اننا لم نعكف على أحياء علوم اسلافنا واقتباس العلوم الحديثة الا في اواسط هذا القرن على أثر احياء المعالم العربية في الديار المصرية والسورية بعد تولي العائلة المحمدية العلوية وافتتاح المدارس الاهلية والتوسعة للاجانب في الاقامة بيننا والدخول في مدارسهم وتعلم لغاتهم

والفضل الاول في انشاء الجرائد العربية للمغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة المحمدية العلوية فانه هو الذي أسس أول جريدة عربية في العالم منذ خمس وستين سنة وهي جريدة « الوقائع المصرية » ولا تزال جريدة الحكومة المصرية الرسمية ثم أصدرت الحكومة العثمانية جريدة عربية رسمية في بيروت منذ ٣٨ سنة سمتها حديقة الاخبار ثم صدرت الجريدة الرسمية لتونس الغرب وقد مرَّ عليها الى الآن زهاء ٣٥ سنة ولا تزال هذه الجرائد الثلاث حية ولكنها رسمية تصدر على نفقات حكومتها وتنشر أوامرها ومنشوراتها وأعمالها

اما الجرائد السياسية غير الرسمية فاقدمها جريدة الجوائب التي انشأها المرحوم الشيخ احمد فارس الشدياق في الاستانة العلية عام ١٨٦١ م وقد تعطلت بعد الحوادث العرابية وتليها جريدة وادي النيل أنشئت بمصر سنة ١٢٨٣ هـ (١٨٦٧ م) وكانت تصدر مرتين في الاسبوع على شكل كراس ومواضيعها سياسية وعلمية وادبية ومحررها ابو السعود افندي وتلي هذه مجلة الجنان التي انشأها المرحوم المعلم بطرس البستاني ببيروت عام ١٨٧٠ وكانت تصدر مرتين في الشهر على شكل كراس بقطع الهلال ومواضيعها علمية وادبية وسياسية توقفت منذ بضع عشرة سنة وجريدة البشير للاباء اليسوعيين وهي صحيفة دينية اخبارية نشأت مع مجلة الجنان في عام واحد ولكنها لا تزال حية

ثم توالى صدور الجرائد في مصر والشام فصدرت بالاسكندرية جرائد روضة الاسكندرية والاهرام والكوكب الاسكندري والمحروسة . وبمصر روضة المدارس والوطن وغيرها . وببيروت صدرت النشرة الاسبوعية او لعلها صدرت مع البشير أو قبله كما يؤخذ من عدد أعدادها الصادرة الى الآن ولكنها لا تدل على سنة نشأتها صريحاً ثم ثمرات الفنون والمقتطف ولسان الحال والمصباح وغيرها . فيظهر مما تقدم ان اول جريدة عربية رسمية صدرت بمصر ثم بيروت ثم بتونس وأول جريدة عربية غير رسمية صدرت في الاستانة العلية ثم بمصر ثم ببيروت

وقد بلغ عدد الجرائد التي صدرت بالعربية في سائر اقطار العالم نيفاً ومائتي جريدة بين سياسية وعلمية وادبية وفكاهية وطبية وغيرها صدر نحو خمسين منها في السنوات الثلاث الاخيرة ولا يزال عددها آخذاً في الازدياد وخصوصاً بعد ان اطلق لها العنان في الديار المصرية حتى لم تعد تعرف لها حداً تقف عنده

٣ — آداب الجرائد وواجباتها

لا نعلم ان احداً دوّن للجرائد حدوداً تتعامل بها من حيث الآداب العمومية فيما خلا القوانين التي سنتها لها الحكومة ولكننا اذا عرفنا ما هي الجرائد سهل علينا معرفة آدابها . والجرائد « لسان حال الامة ينطق به فرد او جماعة من عقلائها » فهي كالمرآة تتمثل بها احوال الامم وعوائدهم وآدابهم ولما كانت الامم تختلف في كل ذلك كانت الجرائد مختلفة في مبادئها على تلك النسبة فالجريدة الانكليزية تنطق بلسان حال الانكليز وتمثل اخلاقهم وآدابهم والجريدة المصرية تمثل اخلاق المصريين وآدابهم

وهكذا يقال في كل جريدة عند كل امة . فمن انشأ جريدة في الديار المصرية وأراد الاقتداء بجرائد انكلترا أو أنشأ جريدة في انكلترا ومثل بها أخلاق المصريين فانه يسير على ضلال وشأنه في ذلك شأن من يلبس البدوي لباساً افرنجياً أو يخلع على الافرنجي عباءة وعمامة وهذا هو منشأ التضاد بين الجرائد المصرية الحديثة فان محرريها يختلفون مشرباً واخلاقاً وكل يسير على شاكلته

فاداب الجرائد المصرية تقضي بسيرها على خطة المشارقة في عوائدهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم مع اختيار الحسن منها وانتقاد القبيح التماساً للاصلاح ولا بد في كل ذلك من ظهور أخلاق المشارقة بين سطورها وفي خلال الفاظها واظهر تلك الاخلاق المجاملة والتأدب وكرم الاخلاق

واهم واجبات الجرائد السعي في كل ما يأول الى مصلحة الامة واصلاح شؤونها بانتقاد اعمالها واعمال من يتولى أمرها مع مراعاة آدابها واخلاق اهلها وعوائدهم ومن أهم تلك الواجبات احترام شخص الملك فانه القائم بامرها الموكل برعايتها وهو النائب عن الخالق جل وعلا في تدبير شؤون خليقته فاذا رأوا فيه اعوجاجاً فليقوموه بغير مساس شخصه

ومن واجبات الجرائد البحث في كل أمر عمومي وانتقاده انتقاداً عادلاً وتجنب المسائل الشخصية ولا سيما المتعلقة بالدين فان التعرض للامور الشخصية أو الدينية أول ما يشين الجرائد ويحط من منزلتها ويذهب بها الى الشطط والتهور وما عاقبة ذلك الا التنافر والبغضاء وسوء المصير

فمن ينشيء جريدة يركب مركباً خشناً ويعرض نفسه لواجبات يجدر به أن يتعلمها قبل اتقان فن الانشاء والتبحر في التحرير والتحبير لئلا يقود قراءه الى مهاوي الضلال ويلوث وطنه بعواقب الغرور اذا لم نقل انه يذهب به الى الضياع والعياذ بالله

٤ — الجرائد المصرية

قد علمت مما تقدم ان الجرائد المصرية وسائر الجرائد العربية حديثة العهد لم تكد تبلغ نصف قرن من العمر في حين ان الجرائد الافرنجية قد تجاوزت ثلاثة قرون . فما الصحافة العربية بالنسبة الى الافرنجية الا كطفل رضيع لم يكد يفتح عينيه أمام شيخ هرم حنكته التجارب وهذبته الايام . أليس من الغريب أن نرى طفلاً رضيعاً يحاول

أعمالاً لم يبلغها شيخه الا بعمر القرون . هذا هو شأن الجرائد المصرية الآن فانها على حداثتها ونعومة أظفارها تسابق الجرائد الافرنجية وتحاول ان تعمل عملها وتسير على خطواتها ولكن ذلك مخالف لشرائط النمو الطبيعي فان عودها رطب وعظمها لا يزال غضروفاً فلا تأمن الانكسار والفشل الا ان يقام عليها وصي يتولى أمرها ويراقب اعمالها ويقوم معوجها ريثما تبلغ أشدها وتدرك كنه الحرية

نراها معجبة بما نالته من تلك الحرية اقتداء بجرائد الافرنج وتمتعاً بما أوتيته من اطلاق العنان لها ولكنها بالغت في ذلك الى حد حبَّب الينا الاستعباد وقد فاتها ان الحرية بين أسنة أقلامها كالسيف بيد الطفل يسطو به على رقاب الناس ويخبط خبط عشواء ولا نحتاج في تأييد ذلك الى كبير مشقة وهذه الجرائد المصرية قد اتخذت تلك الحرية ذريعة للسباب والشتم ونهش الاعراض والطعن في الامم والممالك والتعريض بالمذاهب والاديان مما لا يترك محلاً للريب في ان الحرية جاءتها هبة في غير محلها وثمرة في غير أوانها . فاذكرتنا أياماً تفشت بها الحرية بوادي النيل منذ بضعة عشر عاماً فجرَّت عليه ما هو منشأ اختلاف الصحف الآن

أيليق بها وقد أقامت نفسها رقيبة على أعمال الحكام ناصحة للملوك والسلاطين مهذبة لاخلاق الناس مطالبة بحقوق الامم ان تكون مثالاً للشطط والتهور ومعرضاً للطعن والثلب . ويعلم الله اننا نخط هذه الاسطر والقلم يرتعش بين اناملنا ولم نقدم عليه الا بعد أن فرغت جعبة اصطبارنا ونحن نؤسي النفس في كف جرائدنا عن تلك الخطة ويسوءنا أن نجرد قلمنا لتأنيب زملائنا الافاضل أرباب الصحف المصرية وهم من نخبة ادبائنا وعمدة فضلائها ولا ندري ما جرَّهم الى النزال فيما يؤاخذون عليه الا أن يكون ذلك من قبيل ما قلناه من حداثة فن الصحافة بيننا واساءتنا استخدام الحرية

نقول ما نقوله اجمالا بغير تسمية ولا تخصيص لئلا نقع فيما آخذناهم عليه ولا نظن قارئاً يطلع على هذه الحروف في مصر والشام ويخطىء قصدنا ولم يحملنا على الخوض في هذا الباب الا الغيرة على آداب الصحف والتنبيه الى واجباتها لا لان زملاءنا الافاضل يجهلونها ولكن ما يلاحظه المراقب خارج المعمعة من حركات المتحاربين قد يفوت المتحاربين ملاحظته ولا نريد الا تذكيرهم باشياء هم أعلم منا بها وأولى بالمامها علينا

فبعض تلك الصحف تبالغ في انتقاد عمال الحكومة حتى يشمّ من خلال سطورها رائحة التعريض بالملك بما قد يمس كرامته وهم يعلمون ان انتقاد اعمال العمال شيء ومس كرامة الملوك شيء آخر وبين ان الاول فضيلة يمدحون عليها فان الثاني حطة يؤاخذون عليها لان في انتقاد أعمال الحكومة نفعاً واصلاحاً وأما مس كرامة الملوك فمجلبة للبغضاء والتنافر

ونرى صحفاً اخرى تملأ أعمدتها تعريضاً ببعض الامم ظلماً وعدواناً وتجاهر بسبها واهانتها وتحقيرها ولا نعرف شرطاً من شروط الادب ولا قانوناً من قوانين الشرع والعرف يبيح الطعن في أمة برمتها والامم على اختلاف أصقاعها ولغاتها ومذاهبها لا تخلو من الحسن والقبيح وغاية ما يقال فيها أنها تحتمل المدح والذم ولا يعقل أن امة باجمعها تستوجب الاهانة والتحقير الا ان يكون المراد التشفي منها لحزازات في الصدور وهذا امرٌ تجلُّ الصحف عنه ومن كان هذا غرضه فليتخذ سلاحاً غير الصحف وليركب جواداً غير القلم

ونرى صحفاً اخرى قد سودت صفحاتها بمقالات ضافية في المسائل الشخصية فتطعن في اشخاص تسميهم باسمائهم وتنهال عليهم بالسب والاهانة حتى قد تتطرق الى انتقاد ما يأكلون او يلبسون او يطبخون وأي علاقة بين ذلك والمصلحة العامة التي انشأوا جرائدهم لاجلها وما يهم القراء ما يقولونه عن فلان وما يأتيه في منزله أو كيف شبَّ في صغره وما لنا وللبحث عن أصله وفصله وقريته وجيرانه فان آداب الصحف تمج هذه الابحاث وتنفر من رائحتها وقد يتبادر لمحرري تلك الصحف ان ذلك من قبيل تشديد اللهجة التي تساعد أحياناً في تقوية الحجة واقناع الخصم والقراء بصحة دعواهم ولكنهم اخطأوا المرمى ووقعوا في عكس ما يؤملون فان القراء اذا رأوا في ما يقرأونه تعريضاً او طعناً أمسكوا عن قراءته لانهم انما يهمهم من الجرائد أخبارها وأبحاثها السياسية على انهم لو صبّروا النفس على مطالعتها فانما يطالعونها وهم يعتقدون تحامل الكاتب على مناظره ومبالغته في تحقير رأيه فلا يثقون بمقدماته ونتائجه ومهما اشتهرت الجريدة بصدق أخبارها وصحة آرائها فلا تلبث اذا اكثرت من الطعن والشتم ان تحط منزلتها ويرتاب القراء في صدقها

وهناك صحف تطاولت في ابحاثها الى الاعراض وهو من أقبح ما تنفر منه الاذواق الشرقية فاننا معاشر الشرقيين نغار على الاعراض ونصونها ونفديها بأرواحنا

وتجنب كل ما يمسها ونمقت كل من يعرض بها يدلك على ذلك ميلنا الى التحجب دون سائر الامم فما بالنا نتولى خرقها بايدنا ان ذلك من جملة غرائب الجرائد المصرية الحرة

ونرى في بعض تلك الصحف الفاظاً لا نسمعها الا من ابناء الازقة لبذاءتها والفاظاً يخجل من تلاوتها الاديب فضلاً عن العذراء والجرائد يتداولها الناس على اختلاف درجاتهم وأعمارهم وفيهم التاجر والصانع والقسيس والعالم والشاب والشابة فاستعمال الالفاظ البذيئة اذا لم يفسد الاخلاق فانه يقلل من منزلة الجريدة فيستخف الناس بها وبأقوالها

وأقبح ما رأيناه في بعض الجرائد المصرية التعريض بالاديان والمذاهب وهو أمر يذكرنا بايام خلت نود نسيانها أيام جرت فيها الدماء أنهراً وكان الجهل ضارباً اطنابه والتعصب سادلا غشاوته وما صدقنا ان اقلعت تلك الحمى وانحسر ظل ذلك الغشاء وعرف كل منا حدوده أفنعود اليها ودون ذلك قراع الالسنة وسفك الدماء وتشويه وجه الانسانية . أما آن لنا ادراك كنه التمدن الحقيقي فكيف نجعل ما يتخذه غيرنا حصناً لتمدنهم وواسطة لعقد اجتماعهم عاراً على تمدننا وسبباً في تفريق شملنا

وقد نلتمس لتلك الصحف عذراً في احتدام نار الجدال بينها وطول الاخذ والرد في ما يختلفون فيه من الابحاث السياسية أو الادبية ولكننا لا نرى موجباً للخروج من المجادلة الى المشاتمة والمطاعنة واثارة الشحناء والبغضاء واذا زعموا انهم يفعلون ذلك اقتداء بمن تمتع بحرية الجرائد قبلهم من الافرنج فهؤلاء قد يتناظر جماعة منهم في مسألة وتحتدم شعلة الجدال بينهم حتى يحتاجوا الى التحكيم وهم مع ذلك لا يتجاوزون حدود المناظرة ولا يخلون بواجبات الجرائد ولا يخرقون حرمة الآداب بل يعودون بعد المناظرة وقد تمكنت بينهم علائق المودة وزاد ائتلاف قلوبهم وقد عرف الناس نتيجة أبحاثهم. أما نحن فلا نكاد نبدأ بمناظرة سياسية حتى نخرج منها الى المطاعنات الشخصية فنخوض فيها أشهراً وننسى الموضوع الذي كان مدار البحث فيه وقد تتصل الحدة ببعضنا الى تهديد الآخر بالقتل أو المبارزة او المحاكمة أو ما شاكل ذلك . أهذه حقوق المناظرة أم هي واجبات الصحف وآدابها . ولو فرضنا ان الافرنج يخرجون مثل خروجنا فالآداب الشرقية أساسها المجاملة والتأدب وكرم الاخلاق كما قدمنا فهي تقضي بمراعاة احساسات مناظرينا والاغضاء عن هفواتهم ومعاملتهم باللين واللطف وتجنب الجفاء والقول الهراء

على اننا نستميح العذر من حضرات الافاضل أصحاب الصحف ومحرريها لقيامنا لديهم مقام الناصحين ونحن أحوجهم الى النصح ولكنها خطرات أفكار مرت بذهننا فحركت هذا القلم على هذا القرطاس فلعلها اذا مثلت بين ايديهم أذكرتهم أموراً هم أعلم منا بها . وقد توخينا اظهار الحقيقة وابداء رأينا عملاً بواجباتنا نحو الامة والوطن غير أن ذلك كله لا يحط شيئاً من منزلة أشخاصهم لدينا فاننا نجل أرباب الاقلام ونقدرهم حق قدرهم فهم قادة الافكار وقدوة أهل الادب وزهرة غرس الامة وما آخذناهم عليه أن هو الا هفوة يكفرون عنها بما يخدمون به البلاد من جهة أخرى ولكننا اردنا تذكيرهم حتى اذا رأوا رأينا وارادوا الرجوع الى الصواب كانوا اقرب الى الكمال وذلك اجدر بأهل العلم والادب مما سواهم من طبقات الناس والسلام

التأليف

في اللغة العربية[١]

لا يستطيع من راقب سير العلم بمصر في الاعوام الاخيرة غير الاعتراف بوجود نهضة أدبية كثر فيها المؤلفون وتعددت المؤلفات . وان كنا بالقياس على سائر الامم لا نزال أطفالا في هذا الفن . وينقصنا على الخصوص التدرب على البحث والتنقيب والقياس والاستنتاج . فان بعض كتابنا لا يزالون يسيرون في طرز تآليفهم على خطة أسلافنا القدماء . والتأليف في العربية قديم كما جاء في ما بسطناه في كتابنا تاريخ آداب اللغة العربية . وكان لعلماء العربية القدماء القدح المعلى في هذا الباب لكن لكل عصر نسقاً في التأليف يلائم أهله . فنسق هذا العصر يختلف عن نسق القدماء مثل اختلاف سائر أحوالنا عن أحوالهم . ونحن في هذه النهضة عولنا في اقتباس العلوم الحديثة على أصحاب هذه المدنية فنقلناها عنهم ولهم طرق في التأليف يحسن تحديها لما فيها من التمحيص والترتيب والتبويب مما يسهل على القارىء تفهم المواضيع وحفظها

(١) عن الهلال سنة ٢٠ صحيفة ٥٤٣

ومع ذلك لا ينبغي لنا أن نبخس آدابنا العربيـة حقها ولا سيما في المواضيع التي كتب فيها أسلافنا وان اختلف ما كتبوه من حيث روحه وأسلوبه عما يقتضيه هذا العصر . لكننا نرى بعض كتابنا ينظرون الى تلك الآداب بعين الاحتقار ولا يتعبون انفسهم في تفهمها . ولو فعلوا ذلك لوجدوا فيها كنوزاً ثمينة في كثير من المواضيع التي يحتاجون الى نقلها من اللغات الافرنجية . ولعل السبب في اهمالهم المصادر العربية ما يجدونه لاول وهلة من الغرابة في أسلوبها لانه يخالف ما تعودوه من الاسلوب العصري . ولو زاولوا مطالعة تلك الكتب قليلا لتعودوا ذلك الاسلوب وهان عليهم فهمه . وقد يجدون في تلك الكتب حقائق هامة غير ما يستفيدونه من طرق التعبير والالفاظ الوضعية فيستعينون بذلك على تقويم أسلوبهم عند نقل ذلك العلم عن المصادر الافرنجية

ومن غريب ما رأيناه من هذا القبيل أن بعضهم يعتمدون على هذه المصادر ولو كان ما يكتبونه متعلقاً بعلوم العرب انفسهم او تاريخهم . ولعلهم يفعلون ذلك لثقتهم بتدقيق الافرنج في ما يكتبونه لكن ذلك جرّ بعضهم الى ارتكاب خطأ شوه ما كتبوه. فقد قرأنا كتاباً حديثاً في تاريخ الاسلام فرأينا فيه رسائل كتبها بعض القواد المسلمين الى خلفائهم في صدر الاسلام هي في أصلها العربي مثال البلاغة وحسن البيان فترجمها مؤلف ذلك الكتاب عن الافرنجية فجاءت أعجمية اللهجة عارية من البلاغة العربية مع امكان نقلها بعبارتها الاصلية لفظاً ومعنى

ومعلوم ان العلم الحديث جاءنا أولا على يد الفرنساويين والايطاليان في زمن محمد علي باشا ثم تناولنا جانباً منه عن الانكليز والاميركان وخصوصاً في سوريا . ثم كان الاحتلال الانكليزي بمصر فسعى أهله في نشر لغتهم بيننا فاصبحت المصادر التي نعول عليها في ما نكتبه اما فرنساوية او ايطالية او انكليزية . ولكن الايطاليـة لم تثبت لضعف نفوذ ايطاليا بيننا فانحصرت مصادرنا في الفرنساوية والانكليزية

وبديهيٌ ان من يتناول العلم عن امة تعلم لغتها وآدابها يشب على حبها فيتوخى تقليدها والاقتداء برجالها . فاصبح كتابنا من أجل ذلك فئتين فئة تقلد الفرنساويين وفئة تقلد الانكليز . وقلَّ من يجمع بين الاثنين فاختلفت أذواقنا باختلاف ما لديهما من المبادىء والاخلاق حتى ظهر أثر ذلك في ما نكتبه لفظاً ومعنى . فقلَّ أن تقرأ مؤلفاً الفه كاتب من أهل هـذا العصر في علم حديث الا قرأت في خلال سطوره

مبادىء احدى الامتين الفرنساوية او الانكليزية . ولعل هذا هو السبب في تشيع عامتنا الى احداهما لان الامة من حيث المبادىء والاخلاق تسير على خطوات كتابها فتتبع كل فئة منهم فئة من الكتاب فتقلدهم باقوالهم وأعمالهم

ولا يقتصر تقليدنا كتاب الافرنج على فحوى ما يكتبونه ولكنه قد يتناول طرق التعبير فترى اللهجة الافرنجية ظاهرة على عبارات بعضنا مهما كانت الفاظها عريقة في العروبة . لان لكل لغة نسقاً في التعبير خاصاً بها فمن كانت مطالعاته ومراجعاته في كتب فرنساوية اكتسب ملكة التعبير فيها وخصوصاً اذا أهمل المطالعة في الكتب العربية وهكذا يقال في مطالعي الكتب الانكليزية

فعلى من يعمد الى التأليف أن يحافظ على ملكة اللسان العربي ويتجنب التعبيرات الافرنجية ولا يتم له ذلك الا بمطالعة الكتب العربية الخالية من شوائب العجمة . بل لا بد له من مطالعة الكتب التي كتبها العرب في الموضوع الذي يريد الكتابة فيه أو ما يقرب منه لاقتباس طرق التعبير في ذلك العلم . اذ لكل علم عبارات والفاظ لا يستحسن ايرادها في علم آخر . فلغة العلوم الطبيعية مثلا غير لغة المواضيع الادبية ولغة التاريخ غير لغة الطب ولغة الكتابة غير لغة الخطابة . فما يستحسن ايراده من العبارات المبرقشة بانواع البديع في موضوع أدبي تهذيبي يستقبح في موضوع طبيعي أو رياضي. فعبارة ابي الفضل الهمذاني في رسائله لا تستحسن في اثبات قضية هندسية أو تقرير حقيقة طبيعية . واذا كتبت المعاني التهذيبية بعبارة الهندسة لا تؤثر في النفس تأثيرها لو كتبت بعبارة مزخرفة باساليب الاستعارة وضروب المجاز . فضلا عما تقتضيه الحقائق العلمية من البساطة وما تستلزمه المواضيع الادبية من المبالغة والاطناب بين تهديد وتنديد وترهيب وترغيب . فيقسم الانشاء بهذا الاعتبار الى قسمين كبيرين انشاء علمي وانشاء أدبي . ولكل منهما فروع يستخدم كل فرع منها بموضوع دون الآخر

الاسلوب

اذا تصفحت كتاباً ثم نظرت فيه نظراً عاماً رأيته مؤلفاً من شيئين متباينين هما موضوعه ولغته أو اسلوبه أو هما معناه ولفظه . فالموضوع او المعنى هو الغرض الذي يريد المؤلف ايصاله الى ذهن القارىء . وأما الاسلوب فهو الآلة التي يستخدمها في

ايصال ذلك الغرض. فاذا عمد جماعة الى التأليف في الثورة العرابية مثلاً كان غرض كل منهم بيان تلك الثورة بما تقدمها او دعا اليها من الاسباب ثم ما توالى من حوادثها الى انقضائها وما نجم عنها من العواقب السيئة او الحسنة . فاذا قرأت كتاب كل منهم على حدة رأيتهم يختلفون في كيفية تأدية تلك الحوادث وترتيبها باختلاف ما يعلمه كل منهم او ما فطر عليه من طرق التعبير . وظهر لك تباين في أساليب التأليف وان يكن الموضوع واحداً . وقد تستحسن اسلوب بعضهم وتستهجن اسلوب البعض الآخر وهو الفرق بين ملكات الانشاء في الكتاب

واذا امعنت الفكرة في كتاب قرأته ونظرت في انشائه نظراً تحليلياً رأيت فيه أشياء تميز كلا منها عن الاخر وهي :

(١) ترتيب الحوادث اجمالاً بالنسبة بعضها الى بعض. كأن يقدم الكاتب سبباً على آخر أو يبني حادثة على اخرى أو ان يذكر نتيجة كل حادث في اثر ذلك الحادث او يجمع كل النتائج معاً . الى غير ذلك من أساليب الترتيب

(٢) سرد كل حادث على حدة وترتيب جزئياته بالنسبة بعضها الى بعض بقطع النظر عن علاقته بالحوادث الاخرى

(٣) تنسيق العبارات التي يتألف منها كل حادث جزئي باعتبار ربطها بعضها ببعض بين تقديم وتأخير على ما يراه الكاتب مؤدياً لما في ضميره

(٤) وضع الالفاظ في مواضيعها بالنظر الى قواعد الاعراب والبيان كتقديم الفعل على الفاعل والمبتدا على الخبر مع ما يختاره من أساليب الاستعارة او نحوها

فاذا عرفت هذه الاقسام الاربعة وتدبرت كلاً منها على حدة علمت ان الثلاثة الاولى منها مرجعها في الغالب الى ذوق الكاتب الشخصي وهي قلما تكتسب بالدرس او المطالعة الا في أحوال مخصوصة . اما القسم الرابع فهو وحده يمكن اكتسابه بالدرس وقد لا يكون الدرس وحده كافياً لاتقانه

والانشاء بالمعنى الذي نريده انما يقوم بالاقسام الاولى ومدارها تنسيق المعاني وترتيبها على ما يوافق اذواق الناس بقطع النظر عن الاعراب أو البيان . فهو من هذه الحيثية ملكة غريزية لا تكتسب بالدرس كما قد يتبادر الى الذهن . ولكن الدرس وسعة الاطلاع يهذبانها ويرقيان ذوق صاحبها

فالكتابة في اعتقادنا ملكة غريزية كملكة الشعر . فالشاعر المطبوع تظهر

شاعريتــه ولو لم يعرف العروض وكذلك الـكاتب المطبوع . لان المعنى صورة من صور الذهن والـكتابة رسم تلك الصور على الورق والمعاني تخطر لعامة النـاس كما تخطر لعلمائهم على تفاوت بينهم وكل منهم يعبر عن معانيه اما تكلماً اوكتابة على اسلوب خاص به . فقد تقرأ عبـارات أو تسمعها من أناس لا يعرفون علماً من علوم اللغة فتتفهمها وتتأثر منها فترسخ في ذهنك ويتشربهـا ذوقك لما تؤانسـه من تناسب أجزائها وتناسق معانيها وسهولة انشائها ما ربما لا تعثر عليه في عبارات بعض المتضلعين بعلوم اللغة

والمعاني ترجع في وضوحها وابهامها الى حالة صورتها في ذهن الـكاتب . فاذا كانت الصورة واضحة في ذهنه ظهر ظلها واضحاً في كتابتـه او تكلمه . واذا كانت مشوشة ظهر لك تشوشها في خلال سطوره . ويكون ذلك غالباً في من يكتبون في مواضيع لم يحسنوا درسها . وقد يقرأ بعضهم مقالة لا يستطيع فهمها فيحسب ذلك بلاغة في الـكاتب او سمواً في انشائه . ويظن اشكال فهمها عليه ناجماً عن جهل منه في أساليب الـكلام . وعندنا أن توقف القارىء في فهم كتاب دليل على ضعف الـكاتب وقصر باعه في موضوع ذلك الـكتاب . حتى قد يستدل على تمكن الـكاتب من موضوع كتب فيه من سهولة فهم ما يكتبه . فاذا قرأت مقالة ولم تستوعب معانيهـا فاعلم أن كاتبها لم يفهمها أيضـاً الا في بعض الاحوال . اذ يكون الـكاتب متضلعاً في موضوع فيتوخى المبالغة في اختصار ما يكتبه حتى يمتنع فهمه على غير المتضلع . كما كان يفعل بعض علماء الـكلام أو المنطق او الفلسفة فقد تقرأ كتبهم ولا تفهمها الا بعد اعمال الفكرة والمراجعة . ولا تستطيع ذلك الا اذا كنت متضلعاً في تلك العلوم . فمثل هؤلاء انما يكتبون لبيان تعمقهم في العلم لا لافادة القراء

وقد يخال لاول وهلة أن سبب ذلك التعقيد متصل بطبيعة تلك المواضيع فلا يستطاع التعبير عنها بابسط من ذلك وهو الواقع في بعض العلوم ولـكنه لا يمنع امكان الـكتابة فيها بعبارة بسيطة سهلة كما يفعل الافرنج فانهم يتوخون البساطة والسهولة في اصعب المواضيع العقليـة لانهم انما يكتبون لافادة القارىء . وكثيراً ما نفضل مراجعة بعض هذه المواضيع في اللغات الافرنجية لقرب تناولها مع أن منها في العربية مطولات شتى

فالعمدة في الانشاء على ترتيب اجزاء الموضوع وتنسيق العبارات بتناسق المعاني

مع السهولة والوضوح . وهي ملكة غريزية لا تكتسب بالمزاولة أو الصناعة للاسباب التي قدمناها . ولكل كاتب اسلوب خاص به يمثل سلسلة أفكاره يعبر عنه الافرنج بقولهم (Style) وهو الذوق او النفَس في اصطلاح الكتاب فالكاتب يمتاز بذوقه ويعرف به ومن عانى الكتابة ودرس أذواق الكتاب سهل عليه تمييز الكاتب بمجرد مطالعة ما يكتبه . وقد يشرّح المقالة اذا كتبها غير واحد وينسب كل قطعة منها الى كاتبها . ويقول العرب « ما قرأت كتاب رجل الا عرفت مقدار عقله فيه » ويقول الفرنساويون (Le style c'est l'homme) أي ان الاسلوب يمثل كاتبه . وأساليب الكتاب تختلف باختلاف سلاسل أفكارهم فمنها السهل والسلس والبليغ والواضح والمعقد والملبك والمشوش والركيك فاذا قرأت عبارة حكمت لاول وهلة انها سهلة او مشوشة أو واضحة او معقدة أو غير ذلك

ويختلف أسلوب الانشاء باختلاف المواضيع . فالعلم الطبيعي يوافقه اسلوب لا يوافق العلوم الادبية او الاجتماعية او التهذيبية وهما غير أسلوب المراسلات فيستقبح اسلوب الخطابة في بيان الحقائق الطبيعية او الرياضية او المنطقية كما يستهجن أسلوب الرياضيات والاقيسة المنطقية في موقف الخطابة او المراسلات كما تقدم

فالخطاب وما يشبهها في أسلوبها من المراسلات أو كتب التحريض والتهديد لها نسق خاص يراد به اثارة العواطف واستنهاض الهمم كقول الامام علي يخاطب أصحابه يوم واقعة صفين :

« معاشر المسلمين استشعروا الخشية وتجلببوا السكينة . وعضوا على النواجذ فانه انبى للسيوف عن الهام وأكملوا اللأمة وقلقلوا السيوف في اغمادها قبل سلها . والحظوا الخزر واطعنوا الشزر ونافحوا بالظبا . وصلوا السيف بالخطا واعلموا انكم بعين الله ومع ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فعاودوا الكرّ واستحيوا من الفرّ فانه عار في الاعقاب. ونار يوم الحساب. وطيبوا عن أنفسكم نفساً . وامشوا الى الموت مشياً سجحاً وعليكم بهذا السواد الاعظم والرواق المطنب ... »

فمثل هذا الاسلوب لا يستحسن في بيان حقيقة طبيعية كايضاح أسباب المطر او سرد نواميس الجاذبية . ولا في اثبات قضية هندسية كالبرهان على ان مربع الوتر يعدل مربعي الساقين ولا في شرح فائدة طبية كتشخيص مرض الروماتزم او النقرس او نحوها ولا في بسط حقيقة تاريخية فان لكل مقام مقالاً

فعلى الكاتب الاديب ان يفهم ذلك ويتدبره فلا يضع الاشياء في غير مواضعها فيذهب سعيه في خدمة العلم هباء منثوراً

اللغة العربية الفصحى

واللغة العامية [1]

قرأنا لجناب المستر وليم ولكوكس خطبة تلاها في كاوب الازبكية ودرجتها جريدة الازهر الغراء في عددها الاخير الصادر في الشهر الماضي وموضوع تلك الخطبة «لمَ لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن » وقد أفاض حضرة الخطيب في ذكر الاسباب المانعة لتلك القوة ثم أتى على ذكر العلاج وعدد الطرق المؤدية الى ايجادها . وليس من غرضنا الخوض في شيء من مآل تلك الخطبة الا فيما يتعلق باللغة العربية

فقد قال حضرته ان من جملة العوامل في فقد قوة الاختراع عند المصريين استبقاؤهم اللغة العربية الفصحى واشار باغفالها واستبدالها باللغة العامية اقتداء بالامم الاخرى وذكر منها بنوع خاص الامة الانكليزية وقال انها استفادت افادة كبيرة باغفال اللغة اللاتينية التي كانت لغة الكتابة عندها واستبدالها باللغة الانكليزية الحاضرة

وعندنا أن المستر ولكوكس لم يصب المرمى في رأيه من هذا القبيل لأن ما صدق على اللغة الانكليزية لا يصدق على لغتنا لاسباب كثيرة نذكر منها

اولاً ان الانكليز باستبدالهم اللغة اللاتينية باللغة الانكليزية قد استبدلوا لغة اجنبية بلغة وطنية وليس كذلك الحال في اللغة العربية فان الفرق بين لغة الكتابة ولغة التكلم عندنا ليس بالشيء الكبير وقد لا يكون اكثر من الفرق بين لغة كتاب الانكليز ولغة عامتهم الذين لا يعرفون القراءة

ثانياً ان استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية اذا انقذنا من شر فانه يوقعنا في شر اعظم منه لان الناطقين بالعربية تختلف لغتهم العامية باختلاف الاصقاع والفرق بين لغة مصر والشام ليس باقل من الفرق بين اللغة الفصحى واللغة العامية

---

(١) عن الهلال سنة ١ صحيفة ١٧٦

وكذلك بين لغة احد هذين البرين ولغة بلاد المغرب أو الحجاز أو غيرها من البلاد العربية ولا يخفى ما بين هذه الاقطار العربية من العلائق الادبية والمدنية والسياسية فباستبدالنا اللغة الفصحى باللغة العامية المصرية مثلا نحرم أبناء بر الشام وبلاد المغرب من فائدة ما نكتبه في تلك اللغة وهكذا لو استبدلناه باللغة العامية الشامية أو المغربية او الحجازية واذا لم نخسر بذلك الا الجامعة العربية فكفى بها خسارة

ثالثاً ان اللغة في كل أين وآن تتبع الحالة عقول الناطقين بها ارتقاء وانحطاطاً فلغة العامة منحطة بنسبة انحطاط افكار الناطقين بها وليس لها ان تقوم مقام اللغة الفصحى ولا سيما العربية لأنها ارقى لغات العالم وفيها من أساليب التعبير ما تعجز لغة العامة عن القيام بمثله . فاذا أردنا تدوين العلوم على أنواعها باللغة العامية كما ارتأى حضرة الخطيب فلا أظنها تقوم بتأدية المعاني الكتابية كما يجب ومن أين نأتي بالالفاظ التي نعبر بها عن الاصطلاحات العلمية ولا سيما الحديثة منها وقد كادت تعجز اللغة الفصحى عن القيام بها . فاذا قال اننا ندخل اليها تلك الاصطلاحات نقول ان الاصطلاحات المشار اليها ليست بالشيء القليل وأنما هي قسم عظيم من اللغة ولا سيما لغة العلم فان معظمها أصطلاحات علمية . وتعليم العامة الفاظ اللغة الفصحى كما هي أسهل من تعليمهم الاصطلاحات العلمية وادخالها الى لغتهم وهذا شأن اللغة في سائر أنحاء العالم . والمستر والكوكس يعلم ان الكتب العلمية العالية المكتوبة بالانكليزية الآن لا يستطيع عامة الانكليز فهمها مهما بولغ في أيضاحها وبسطها وذلك دليل على أن بين العامة والخاصة حجاباً لو حاولنا حسره عادت الطبيعة فسدلته

رابعاً ان الجامعة العربية قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى اذ لولا القرآن الشريف والمحافظة عليه منذ صدر الاسلام وعودنا أليه في أصلاح ما تفسده الطبيعة من لغتنا لتشتت شمل الشعب العربي واصبح كل قطر من الاقطار العربية مستقلاً عن الاخر لا يفهم لغته كتابة ولا تكلماً كما حصل بالامم التي كانت تتكلم اللغة اللاتينية فقد أصبح الكل منها لغة مستقلة لا تفهمها الامة الاخرى مثال ذلك فرنسا وايطاليا واسبانيا وغيرها والفضل الاكبر في حفظ الجامعة العربية الى الان القرآن الشريف والمحافظة عليه

خامساً ان اغفال اللغة الفصحى يستوجب أغفال كلما كتب فيها من العلوم على أنواعها منذ الف وثلاثمائة سنة وهي خسارة لا تعوض مهما قيل في فائدة اللغة العامية في الكتابة

فيتضح مما تقدم ان استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية رأي اغفاله اولى بنا ليس فقط لكونه عقيما بل لانه مضر باللغة والناطقين بها علميا ودينيا وأدبيا

على اننا لا يليق بنا ختام الكلام في هذا الباب قبل الاشارة الى ما طالما شكوناه من توخي بعض الكتاب اختيار الالفاظ المستهجنة المهجورة اما اظهاراً لبراعتهم في حفظ مفردات اللغة واما احياء لالفاظ طوتها يد الايام لما اقتضته حالة الحضارة وتنوع احتياجات الناس . فاذا قال المستر ولكوكس انه انما أراد اغفال مثل هذه اللغة فاننا نوافقه فيه ونؤيد قوله لان استعمال الالفاظ المستهجنة يحول دون الغاية المقصودة من تلك الكتابة ولا سيما في المواضيع العمومية كالكتب التاريخية والقصص الادبية اما في المواضيع العلمية العالية فان الضرورة تبيح لهم استخدام الالفاظ الوضعية لما وضعت له بغير تساهل وعلى الخصوص لان تلك المواضيع انما يقرأها أفراد من خاصة الناس وهم مكلفون بمعرفة أوضاعها واصطلاحاتها

وأما في القصص والروايات والتواريخ وسائر المواضيع الادبية العمومية فالكاتب مكلف بانتقاء الالفاظ التي تفهمها العامة مع مراعاة جانب اللغة والاعراب فاذا عرض للكاتب معنى له لفظان الواحد مهجور والآخر مألوف فانه مطالب باغفال المهجور واستعمال المألوف وتلك قاعدة من قواعد الانشاء الصحيح لا تخفى على حضرات الكتاب فبدلا من أن نقول « وجلس سجاح وجهه » نقول « وجلس تجاه وجهه » لمطابقة سجاح وتجاه للمعنى المقصود زنة ومعنى وعندنا ان المجاوزة الى ما وراء ذلك واستخدام كلمتين او ثلاث مألوفة تؤدي معنى مراداً أفضل من استخدام كلة واحدة مهجورة تؤدي ذلك المعنى وان خالفنا في ذلك على نوع ما قاعدة من قواعد البلاغة لاننا نتمكن من الجهة الثانية من افهام المطالع اذا كان عامياً او غير عامي ما أردنا فهمه بدلا من أن نحمله على الملل من القراءة والتقاعس عن المطالعة ونحن نود مواظبته عليها لتحصل الفائدة المقصودة من كتابتنا . ويجب علينا فهم المقصود بالذات من كتابة الكتب الادبية للعامة باننا انما نريد بذلك اكتسابهم المبادىء الادبية او التاريخية لا تعليمهم الفاظ اللغة وقواعدها لانهم في غنى عن ذلك لاشتغال كل منهم بعمل يعمل به لأود حياته ولا حاجة به الى دخائل اللغة . اما من أراد منهم درس قواعد اللغة

ومفرداتها فهناك كتب خاصة بذلك فليعتمد عليها

وخلاصة القول أن المواضيع العلمية العالية لا غنى لـكاتب فيها عن الاركان الى ما وضع لـكل علم من الاوضاع والاصطلاحات ولا مندوحة له عن استعمالها فهمها العامي أو لم يفهمها على ان العامي في غنى تام عن هذه المواضيع لبعدها عن مداركه واحتياجاته

أما المواضيع التاريخية والادبية العمومية وما جرى مجراها فالـكاتب فيها مطالب بتجنب كل ما يحول دون فهمها لدى الخاص والعام فيجب أن تكون عبارته فيها بسيطة واضحة سلسة خالية من كل تعقيد حتى تكون المعاني جلية للمطالع كل الجلاء لا يحتاج في فهمها الى التوقف لحظة او مراجعة معجمات اللغة والا فان عجز الـكاتب عن ذلك يعد نقصاً في واجبات صناعته

ونحن في موقف نلتمس فيه لحضرة المستر ولـكوكس عذراً على ما ارتآه لانه على ما نظن انما حكم بافضلية استبدال اللغة الفصحى باللغة العاميـة لما رأى في بعض الـكتب من التعقيد من مثل ما تقدمت الاشارة اليه

على اننا لو سرنا في كتابتنا على الخطة التي اشرنا اليها بحيث نجعلها بسيطة واضحة مع مراعاة جانب اللغة والاعراب ما تركنا لحضرته او لسواه باباً للاعتراض او وجهاً لابداء مثل ذلك الرأي والله سبحانه وتعالى أعلم

اللغة العربية

والتعليم في مصر[1]

لا غرو اذا أكثرنا من الحث على تأييد اللغة العربية لانها قوام الامة العربية او العنصر العربي ولا بقاء للامة الا بلغتها . ولا حياة للسان العربي الا بمصر لانها محور العالم العربي . واذا قدر لهذه اللغة أن تنهض فعلى مصر الواجب الاول في انهاضها . كانت اللغة العربية من أوائل القرن الماضي الى أواخره قاعدة التدريس في المدارس

---

(١) عن الهلال سنة ٢١ صفحة ٢٧

الكبرى في مصر والشام . كانت المدارس الاميرية وغير الاميرية بمصر والمدرسة الكلية الاميركية واليسوعية وسائر المدارس الكلية في بيروت وغيرها تعلم الطبيعيات والتاريخ والرياضيات والطب والصيدلة والهندسة والحقوق وسائر العلوم باللغةالعربية . فنبغت طائفة من الكتاب والعلماء في هذا اللسان بمصر والشام وألفوا الكتب العلمية وأنشأوا الجرائد والمجلات العربية . ودبت روح الرقي الحقيقي في عروق هذه الامة وتعلقت الآمال بمستقبل مجيد

لكن هذه الآمال أخذت في الزوال منذ بضع وعشرين سنة بعدول هذه المدارس عن هذه اللغة في تدريس العلوم العالية . بدأت بذلك المدرسة الكلية الاميركية في بيروت فجعلت قاعدة التدريس اللغة الانكليزية . وهكذا اليسوعيةجعلت التدريس بالفرنساوية . ثم المدارس المصرية فجعلت التعليم في كلتا هاتين اللغتين . ثم أخذت الانكليزية تتغلب فيها رويداً رويداً ولا تزال . وحجة هذه المدارس في هذا التغيير قلة الكتب التعليمية في اللغة العربية وكثرتها واتقانها في اللغة الاجنبية . وهو عذر وجيه لاننا مهما بلغ من ارتقائنا العلمي لا نزال وراء تلك الامم بمراحل لانهم سبقونا منذ أجيال فاصبح اللحاق بهم صعباً . الا اذا أخذنا عنهم وتمشينا على خطواتهم ويسهل ذلك خصوصاً اذا تلقنا تلك العلوم وتتبعناها بألسنتهم رأساً

تلك حجة مقبولة لدى طالب العلم ان لم يكن غرضه غير التفقه واستنارة الاذهان . ولكن التعليم يراد به شيء آخر لا يقل أهمية عن ذاك نعني ترقية شؤون الامة وجمع كلمتها واحياء آمالها ليكون لها شأن بين سائر الامم . وهذا لا يكون الا بترقية لسانها واحياء آدابها بتأليف الكتب العلمية والادبية وانشاء الصحف والمجلات فيه . ولا يتيسر لها ذلك الا اذا كان هو قاعدة التدريس في المدارس الكبرى فضلاً عن الصغرى فكيف اذا لم تعلم فيه هذه ولا تلك ؟ — تلك كانت حال المدارس بمصر والشام الى عهد غير بعيد

أصبح التعليم بمصر منذ بضعة أعوام كله في اللغة الانكليزية او الفرنساوية حتى مبادىء التاريخ والجغرافيا والحساب . وأوشكت العلوم العربية نفسها أن تعلم باللسان الاجنبي . فاحتجت الامة بلسان مجلس الشورى وأخذت الصحف بناصرها وكنا في جملة من خاض عباب هذا الموضوع وبينا الضرر الناجم من اغفال اللغة العربية . فاهتمت الحكومة بهذا الشأن ووعدت وزارة المعارف اذ ذاك باعادة التدريس فيها

ويداً رويداً لكنها لم تخط الا خطوات قليلة لا تشفي غليلاً

فلما صارت هذه الوزارة الى صاحب السعادة أحمد حشمت باشا جعل همه ترقية المعارف على العموم واحياء آداب اللغة العربية على الخصوص . فادخل تحسيناً هاماً على المدارس الاميرية . والتفت الى العامة فنظر في ما يحتاجون اليه مما يسهل عليهم أبواب الرزق . والى المرأة وما يساعدها على ترتيب منزلها وتربية أولادها فضلاً عن تعميم اللغة العربية في أكثر المدارس

على ان الامم الراقية و الراغبة في الارتقاء لا تلتقي كل اتكالها على الحكومة بل تنهض هي بنفسها وتنفق من أموالها في ترقية ابنائها . ان جانباً كبيراً من جامعات أوربا انشأها رجال من اهلها وقفوا عليها الاموال وتضاعفت الاوقاف بتوالي الايام حتى صارت تعد بملايين الجنيهات . فضلاً عن المدارس الاخرى على اختلاف طبقاتها فان للامة دخلاً عظيماً في انشائها أو الانفاق عليها

هكذا فعل الافاضل الذين بذلوا أموالهم في انشاء الجامعة المصرية بذلوها بسخاء ورغبة لانهم يشعرون بحاجة الامة الى التعليم الراقي . وقد شعرنا بذلك فاقترحنا منذ بضع عشرة سنة انشاء مدرسة كبرى لترقية اخلاق الامة وتهذيب عقولها ــ أردنا بها مدرسة كلية داخلية على شكل كلية بيروت تعلم الشبان وتربي أخلاقهم . فلما نهضت الامة لانشاء تلك المدرسة لا ندري من أشار بان تكون « جامعة » وان يقلدوا بها جامعات اوربا الكبرى بان يكون فيها التعليم خطباً تلقى سماعاً وينصرف الطلاب الى شؤونهم بلا تحريض ولا تسميع . فظهرت لسنتها الاولى أشبه بالنادي الادبي منها بالكليات العلمية فانتقدنا ذلك في الهلال الخامس من سنة ١٧ (فبراير سنة ١٩٠٩) في مقالة ضافية بينا فيها ان طريقة الجامعة وعلومها لا تفي بحاجة البلاد واقترحنا تعليم الطبيعيات والرياضيات بفروعهما . واظهرنا ما يترتب على تعلمها من تثقيف العقول وألححنا في التوسع في العلوم الاخرى . واقترحنا أن تكون المدرسة داخلية يدخلها الطالب يتلقى فيها العلوم ويتمرن باسباب الترقي ويتجمل بالآداب النافعة

فكان لندائنا صدى لدى مجلس ادارة الجامعة فعدلت بروغرامها وجعلت للعلوم الطبيعية حظاً بين العلوم التي قررت تدريسها للسنة التالية . وارسلت شباناً يتلقون تلك العلوم في اوربا على نفقتها حتى يعودوا ويعلموا تلك العلوم فيها . فدلنا ذلك على تعقل المجلس المذكور ورغبته في تطبيق أعماله على حاجة الامة وصرنا نتوقع أن يغير طريقة

التدريس الى ما يلائم حاجة الامة فلم يفعل . ودل الاختبار في السنين التي مضت منذ انشاء الجامعة ان هذه الطريقة غير وافية بحاجة البلاد لان الطلبة يتناقصون كل عام عما قبله حتى اصبحوا يعدون على الاصابع . فلا بد من اعادة النظر في أمر هذه الجامعة وعلومها وطرق تدريسها . وتتقدم بذلك الى مجلس ادارتها فانهم وحدهم المسئولون عن هذا المعهد العلمي لدى الامة التي وضعت ثقتها فيهم وعهدت بادارته اليهم

نحن لا نشك في صدق نية حضراتهم في خدمة الامة . ولكن صدق النية وحده لا يكفي لقيام الاعمال . ان سبعة آلاف جنيه تنفق على التعليم كل عام ينبغي أن تظهر أثمارها . لا ندري ما أعدته الجامعة لهذا العام من التحسين لكنها في كل حال تحتاج في نظرنا الى تعديل أساسي بتغيير بروغرامها حتى يوافق حاجة البلاد . ونحن نعلم ان اعضاء مجلسها يعملون مجاناً وبعضهم ينفق المال من جيبه في خدمتها والرئيس أعزه الله يسافر كل عام ويكابد مشاق الاسفار ونفقاتها في هذا السبيل ـ هذا كله مسلم ويدل على صدق نية المجلس وغيرته . ولكن يظهر من مجاري الاحوال انه لم يهتد بعد الى الخطة الملائمة لهذا الوسط . فنستأذنهم في ابداء ما يعنّ لنا من هذا القبيل ونرجو أن لا يسوءهم ذلك لاننا شركاء في هذه الخدمة وانما نعمل معاً لمصلحة هذه الامة

اذا انتقدنا طريقة التعليم في الجامعة المصرية وقلنا انها لا تفيدنا فلا نريد أنها لا تفيد غيرنا لانها الطريقة التي سارت عليها معظم جامعات اوربا . ولكن المطلوب ممن يريد ادخال حسنة من حسنات التمدن الحديث الى الشرق ان يكيفها حتى تلائم طبائع أهله وتوافق مصالحهم ويسهل تناولها عليهم . لا ان يقدمها لهم كما هي اذ لكل أمة أحوال تختلف عما للاخرى

وحاجة هذا القطر كما قلنا مراراً انما هي الى ترقية النفوس وتدريب الشبيبة على العمل وتعليمهم قيمة الوقت وتدريب عقولهم على التمييز بين الصحيح والفاسد . وهذه وامثالها لا تنال باستماع الخطب في آداب اللغة أو تاريخ الحضارة أو الفلسفة ـ ليس لان هذه العلوم لا ترقي العقول بل لان الطلبة عندنا غير مستعدين لتفهمها والاستفادة منها لانها فوق ما يحتاجون اليه . كما انهم لا يستفيدون الفائدة المطلوبة من المدارس الابتدائية والثانوية المصرية وما يلقى في الجامعة الان . وهذا الذي نريده بانشاء

المدرسة الكلية العلمية لأنها تتكفل بسد هذا الخلل . والفرق بينها وبين المدارس الثانوية التي تمنح شهادة البكلوريا بمصر انها أرقى كثيراً ولا سيما في العلوم الطبيعية والرياضيات التي ترتقي بها عقول الشبان وتتعود النظر الصحيح والحكم المعقول

فالبلاد في حاجة الى مدرسة علمية علومها أرقى من علوم المدارس الثانوية المصرية وتكون داخلية يتربى فيها التلامذة على الاخلاق الراقية والآداب الصحيحة ويحمل بها التلميذ على الدرس كرهاً وينشأ في وسط يكون أساتذته مثالا في الاخلاق السامية فضلاً عن العلم . وتكون هذه المدرسة مدرسة تعليم وتربية يدخلها الطالب لدن العود لين العريكة فلا يزال يتلقى العلم ويتمرس باسباب الترقي ويطبع على الاقدام وسائر الفضائل حتى يخرج مثقفاً قوي الارادة نشيطاً مستقل الفكر هماماً يحب وطنه ويتفانى في خدمته . هذا لا يتأتى بالحضور الاختياري لسماع الخطب لان معظم هذه المناقب تنال بالقدوة والمباحثة والمعاشرة والمناقشة آناء الليل وأطراف النهار . وبالجملة اننا في حاجة الى مدرسة يسبك فيها الطالب سبكاً في قالب جديد يوافق مصلحة بلاده

هذه هي المدرسة التي نحن في حاجة اليها فنقترح على مجلس ادارة الجامعة ان يحولوا اسم « الجامعة المصرية » الى « الكلية المصرية » ويجعلوا بروغرامها مثل بروغرامات الكليات العلمية الحقيقية . واذا أرادوا ان يكون ذلك البروغرام أقرب الى حاجة بلادنا فليجعلوه مثل بروغرام المدرسة الكلية الاميركية في بيروت مع ما تقتضيه حال مصر من التعديل. انما يشترط أن يكون تعليمها باللغة العربية فتكون لها مزية على سائر المدارس الكبرى بمصر والشام من حيث احياء الآداب العربية لاسباب تقدم بيانها

وفي صندوق الجامعة الآن بضعة وعشرون الف جنيه غير الاوقاف ولها ريع ثابت يزيد على سبعة آلاف جنيه وهذا رأس مال كاف للشروع في هذا العمل . فينفق من المال المجموع لانشاء المعارض العلمية اللازمة لتلامذة الطبيعيات والتاريخ الطبيعي وأدوات الكيمياء وغيرها . ويشرع في اقامة بناء خاص للجامعة . وقد علمنا ان الحكومة ستهب الجامعة أرضاً واسعة في محل مناسب ولعلها تساعدها في البناء ايضاً . والا فالجامعة تبنيها مما تجمعه من التبرعات بتوالي الاعوام . وتنفق من الريع السنوي على رواتب الاساتذة مما لا يمكن تحديده تماماً . ولكننا على ثقة من ان ذلك كاف

للشروع في انشاء الكلية العلمية . ثم تنشأ الكليات الاخرى في الفروع الاخرى من العلوم العالية حسب الحاجة . وبعد ذلك يتألف من مجموع هذه الكليات « الجامعة المصرية »

هذا ما نراه وقد يكون في حاجة الى تعديل او تنقيح فلا بأس من المناقشة فيه . لكنه صحيح في أساسه وهو تحويل الجامعة المصرية الى كلية علمية مصرية تعلم العلوم الراقية في اللغة العربية فتحيي موات هذه اللغة بل تحيي الامة العربية . لان منها يخرج المعلمون لمدارس فرعية تربي الناشئة على خطتها ومناهجها فلا يمضي زمن طويل حتى تنتشر تلك الروح الراقية في الامة مما نبكي عليه الآن ونتمناه ــ والله ولي الامر

كتّاب العربية وقرّاؤها[1]

مرَّ على اللغة العربية دهور طوال تقلبت فيها بين الزهو والخمول والخصب والذبول تبعاً لما اقتضته الاحوال وما تقلب اهلها عليه من الرغد والرخاء والضيق والعناء لأن اللغة كما لا يخفى تسعد بسعادة أهلها وتشقى بشقائهم فاذا سادت الامة واعتز ملكها انطلقت ألسن عقلائها وانبرت أقلامهم فيرتقون منابر الخطابة ويتسابقون في ميادين الكتابة واذا ضربت عليهم الذلة والمسكنة انعقدت السنتهم وتكسرت اقلامهم وخيم الجهل عليهم . يشهد بذلك تاريخ اللغة العربية من ظهور الاسلام الى الآن فقد كانت في أعصر الجاهلية مبعثرة ضائعة حتى ظهر الاسلام وانتشرت اعلامه واستولى المسلمون على خزائن العلم الرومانية واليونانية والفارسية والمصرية فجمعوا شتات اللغة وهموا باستخراج تلك الكنوز ولكن الحروب المتواصلة شغلتهم عن الخوض في عبابها فلما استتب لهم الملك في عصر العباسيين وقد تأيدت شوكتهم وخضعت دول الارض لمرهفات سيوفهم عكفوا على تلك العلوم فنقلوها الى لسانهم وأخذوا في التأليف والتصنيف ثم قضت سنَّة الله في خلقهِ بانتقال صولجان الملك وعرش السيادة الى دول الاعاجم فدالت دولة العرب واخذت عقول رجالها في الذبول والتقهقر ومالت شمس اللغة العربيــة حتى كادت تؤذن بالزوال لو لم يقيض لها الله رجل الاصلاح

(١) عن الهلال سنة ٥ صحيفة ٤٤٨

المغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة المحمدية العلوية في أوائل هذا القرن فاقتضت مقاصده احياء مواتها ونشر أعلامها فانشأ المدارس وأمر بترجمة الكتب وتأليف المؤلفات واتفق على أثر ذلك قدوم جالية الافرنج الى ربوع الشام في أواسط هذا القرن فانشأوا المدارس وتسابقوا الى تعليم الشبان والشابات تسابق أهل التجارة الى ترويج سلعهم فزهت تلك الربوع بالعلم والمعرفة وكثر المؤلفون والكتاب وأنشئت الجرائد والمجلات في القطرين المصري والسوري وهي النهضة العلمية الاخيرة التي بزغت شمسها في سماء هذا القرن

ولو تتبعنا تاريخ آداب اللغة العربية في العصرين العباسي والاندلسي وقابلناه بتاريخها في هذا العصر لرأينا بينهما مشابهة كبرى لان العرب في العصور الاولى أخذوا علومهم عما تركه اليونان والرومان والفرس والمصريون والسريان وغيرهم فبدأوا بنقل الكتب الى لسانهم فكان أول كتابهم المترجمون فلما استوعبوا تلك العلوم واتقنوها واكثروا من التبحر فيها عكفوا على تلخيصها وتحريرها على ما يلائم تمدنهم ثم أخذوا في التأليف والتصنيف ما خلا العلوم التي اقتضاها التمدن الاسلامي كالتفسير والحديث والفقه وغيرها فان العرب وضعوها من عند أنفسهم

والظاهر ان ذلك طبيعي في تاريخ العمران عند كل امة اخذت العلم عن غيرها فانهم اول ما يبدأون بترجمة كتب ذلك الغير حرفياً لا يلاحظون في ترجمتها ما لا بدّ منهُ بين الامم من اختلاف الاذواق والعوائد والاخلاق فاذا تدبروها وتثقفت عقولهم بها ادخلوا في ترجمتها بعض التحوير فصاروا اذا ترجموا كتابا لخصوه وفقاً لاذواق قرائهم حتى يتمكنوا من تلك العلوم وتكثر تلك الكتب في لسانهم فيعمدون الى جمع الحقائق من كتب متعددة الى كتاب واحد وهو التأليف ثم يصير العلم ملكة فيهم فيكتبون من عند انفسهم وهو التصنيف . ولكنهم اذا ألفوا او صنفوا انما ينسجون على منوال الكتاب الذين اخذوا العلم عنهم فيسيرون على خطواتهم في كل ما يشرعون فيه من الاعمال العلمية أو الادبية . فتمرّ الامة في صناعة الكتابة على أربعة أدوار وهي الترجمة فالتلخيص فالتأليف فالتصنيف

ومثل ذلك يقال في نهضة هذا العصر فان أهله فتحوا أعينهم فرأوا شموس المعارف مشرقة من الغرب فلم يجدوا سبيلا الى اكتسابها الا بتعلم لغات الافرنج ثم أرادوا نقلها الى لسانهم فعكفوا على ترجمة ما وصلت اليه أيديهم على ما اقتضتهُ

احتياجاتهم ثم عمدوا الى الكتابة فيها على ما يوافق اذواق المشارقة بين تلخيص وايضاح ثم قلدوهم بانشاء المشروعات الادبية كالمدارس والجمعيات وتأليف الكتب وانشاء الجرائد ونحوها

ولكن بين علوم هذا العصر وعلوم عصر العباسيين تبايناً لا ينطبق معهُ الحكم في عصرهم عليه في عصرنا انطباقاً كلياً لان العلوم بمرورها في قارة أوربا السنين الطوال تنوعت وتفرعت وتضاعف عددها وتبدلت مواضيعها حتى صارت تعدُّ بالعشرات وفيها شيء كثير مما لم يكن معروفاً في تلك العصور . فهي تنقسم الى ثلاثة أقسام كبرى (١) الطبيعيات (٢) الادبيات (٣) الدينيات . والطبيعيات تشمل كل ما يبحث في الطبيعة وموجوداتها ونواميسها كالفلسفة الطبيعية والكيمياء والجيولوجيا والفلك والتاريخ الطبيعي والجغرافيا الطبيعية والطب بفروعه والصيدلة وغيرها . والادبيات تشمل التاريخ وفلسفته والجغرافيا وعلوم اللغة بفروعها والفلسفة الادبية والعقلية واللغوية والمنطق والرياضيات وعلم الاخلاق والسياسة والقضاء وآداب السلوك وعلم الاقتصاد السياسي وعلم العمران والتربية وغيرها . والدينيات تشمل علوم الدين على انواعها وهي لا تدخل في بحثنا

فالعلوم الطبيعية قد بلغنا فيها الدور الثاني ولم نتجاوزه بعد فاذا كتبنا فيها انما نترجم ما كتبه الافرنج أو نلخصه وقلما نؤلف ولكننا لا نصنف فيها أبداً لان التصنيف في هذه العلوم عبارة عن الاكتشاف أو الاختراع وهو بعيد عنا حتى الآن. أما العلوم الادبية فقد ارتقينا في معظمها الى الدورين الثالث والرابع فقد نؤلف في التاريخ والجغرافيا وفي علوم اللغة والقضاء أو الاخلاق وقد نصنف في الفلسفة الادبيه أو فلسفة التاريخ وغيرها ولو على قلة . ومن هذا القبيل المقالات الادبية والابحاث السياسية أو التهذيبية أو الاقتصادية . على أننا لا نعرف حدًّا فاصلاً بين هذه الادوار فقد يكون بين كتابنا من لا يزالون في الدور الاول أو الثاني وقد ترى بينهم من أدرك الثالث أو الرابع

والمترجمون والملخصون هم اكثر كتابنا عدداً واقدمهم على الكتابة . والترجمة اذا روعيت فيها شروط الاختيار اكثر فائدة لنا من التأليف او التصنيف لان مؤلفات الافرنج في العلوم الحديثة أوفر مادة وادق بحثاً مما قد نكتبه نحن فضلاً

عما يقتضيه التأليف أو التصنيف من البحث والتنقيب والمراجعة والدقة بالنسبة الى الترجمة . فاذا نقلنا كتاباً في الطبيعيات من الفرنساوية الى العربية مثلاً فنكون قد وبحنا أتعاب مؤلف ذلك الكتاب على أهون سبيل فضلاً عن الكتب المؤلفة في موضوع خصوصي من اناس بذلوا سني حياتهم في جمع حقائقه مثل مؤلفات المخترعين والمكتشفين العظام فهذه لا تستغني امة من امم الارض عن ترجمتها

وقد يتبادر الى الذهن ان الترجمة أو التلخيص من أسهل ضروب الكتابة لانها انما تحتاج الى معرفة لغة أو اكثر من لغات اوربا وذلك ميسور لسائر أبناء هذا القرن . فمن توهم ذلك فقد ارتكب خطأً فاحشاً لان المترجم لا يحسن الترجمة الا اذا كان ملماً بالموضوع الذي يختار الترجمة فيه والا فترجمته فاسدة قلما تأتي بفائدة وقد تضر . نعم ان الترجمة لا تحتاج الى بحث أو تنقيب ولكنها تحتاج الى تدبر وحسن اختيار ليكون ما نترجمه موافقاً لاذواق القراء مثقفاً لعقولهم ومهذباً لاخلاقهم مع اللذة والفائدة فقد يقرأ أحدنا كتاباً في بعض اللغات الافرنجية فيلتذ لمطالعته أو يتوهم النفع منه فيعمد الى نقله وطبعه ونشره فاذا ظهر في عالم المطبوعات لم يجد من يقرأه فينقم على العلم ويرمي القراء بالجهل ويزعم انه أراد خدمتهم فلم يقدروا أتعابه حق قدرها ولعل هذا هو السبب فيما ينسبه بعض الكتاب الى أبناء هذا الجيل من الانغماس في الجهل والتقاعد عن المطالعة وعندنا ان القراء عديدون والاقبال على الكتب كثير ولكن الخطأ من الكاتب لانه لم يحسن الاختيار

والكتب التي قد يراد ترجمتها اما أن تكون طبيعية أو أدبية (فالكتب الطبيعية) كثيرة في لغات الافرنج ومعظمها من خيرة المؤلفات واكثرها فائدة ولكن بعضها لو نقل الى اللسان العربي لم يبلغ عدد قرائه بضع عشرات كما لو أراد أحدنا ترجمة مؤلفات العلامة داروين الفيلسوف الطبيعي الشهير فانها في المنزلة الاولى بين الكتب الطبيعية ولكن مترجمها لا يجني من أتعابه الا خسارة الوقت والمال معاً لا لجهل القراء قدرها ولكن مواضيعها عويصة لا يدركها الا المتبحر في الفلسفة الطبيعية والتاريخ الطبيعي والطب وغيره وقلّ أن يكون بيننا من أتقن هذه العلوم الا وهو يحسن لغة أو اكثر من لغات الافرنج فيفضّل مطالعة هذه الكتب فيها لان للانشاء في لغة طلاوة يخسرها بالترجمة الى لغة أخرى وقس على ذلك مؤلفات كثيرين من العلماء الطبيعيين في سائر لغات اوربا . فاذا عزم أحد كتابنا على ترجمة شيء من هذه

الكتب الى العربية فليختر أصغرها حجماً وأسهلها تناولاً لان قراءه اكثرهم من عامة الناس لا من علمائهم وهكذا فعل استاذنا المرحوم الدكتور فانديك في كتابه « النقش في الحجر » فقد لخصه في شيخوخته بعد طول اختباره وبحثه في كتب افرنجية في تسعة أجزاء صغيرة جعل كلا منها في علم على اسلوب تفهمه العامة وترضى به الخاصة وقد وجد بالتجربة والاختبار انه أفضل كتاب في بابه

وقد يعترض بعضهم بان الاقتصار على هذه المؤلفات الصغيرة لا يؤمل معهُ وصول لغتنا الى ما وصلت اليه لغات أوربا من الغنى بالعلم فالجواب على ذلك أن لغتنا من هذا القبيل لا تزال بمنزلة الطفل عند أوَّل فطامه لا تقوى معدته على هضم الاطعمة الضخمة وان كانت كثيرة الغذاء فهل تطعم طفلك رطلاً من اللحم أو دجاجة أو سمكاً لكثرة غذائها أم تعتبر قوة معدته على الهضم فلا تطعمه الا اللبن او المرق أو نحوه فاذا اشتد ساعده وقويت معدته تدرجت في تغذيته شيئاً فشيئاً . وهذا هو شأن اللغة العربية والعلوم الطبيعية فان اللغة لا تزال في أول فطامها وهي في حاجة الى المؤلفات الصغيرة السهلة فاذا تثقف أهلها وتعلموا تدرجوا في نقل الكتب العالية .ولا يرجى ذلك الا بتعليم هذه العلوم مطولة بالمدارس العالية في اللغة العربية فيخرج الشبان وقد استوعبوا هذه العلوم وأصبحوا قادرين على فهم العويص منها كما كانت تفعل المدرسة الكلية السورية ببيروت منذ بضع عشرة سنة فقد كانت تعلم هذه العلوم فيها باللغة العربية وكانت تعقد الاجتماعات العلمية في قاعاتها يتباحث فيها التلامذة في العلوم على أنواعها وليس بين تلامذة هذه المدرسة ممن تخرَّجوا فيها قبل هذا التاريخ الا من يستوعب أي كتاب علمي قرأه في اللغة العربية ولو كان عويصاً واذا تدبرت ما ألف من هذه الفنون في لغتنا لرأيته من أثمار تلك الايام وترى من الجهة الاخرى أن المؤلفات الطبية والطبيعية المطبوعة في سوريا باللغة العربية قبل خمسة عشر عاماً انما هي من تآليف اساتذة تلك المدرسة أو بعض تلامذتهم . ولكننا على الاسف نقول انها عدلت عن هذه الخطة منذ بضع عشرة سنة فاصبح تلامذتها من ذلك الحين يخرجون منها وعلومهم في صدورهم قلما يستطيعون نشرها بين اصحابهم بلسانهم فهم بالطبع لا يستطيعون الكتابة فيها نعم انهم اذا قرأوا كتاباً علمياً في العربية فهموه ولكن من يكتب لهم تلك الكتب وهم الذين يرجى منهم التأليف فيها . فتعلم العلوم الطبيعية في المدرسة الكلية باللغة الانكليزية قد أضرَّ باللغة العربية ضرراً بليغاً .

ولا نستثني من هذا اللوم المدارس الاخرى العالية كمدرسة الآباء اليسوعيين فانهم على رغبتهم في نشر آداب اللغة العربية نراهم قد أغفلوا أمر العلوم الطبيعية فيها

أما مصر فقد سبقت سوريا وغيرها من البلاد العربية الى ترجمة الكتب الطبيعية وأول من سعى في ذلك المغفور له محمد علي باشا فكان يأمر بترجمة الكتب العلمية من الفرنساوية أو الايطاليانية ثم يطبعها على نفقته وقد اقتدى به خلفاؤه على الاريكة الخديوية فنقلوا كتباً مطولة في الطب وفروعه والتاريخ الطبيعي والكيمياء كانت معتمد أهل اللسان العربي في دراسة هذه العلوم بسائر بلاد المشرق وما زالت المؤلفات تتكاثر في هذه الفنون الى زمن الثورة العرابية فزهت مصر بالكتاب والخطباء وأرباب الاقلام حتى اذا كان الاحتلال الانكليزي انصرفت العناية الى نشر اللغة الانكليزية في وادي النيل وكانت العلوم الطبيعية وغيرها تعلم بالمدارس الاميرية باللغة العربية ففي حوالي سنة ١٨٩٠ قررت نظارة المعارف العمومية ان لا تعلم تلك العلوم الا باحدى اللغتين الانكليزية أو الفرنساوية وهما تعلمان في المدارس الاميرية

ومن الاسباب التي بنوا عليها العدول عن تعليم العلوم بالعربية واستبدالها بالافرنجية ثلاثة (١) أن تعليم تلك العلوم بلغة أفرنجية يساعد التلامذة على أتقان تلك اللغة والتمكن من اساليب التعبير فيها (٢) ان اللغة العربية فقيرة بالمؤلفات الوافية لتعليم هذه العلوم (٣) ان ليس بين أساتذة هذه العلوم الوطنيين أناس فيهم الكفاءة لتعليمها . وهي أسباب ضعيفة لا يصح التعلل بها في اماتة اللغة العربية واستبدالها بلغة أخرى. نعم ان تعليم العلوم في لغة يساعد على أتقانها ولكن ذلك محصور في مصطلحات ذلك العلم فمن تعلم الكيمياء بالانكليزية اكتسب الالفاظ الانكليزية المصطلح عليها عند الانكليز للتعبير عن المسميات الكيماوية فقط وكذلك من يدرس الطبيعيات أو غيرها لان لكل علم من العلوم أسلوباً من التعبير خاصاً به وهو ما نسميه (اللغة العلمية) وهذه هي الحال في العربية أيضاً فان الذي لا يدرس العلوم الطبيعية في العربية لا يفهم اصطلاحاتها فيها ولو كان عالماً في قواعد اللغة ومباني الفاظها فكان نظارة المعارف تسعى في اماتة اللغة العربية العلمية وبعبارة أخرى في أماتة العلم بين أهل اللسان العربي لان تلامذة هذه الايام يخرجون من المدرسة ولغتهم العلمية انكليزية أو فرنساوية فاذا أرادوا التعبير عن حقيقة علمية أو كتابتها بالعربية لم يستطيعوا ذلك

الا بالجهد والتكلف وبعكس ذلك لو تعلموا العلوم بالعربية فانهم يستطيعون التأليف وانشاء الخطب ومحادثة الناس فيها بكل سهولة فيكونون شموساً تنبث أشعة علومهم الى كل الانحاء . أما اتقان اللغات الافرنجية فيستدرك بمطالعة كتب أخرى بمواضيع أخرى أو مطالعة مطولات العلوم التي درسوا مختصرها في الكتب العربية فيحصلون بذلك على فائدتين معاً وهما اكتساب اللغة والتوسع في العلم . أما قولهم ان اللغة العربية فقيرة بالمؤلفات الوافية بتعليم هذه العلوم فهو سبب ضعيف جداً لعلمنا أن في اللغة العربية كتباً تكفي لهذا الغرض الآن وهب أنها غير موجودة ففي امكان النظارة تأليفها بسهولة

وأما تعليم هذه العلوم في لغات أجنبية فمن أصعب الامور وخصوصاً على التلامذة المبتدئين لانهم لا يكادون يفهمون هذه العلوم بلسانهم فكيف يفهمونها بلغة أخرى فضياع الوقت في تفهيمهم لغة العلم تكفي لتعليمهم علماً آخر فضلاً عما للغة من التأثير على أذهان اصحابها . وأما قولهم بعدم كفاءة المعلمين فهذا أضعف الحجج لان بين ظهرانينا علماء مبرزين في العلوم الطبيعية على أنواعها مما لا يجهله أحد

ومن أغرب ما سمعناه في تواريخ الامم أن يعلم الناس ابناءهم تاريخ بلادهم بلغة أجنبية ولم تفقه الحكمة في ذلك ولا نظن رجال المعارف يجهلون تأثيره على مستقبل اللغة العربية فها أننا بعد أن سرنا في النهضة العربيـة شوطاً بعيداً عدنا فوقفنا هنيهة كأن عجلات مركبتنا عثرت بالاحتلال الانكليزي فوقفت

فلو كانت المدارس العالية بمصر والشام تعلم العلوم الطبيعيـة مطولة باللغة العربية لنشأ رجال الجيل القادم وقد تثقفت عقولهم بالعلوم العصرية بلسانهم فينبغ منهم جماعة يترجمون مطولات هذه العلوم فيجدون بين أبناء بلادهم من يقدر أعمالهم حق قدرها فتروج سوق العلم ويكثر المؤلفون والمصنفون وتتعدد المؤلفات وينبغ بيننا المخترعون والمكتشفون أما الآن فنقل مطولات العلوم الى لساننا لا يأتي بفائدة

أما (الكتب الادبية) فهي اكثر عدداً وأوسع دائرة من تلك ولكن نصيب بعضها من اقبال القراء نصيب الكتب الطبيعيـة التي أشرنا اليها وخصوصاً الكتب الفلسفية الحديثة كفلسفة سبنسر وشوبنهور وهرشل وغيرهم

ومن هذا القبيل الكتب الفلسفية القضائية مثل كتاب روح الشرائع لمونتسكيو واصول الشرائع لبنتام وغيرها فانها بديعة في بابها على أنها اذا ترجمت قد تلاقي اقبالاً

لان طلابها اكثرهم من المحامين وهم في الغالب من المثقفين المتعلمين ولكن معظمهم يحسنون اللغات الافرنجية فيفضلون مطالعة هذه الكتب فيها . وقس على ذلك كثيراً من الكتب الادبية العالية والسبب في ذلك تقاعد مدارسنا عن تعليم هذه العلوم مطولة واذا فعلت ذلك فانها تختار كتباً أعجمية كما قدمنا . على ان هناك مؤلفات كثيرة في علوم حديثة تحث المدارس على تعليمها وتتقدم الى كتابنا أن ينقلوها الى لساننا لاننا في حاجة اليها ككتب الاقتصاد السياسي وعلم العمران (السوسيولوجيا) والتربية وعلم الرياضة البدنية (الجباز) وتدبير المنزل وآداب السلوك وغيرها فان المنقول منها الى لساننا قليل جداً بالنسبة الى ما ادخره علماء الافرنج من جواهرها في لسانهم ومن هذا القبيل الكتب التهذيبية ككتاب سر النجاح الذي ترجمه العلامة الدكتور يعقوب صروف بايعاز استاذنا المرحوم الدكتور فانديك فانه كتاب جليل لا ريب عندنا في أنه أثر تأثيراً كبيراً في انهاض همم الذين طالعوه لانه حاثٌّ على الاجتهاد والمثابرة على العمل والاعتماد على النفس مما لا يستغني عنه في مثل حال شباننا اليوم

ومن أنفس كتب الادب التي لا تزال اللغة العربية مفتقرة اليها منظومات فطاحل شعراء الافرنج قديماً وحديثاً وفي مقدمتهم امام الشعراء واستاذهم وشيخهم هوميروس اليوناني الشهير ومن جاء بعده من شعراء اليونان والرومان والايطاليان والالمان والفرنساويين والانكليز وغيرهم . أما هوميروس فقد نظمه في العربية صديقنا العالم الفاضل سليمان افندي البستاني . ولكن هناك عدداً كبيراً من نوابغ شعراء الافرنج لا تزال أشعارهم محجوبة عنا منهم فرجيل وهوراس الرومانيان ودانتي وطاسو الايطاليان وغوتي وشيلر الالمانيان وشكسبير وميلتون وبيرون وتيسون وغيرهم من شعراء الانكليز وفيكتور هيكو وموليير وراسين وبوالو من الفرنساويين وغيرهم

فترجمة اشعار مثل هؤلاء الى العربية يكسبها رونقاً وجمالاً لانها تكتسب بذلك أثمار عقول اكبر ادباء العالم بما تتضمنه من فنون الشعر وبدائع المعاني فضلاً عن معرفة أخلاق الامم وعوائدهم وأطوارهم على اختلاف الازمنة والاصقاع

ومن الكتب الادبية التي لا غنى لنا عن ترجمتها التواريخ القديمة التي كتبها اليونان والرومان وغيرهم ولا بد لمطالع التاريخ من معرفتها مثل تاريخ هيرودوتس الرحالة الشهير وتاريخ يوسيفوس وديودوروس وزينوفون وبلينيوس واسترابون وغيرهم وكذلك التواريخ الحديثة التي وضعها بعض الافرنج عن الامم الشرقية القديمة بعد

البحث في آثارهم وبقاياهم كتاريخ ماسبرو وماريت وسايس ورايت وغيرهم عن المصريين أو الاشوريين أو الفينيقيين أو الحثيين أو من عاصرهم ويدخل تحت هذا الباب أيضاً الرحلات الجغرافية وما جرى مجراها

ناهيك عن ترجمة الكتب التعليمية المدرسية لتعليم اللغات كالقواميس وكتب النحو وغيرها وهي أساسية في هذا الباب لانها تساعد على درس اللغات وفهم دقائقها فتساعد على الترجمة عموماً ولكن يجب التدقيق في وضع الالفاظ العربية الصحيحة ازاء ما يقابلها من الالفاظ الافرنجية لان بين الكتب التعليمية التي تعلم الان في المدارس الاميرية وغيرها كتباً سقيمة التركيب عامية الالفاظ ليست من اللغة العربية في شيء فمثل هذه الكتب مفسدة للملكة اللسان العربي لانها تغرس في أذهان التلامذة وكاكة التعبير فنوجه انظار مؤلفيها الى ذلك

وهناك قسم كبير من الكتب التعليمية لنا مجال واسع للكلام فيها نعني بها الروايات . فالروايات في اللغات الافرنجية تعدُّ بمئات الالوف وقراؤها أكثر عدداً من قراء سائر الكتب ولذلك فان مترجميها عديدون وفي ترجمتها فوائد أدبية عظمى هذا اذا أحسن المترجمون اختيارها فانتقوا منها ما ينطبق على شروط الآداب الشرقية وقد كنا في بدء اشتغالنا بالعلم منقطعين الى العلوم الطبيعية لاعتقادنا انها أساسية في أعمال البشر مع افتقار التمدن الحديث اليها ولأنها مصدر اختراعاته واكتشافاته وكنا نظن مطالعة الروايات وغيرها من الكتب الادبية لا فائدة منها سوى ضياع الوقت عبثاً ولكننا وجدنا بعد البحث والتجربة ان الانسان كثير الافتقار الى العلوم الادبية لتثقيف عقله وترقية عواطفه وتهذيب اخلاقه وتوسيع دائرة اختباره

والروايات الادبية أحسن وسيلة لبث تلك المبادىء على اسلوب يؤثر في النفس فتمثل بها الاخلاق الحسنة مع الحث على التمسك بها والاقتداء باصحابها . ونذكر اننا طالعنا في حداثتنا رواية صغيرة الحجم منقولة الى العربية اسمها « رواية جنفياف » تمثلت فيها الفضيلة والعفة أحسن تمثيل ولا نذكر كتاباً أثر على عواطفنا مثل هذا التأثير فقد قرأناها ودموعنا تتساقط لما أودعه فيها المؤلف من الحوادث المعربة عما ينتاب محبي الفضيلة احياناً من مساعي أهل البغي والفساد وقد مضى زهاء خمس وعشرين سنة منذ قرأناها ولا تزال حوادثها نصب أعيننا ولم نسمع أحداً قرأها ولم تؤثر فيه مثل هذا التأثير . فنقل مثل هذه الرواية الى العربية خدمة جليلة لابنائها

ولكن من موجبات الاسف ان بعض مترجمي الروايات عندنا قلما يلتفتون الى موضوع الرواية ومنزلتها من الادب فيترجمون أقاصيص يخجل الشاب من مطالعتها فضلاً عن العذراء . ومما نذكره من هـذا القبيل رواية اسمها (الانتقام العادل) أهديت الينا للتقريظ منذ بضع سنين فلم نقرأ بعضها حتى طويناها آسفين على ما انفقهُ مؤلفها من الوقت في تأليفها وسبك عباراتها لما حوتهُ من الحوادث المخجلة . ناهيك عن روايات كثيرة مفسدة للاخلاق مضرة بالهيئة الاجتماعية وفي ترجمتها خسارة كبرى

والروايات أنواع كثيرة منها التاريخية والعلمية والفكاهية والاخلاقية وغيرها تبعاً لما يراد تعليقه في ذهن القارىء من التاريخ أو العلم أو الآداب أو الاخلاق ولكل منها فائدة في بابها وكلها جديرة بالترجمة على شرط خلوّها مما يفسد الاخلاق

ومما نوجه الالتفات اليه أمور تستغرب وقوعها من بعض المترجمين فقد رأينا بعضهم يترجم الرواية وينتحلها لنفسه ويذكر في أولها أنها تأليفه وقد تكون مشهورة في اللغة التي كتبت فيها ورأينا بعضهم يتفنن في الانتحال فيغير اسماء أشخاص الرواية من المصطلحات الافرنجية الى المسميات العربية فيبدل هنريتًا بسعدى والفونس بسليم ويبدل مدينة ليون ببيروت وباريس بالاسكندرية أو نحو ذلك مع بقاء الحوادث على حالها فتصير آية في الغرابة والاختلال لان الحادث الذي كان بين ليون وباريس أصبح بين بيروت والاسكندرية وقد تكون المدينة في أصل الرواية برية فيجعلها المترجم بحرية أو بالعكس فترى بطل الرواية أبحر من ميناء بيروت صباحاً فبلغت به السفينة بعد ساعتين الى مينا حلب (مثلا) ! وفي ذلك من جهل الجغرافيا ما فيه فضلاً عن الانتحال فمثل هؤلاء المترجمين يشكرون لرغبتهم في الترجمة ولكنهم يلامون على الانتحال ويؤاخذون لجهلهم مواقع البلاد والتمييز بين ساحلها وبرها

وقد جرت عادة بعض مترجمي الروايات ان يعترفوا بترجمة الرواية ويغفلوا اسم المؤلف الاصلي وقد فرط ذلك أيضاً من مترجمي بعض روايات الهلال وفاتنا اصلاحه ولكنه شائع بين كثيرين من المترجمين وفيه بخس لحقوق المؤلفين

ومما علمناه بالاختبار ان الروايات اكثر الكتب رواجاً وخصوصاً التاريخية منها فمن يترجم رواية ويحسن اختيار موضوعها ويسبكها في قالب عربي سهل لا ريب عندنا في أنه يلاقي اقبالا ورواجاً وعليه أن يراعي الشروط الآتية (١) ان

يختار من الروايات ما يوافق أذواق المشارقة وأخلاقهم (٢) أن تكون خالية من كل ما يخجل القراء أو يفسد أخلاقهم فاذا قرأتها العذراء لا تخجل من حوادثها (٣) ان تكتب بلغة طبيعية سهلة بلا تكلف ولا تقعر فان الالفاظ اللغوية أجدر بالمقامات وكتب اللغة منها بالروايات التي يقرأها الناس في ساعات الفراغ لترويض أذهانهم من عناء الاشغال لا لمراجعة القواميس وحل رموز الفاظها (٤) أن تباع بثمن معتدل ليستطيع اقتناءها كل قارىء فقيراً كان أو غنياً

ومن أغرب ما رأيناه بين المترجمين والمؤلفين أيضاً أنهم اذا ترجموا رواية أو ألفوا كتاباً اذاعوا خبره قبل نجاز تأليفه وفتحوا فيه باباً للاشتراك وعينوا ثمن النسخة قل عشرة قروش قبل الطبع و ١٥ بعده فقد يشترك بعض الناس حياء من كثرة التشويق والناس لم ينفروا من الاشتراك الا لكثرة ما قرأوه من الاعلانات عن قرب صدور كتب ثم لم يروها صدرت قط . فاذا جمع صاحبنا قدراً لم يره كافياً لنفقات الطبع عدل عن طبع كتابه وقل أن يرد الدراهم لاصحابها . ولكننا لنفرض أنه تحمل نفقات الطبع وأصدر الكتاب فيوزع منه جانباً بين مشتركيه ويعرض ما بقي للبيع فيرى الثمن الذي ضربه كبيراً بالنسبة الى حجم الكتاب ونفقاته فيجعله عشرة قروش مثلاً ثم لا يرى رواجاً لسبب ربما كان متصلاً بموضوع الرواية أو لغتها أو غلائها فيجعله خمسة وقد يصل الى قرشين أو ثلاثة وهو يحسب نفسه مضطراً الى ذلك لانه لو لم يفعله لم يبع شيئاً من الكتاب فبعد ان يظن المشترك نفسه رابحاً بالاشتراك يرى انه كان خاسراً فيقسم أن لا يشترك في كتاب قبل صدوره ولا حين صدوره بل ينتظر هبوط ثمنه وهذا هو سبب فشل بعض المؤلفين أو المترجمين عادة والحق في ذلك على الكتاب وليس على القراء فلو راعى الكتّاب الشروط التي قدمناها لراجت كتبهم رواجاً حسناً

---

*

فهرس الجزء الاول

فهرس الجزء الثاني

فهرس الجزء الثالث

صفحة

القسم الرابع

مقالات عمرانية وتهذيبية

صفحة

القسم الخامس

في اللغة والادب والصحافة